

جولة في ربوع أستراليا



مقالات ذات صلة

جولة في ربوع أستراليا

بين مصر وهاونولولو

تأليف
محمد ثابت



جولة في ربوع أستراليا

محمد ثابت

رقم إيداع ٢٠١٣/٢٢٦٣٧
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٥٩١ ١

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٢٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٩	مقدمة
١٣	بداية الرحلة
٤٣	أستراليا
٨٥	زيلندة
١١٧	أمريكا الشمالية
٢٢٧	العودة إلى مصر



روعة الفطرة تلمسها في جمال نساء الماوري من شعوب بولينيزيا في زيلندة الجديدة.

مقدمة

شاءت المقادير أن أحقق هذا العام أمنية طالما جالت بخاطري فحسبتها خيالاً: هي أن أقوم بجولة حول الكرة الأرضية عابراً للمحيطات الثلاثة الكبرى: الهندي والهادى والأطلنطي، متوجولاً فيما أحاط بالمحيط الأعظم من قارات وجزائر، ما خلا شواطئ آسيا التي طفنا بها في عام فائت. ولقد تبَّين لي بعدما حَلَّتْها أَنَا لا نعرف عن حقيقة الحياة فيها إلا القليل **لُبْدَ الشُّقَّةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا.**

جُبْتُ كثيراً من بقاع أستراليا ونيوزيلندا وجزائر المحيط الهادى وأمريكا الشمالية، فألفيت الحياة فيها متقاربة متشابهة، وتغير كل المغایرة ما رأيته في بلاد أوروبا وأسيا وأفريقيا. وهي في جملتها تتحذذ الولايات المتحدة مثلًا لها تحذذيه وتفقو على آثاره، فسنة التطور فيها تسير بخطى جبار، حتى فاق العمران هناك سائر البلاد، واستحقت تلك الجهات أن تسمى بالدنيا الجديدة.

ويظهر بحق أن المحيط الهادى سيكون محط الأنظار ومستمد القوى — مادية ومعنوية — في الجيل المقبل؛ فبلاده كلها فتية لما تجهد مرافقتها أو تخور مناشرتها، وقد نجحت في جملتها من سيئات القديم وتقاليده التي ظلت ولا تزال عثرات في سبيل كثير من وجوه الإصلاح في بلاد الدنيا القديمة؛ لذلك كان يهولني هناك مدى نشاط القوم في الإنشاء والتجديد وما يزد عمر تلك البلاد على قرن وبعض قرن.

على أنها لم تسلم من سيئات المادة والمغالاة في التربية الاستقلالية والحرية المطلقة التي لا تكاد تتقييد بقانون، ولا يکبح جماحها عرف أو تقليد؛ فالفتاة تستبيح السير وفق أهوائها، ويعلم الآباء فيها ذلك وهم به قانعون وله مُنشطون، والآباء لا يتورعون أن يأتوا

ما راقهم دون اعتداد بأب أو رعاية لأم، والخادم يمزح مع سيده ويلهو في حضرته كأنه له ند أو به زعيم.

ولقد شجع هذا العمran هجر المنازل، والميل إلى حياة الأندية والمقاصف والفنادق، فلا تكاد تلمس للبيوت حرمة ولا تقديرًا، فهي أبدًا خاوية من ساكنيها الذين يجرؤون وراء عمل مادي، أو نزهة خلوية، أو ملهي يأوون إليه سحابة يومهم وساعات ليتهم، وحتى الإنسان الفطري نزيل جزائر المحيط الهادئ قد جرفه ذاك التيار فحاكمهم في كل شيء. ولست أدرى ماذا عسى أن تبلغ الحال بأولئك في قرن آخر من الزمان، وقد بلغوا في القرن الفائت ما لم تبلغه أمم قبلهم في عدة أجيال.

وأني لأجدني حائرًا: أنسمي ذاك عمراناً وتقدمًا — وهو لا شك نشاط إنتاجي يبهر العقول — أم تدهورًا وانحطاطًا نال من أخلاقنا الشيء الكثير.

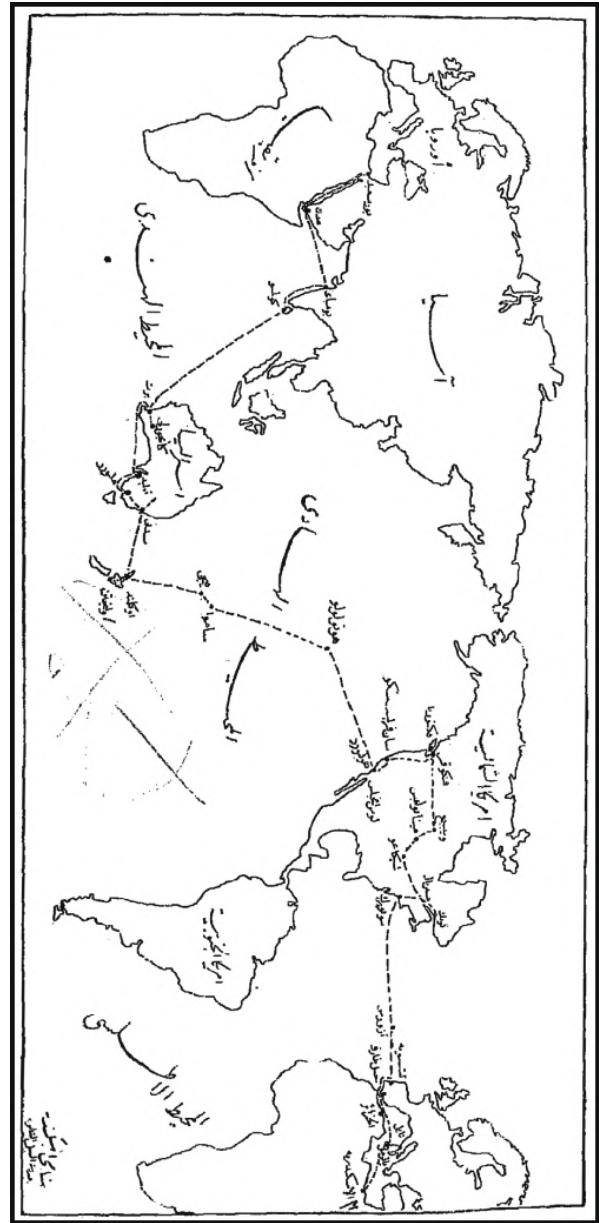
وفي ظني أن مصرنا الفتية التي أصبحت اليوم في فجر عهد جديد تستطيع أن تتحذ من تلك البلاد الجديدة أسوة حسنة في نشاطها المادي والعلمي، وأن تحتفظ بما ورثت من أخلاق، وتقيم في سبيل الانحلال سدواً نتقى بها شر تلك الإباحة المقيمة.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبوا أخلاقهم ذهبوا

محمد ثابت

١٣٥٥ أول رمضان

١٩٣٦ ١٥ نوفمبر



لبيتنا في طوافنا حول الأرض عشرة أيام ومائة يوم، قطعنا خلالها فوق أربعين ألف كيلو متر.

بداية الرحلة

طالما تاقت نفسي إلى طواف كامل حول الأرض، وكنت كلما فكرت في ذلك بدا الأمر متعدراً، وانتقلت به إلى عالم الخيال والأمني، وكيف يستطيع ضعيف مثلي القيام بذلك وقد أعزني الوقت والمال؟ قاربت عطلة الصيف ولم أصمم على شيء ولما يبق لي من الارات الخمس سوى أصغرها: أستراليا، وهل تستحق تلك الجزيرة التي ليس لها كبير شأن زيارةتكلفني كثيراً من المال والمشاق؟ ولكنني أعود فأقول: إن لي في جارتها زيلندا الجديدة وما حوت من آيات الطبيعة هي وما حولها من جماهر ما يبرر زيارة إلى أقصى الأرض مهما حف ذلك من نصب ومشقة.

طفقت أتردد على دور السياحة أتخير من السفن أكثرها ملائمة لي في الوقت والمال، وقد أوشكت شراء تذكرة إلى أستراليا بأربعين جنيهاً في الدرجة الثانية المخفضة Tourist، وإذا بي أتحدث إلى الرجل في الطواف حول العالم، وما أصبو إليه من جولة تعيد إلى ذاكرتي نبأ ماجلان وما قاسى، فقال الرجل: ولم لا تقوم بمثل ذلك وأنت إن فعلت تستطيعه في أربعة شهور، وبقيمة زهيدة عن طريق شركة P. & O. Peninsular & Oriental فقلت: وكم أدفع لذلك؟ قال: مائة وخمسة وعشرين جنيهاً. فلم أتردد لحظة، ودفعت المبلغ وأنا أطيب ما أكون خاطراً وأكثر بهجة.

وكان حظي في السفر على الباخرة مالويا Maloya من كبريات بواخر شركة P. O.، وحمولتها ٢١ ألف طن، وبها من وسائل الراحة وحسن المعاملة وجودة الطعام ووفرته ما لم أجده من قبل في جميع أسفاري على كثرتها. وقد لاحظت أن جل خدامها من الهنود؛ وذلك لرخص أجورهم. والباخرة معدة لعدد من المسافرين يربو على الألفين، وقد كانا بها زهاء أربعمائة.

وقد لفت نظرى علم الشركة الذى قسم إلى أربعة مثاثلات الأبيض والأزرق، وهو برتغالي، والأصفر والأحمر، وهو إسبانى، مع أن الشركة إنجلزية، لكنى علمت أن الشركة قديمة جدًا، ولقد ساعد أصحابها سنة ١٨٣٢ ملكة البرتغال ضد بعض الثوار، وكذلك ساعدت الشركة الملكة إيزابلا في ثورة إسبانية، فشجعت هاتان الدولتان الشركة، وفي مقابل ذلك احتفظت بالعلمين البرتغالي والإسبانى شعاراً لها. ولقد اتخذت الشركة لها قاعدة تجارية هامة في عدن منذ ١٨٤١ قبل فتح قناة السويس، حتى قيل: إنها كانت فاتحة التجارة في تلك الجهات.

كان نصيبي من الباخرة في مجاورة شاب روسي مهذب، وسيم الطلعة، يشتغل بالتدريس في مدارس الهند، فما كاد يعلم بأني مصرى حتى بدرني قائلاً: لماذا تعاملوننا بتلك القسوة في بلادكم؟ قلت: وأية قسوة تعنى؟ قال: منذ حلت الباخرة بورسعيد والبوليس يحوطني، وقد نزل الركاب جميعاً للتريض في المدينة إلا إياي، وقد دهشت لما خبرني زميلي في الكابين بأنه عند عودته متاخرًا في المساء من المدينة رأى الجندي المصرى جالساً أمام باب الكابين وبيده البندقية ليراقبنى، لكنه كان يغط في نومه ولم يشعر بوجودي؛ فلماذا تعاملون الروس هكذا وقد اعترف بنا وبحكومتنا كل العالم حتى من كانوا ألد خصومنا؟!

ولقد علمت بأنه النظام السوفيتى سائر في سبيل التوطيد والاستقرار، وأن شبح البلاشفية بمعناها الذي نعرفه غير موجود في بلادهم، وأن حالة العامة في بلادهم ليست بالبؤس والانحطاط الذي نسمع عنه، فلقد تقدمت حاليهم بما كانت عليه قبل الحرب — وإن كانوا أقل من فلاحي أوروبا — والدولة تعنى بشئون الفلاح والفقير، وهي التي تدير كل المصانع والمزارع والأعمال الرئيسية، فكأن الأمة كلها مجموعة من موظفين ومأجورين تحت إشرافها، ولا يمتلك أحد عقاراً ولا شيئاً من الآلات فقط، بل تلك كلها ملك للأمة، وفي يد الدولة، لكن الناس أحرار في أن يوفروا من دخلهم ما شاءوا، على أنهم كلما جنحوا مالاً وفيراً زادت ضرائب الدخل جدًا، حتى كادت تسوى بين دخل الغنى والفقير إلا في فوارق معقولة.

قامت الباخرة تشق قناة السويس في بطء شديد خشية أن تحدث تيارات جانبية تقربها من القاع، أو تحدث ضررًا بجوانب القناة. ولقد حدثتني سيدة سويسرية كانت ذاهبة إلى الهند عن منظر القناة وبورسعيد بأنه منفر ليس به ما يجذب الأنظار، ولا ما يحقق شيئاً مما قرأت عن مصر وخصبها وجمالها، وحتى بورسعيد بلدة بدت في نظرها

قذرة غير ذات جمال، ولقد كان شعورها خيبة أمل عن مصر، فقلت بأن تلك المنطقة بعيدة عن وادي النيل الخصيب، فهي قطعة من الصحراء، والبلاد التي فوقها أسست لأغراض الإشراف على القناة ووسائل الملاحة فيها، فهي حقاً لا تمثل بلاد مصر.



شكل ١: وسط ميدان رئيسي في بمبأي.

جزنا السويس بعد منتصف الليل، وكان قيامنا من بورسعيد العاشرة صباحاً، وقد مرت بنا زهاء عشر بواخر، وهو متوسط ما يمر في كل يوم طيلة العام، ودخلنا خليج السويس الذي يبلغ طوله ١٧٠ ميلاً، وعرضه بين ٢٥-١٠، وكنا نرى على جانبيه صخوراً مشرفة متناثرة عريت عن كل نبت، وبدت إلى يسارنا عيون موسى بنخيلاها الوفي، وهنا الموقع الذي احتفل فيه موسى وبني إسرائيل بنجاتهم من فرعون وأله يوم عبر البحر سالماً وغرق أعداؤه، وبعد ساعات بدت جبال سيناء المقدسة الشاهقة، وأعلاها جبل أم شومر ٨٠٠٠ قدم، وجبل كترينا بذرتيه: حورب ٨٦٣٠، وموسى ٧٤٥٠، وهنا كلام الله تعالى موسى تكليماً، ثم جبل سربال ٦٧٥٠.

وقدرأينا سلسلة كترينا فاترة على بعد، لكن ذروة موسى لم تكن ظاهرة رغم تكاثير الأعين والمناظير عليها من جانب الباخرة وجمahirها الغفيرة. مكان أثار من الذكريات أقدسها؛ فلقد نشأت في تلك الناحية ديانات ثلاثة كبرى: الموسوية والمسيحية والمحمدية،

رغم ما هي عليه من جدب منفر، وترفة ماحلة. وفي أحد أخاديد جبل كترينا دير للنصارى أسسها جستنيان سنة ٥٢٧ ولما يزل قائماً، وفي مكتبة الدير وجدت أقدم نسخة من التوراة منذ خمسين عاماً.



شكل ٢: غابات شجر جارا في غرب أستراليا.

انتهى الخليج ودخلنا متسعات البحر الأحمر نفسه الذي قد يبلغ عرضه عند أقصى حدوده ١٩٠ ميلًا، وهنا تفتحت أبواب الجحيم فلفظت من هجيرها طيلة الأيام الأربع التي لبثنها فيها، ما جعل الجميع ناقماً على هذا البحر؛ فكان الكل حيارى ماذا هم صانعون في هذا الجو المرض الخانق. لم يهأنا لنا نوم ولا جلوس لا صباحاً ولا مساءً، ولم تكن تتعشنى قليلاً إلا ذكرى الأرض المقدسة: إلى يسارنا الحجاز مثوى الرسول ﷺ، وإلى يميننا الوطن العزيز المقدس مصر والسودان، ولم يفز بهذا الشعور وتلك الغبطة

من جماهير المسافرين سواي. ويا لفرح القوم ساعة أن كانوا يلمحون باخرة قادمة على بعد منا، أو حيوان الدرفل Dolphine الذي كثرت جموعه عند نهاية البحار! ولم نلهم من شواطئه إلا عاتي الصخر ومجدبه؛ إذ لا يكاد يصيغه من المطر شيء، ولا يصب فيه من الأنهر جدول واحد؛ لذلك كانت نسبة الأملاح في مائه أكثر منها في البحار الأخرى، وتحف بشواطئه سلاسل معقدة ذات شعاب عدة من صخور المرجان رغم عمق البحر العظيم، وكانت تعكر مياهه الهادئة طفيليات محمرة غبراء من عشب الماء هي التي أكسيبته اسمه؛ بحر حوى مجموعة من الذكريات الخالدة، والظاهرات العجيبة، رغم طبيعته التي لا تستهوي من الناس أحداً.

عدن

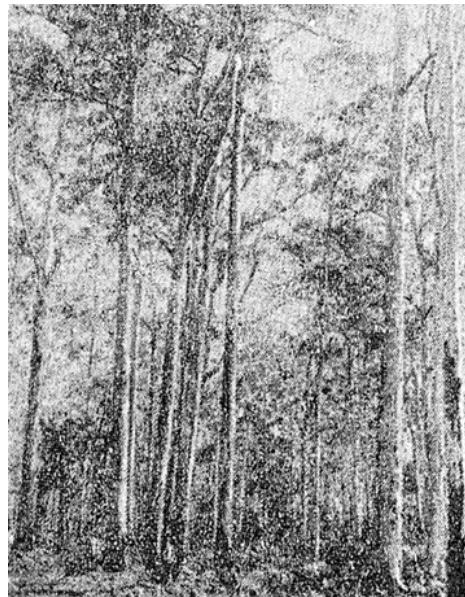
أخيراً انتهى بنا الأمر إلى مياه عدن في السابعة من صبيحة الأحد ١٤ يونيو، فظهرت رياها المجدبة المنفرة منتورة في غير حصر، ووفد من أهلها مختلفي السحن والأزياء والجنسيات جمع كبير؛ هنود وصومالي وعرب وأوروبيون وإنجليز إلخ.

حللنا أرض عدن وأقلتنا سيارة كبيرة ساعتين كاملتين مقابل أجر نصف جنيه لكل واحد منا، وطافت بنا شبه الجزيرة كلها، وأوغلت قليلاً في لحج قرب حدود اليمن. ومنظر عدن من البحر منفر منثور الربي، يوغل البحر فيها بأسن لا تحصى، وكانت قطع الأسطول البريطاني تنتشرها جميعاً. وقد أصبحت عدن من أكبر محاط الدنيا لتمويل الباخر بزيت البترول، وكانت تصنف أمامنا خزاناته في فناطيس هائلة، وفي أعداد لا حصر لها، وجلاً لشركة البترول الإنجليزية الإيرانية، وغالب السفن اليوم تعتمد على البترول بدل الفحم في سيرها.

وفي متسعات البارية من وراء الصخور العاتية ميادين للطيران الحربي، ومعسكرات، ومحطات للبرق اللاسلكي، كل ذلك يشعر بمكانة عدن الحربية، وأنها من مفاتيح البحار المنيعة، تملّكتها الروم في القرن الأول الميلادي، ثم احتلتها الترك سنة ١٥٣٨، وتنازعها البرتغال أيامًا ثم خضعت لحكام صغار، واضمحلت حتى بلغ سكانها سنة ١٨٣٩ «٦٠٠» نفس، ولقد قاسى أسطول الإنجليز التجاري من القرصنة التي كانت عدن مقرها، ففاوض الإنجليز القوم أن يبيعوهم البلدة، ووافق سلطان لحج على تركها مقابل ٨٧٠٠ ريال تدفع سنويًا، لكنه نقض عهده، وسلب سفينة إنجليزية في سنة ١٨٣٩، فأخذها الإنجليز عنوة.

سارت بنا السيارة تشق الميناء في طرق رصفت رصقاً بديعاً إلى جانب البحر، ومن شرقها تقوم الرببي، وأعلاها جبل «شوم شوم أو شام شان»، وعلوه ١٧٢٥ قدم، واسمه مقتبس من الشمس، وعليه تقوم أبراج السكون لطائفة الپارسي عبدة النار، ومنهم هناك عدد كبير، وقد قامت جل حوانيت التجارة والمصارف أسفلها، ثم مررنا بمحلة وطنية على البحر تسمى الملة شهر أهلها منذ القدم ببناء السفن dhow التي غالبت البحار زمناً، وكان الكثير منها يرسو هناك.

وبعد ليات عدة علونا إلى فوهة البركان الخامد التي تتوسطها مدينة عدن القديمة، ولم يكن الوصول إليها ممكناً إلا بعد تسلق جوانب البركان، لكن الإنجليز شقوا أخدوداً لا يكاد يتسع إلا لعربة واحدة وصلها بالتسعات السفل عن الميناء، ويسمونه Main-pass، وفوقه مغارة كان يتعبد فيها هارون، وقيل: هابيل.



شكل ٣: غابات شجر الكاري.

والبلدة تقوم في مدرجاته، وجل أهلها من الهنود والعرب والصومال، ويناهز عددهم ٥٦ ألفاً، واللهمجة السائدة العربية المحرفة، ولعل أعجب المناظر التي تسترعى النظر مشهد العربات على اختلاف أنواعها تجرها الجمال، بعضها في شكل براميل كبيرة لنقل الماء، والبعض في صناديق لحمل المتاع. أخيراً صعدنا الجانب الأعلى من تلك الفوهة، فبدت أحواض المياه القديمة Tanks في ليات بعضها دون بعض، وقد رصفت بالأجر والحجارة، وقيل: إن الذي بناها الفرس سنة ٦٠٠، ويقال: إنها أقدم من ذلك بكثير.

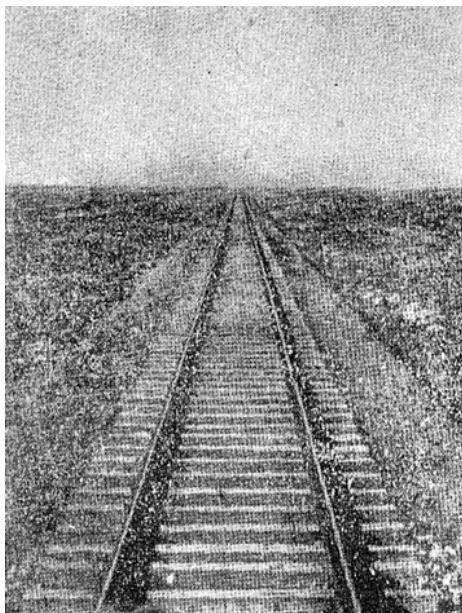
وتتسع لحمل ٢٠ مليون غالون من ماء المطر، على أن المطر اليوم لا يكاد يسقط إلا مرة كل ثمانية سنوات، ويظهر أنه كان كثير التهطل في الزمان الغابر، وكانت تلك المياه المدخلة تسقي البلاد جميماً، وعند سقوط الماء يباع بالمزاد جملة، ويوزعه المعهدون بالقرب والصفائح والعربات، وكلما ملئ الخزان مرة أغرق نفراً من الناس، وذلك فأل حسن في زعمهم.

نزلنا ذلك الجبل وسرنا صوب بلاد العرب، فمررنا بمتسعات من مناقع يجفف فيها ماء البحر لترسيب الملح، وكانت تنتشر بأكواخ الملح الأبيض، وببطواحين الهواء التي تدار لنزح ما فاض من المياه، وجل ذلك الملح يصدر إلى بلاد الهند، وبعد زهاء ثلاثين ميلاً أقبلنا على بلدة الشيخ عثمان، وفيها آبار أرتوازية ركب عليها الآلات، ومدت الأنابيب الغليظة لنقل الماء إلى جميع أرجاء عدن، فهي مصدر الماء الهام في تلك البلاد، وهناك زرعت متسعات من بساتين يانعة هي الظاهرة الوحيدة للخصب في تلك البلاد الصحراوية، وإلى جانبها بدت مباني لحج التي تدخل تحت الحماية البريطانية، وسلطانها صديق للإنجليز حميم.

ومجموع سكان الحماية كلها ٨٠٠ ألف، وتحكمها وزارة المستعمرات إلا بلدة عدن، فهي تحت حاكم الهندي؛ لذلك كانت النقود المتداولة الروبية والأنا.

هنا توللت الذكريات خصوصاً عندما حدثنا الرجل أن في هذا المكان بقرب الملة تدفن رفات قايل قاتل هايل، وهنا في متسعات تلك الأرضي كانت تفدي ملكة سباً لتلهو وتلعب في الشتاء، ولقد أبحرت من مياه عدن يوم قامت للقاء سيدنا سليمان عند خليج السويس.

وأظرف شيء في عدن أن الناس لا يلقون عنتاً من رجال الجمارك ولا تفتئش كما يحدث فيسائر الثغور، فينghost على المسافر عيشه؛ فهي ميناء حرث فيما عدا الأسلحة والكحول والأعطار.



شكل ٤: تشق سكة الحديد صحراء أستراليا دون انحناء مسافة ٣٠٠ ميل.

قامت الباحرة تبرح عدن بعد أن رست في مياهها ثلاثة ساعات، وما كدنا نبرح الميناء وتغيب عن رُباه حتى تبين لنا أن الباحرة تركت اثنين من المسافرين؛ أحدهما هندي يقصد بمبای، وهو شاب قصير القامة، أسود اللون، مرح، ميال إلى اللهو واللعب، وهو طالب في جامعات إنجلترا، والآخر ألماني طويل القامة، غير جذاب السحنة، نزلا بجوبان بعض أرجاء البلدة؛ فتجاوزا الميعاد المضروب لقيام الباحرة، فلم تعبأ لهما. والعجيب أنهما مفلسان؛ فلقد جاءني الأسود بالأمس يقول بأن صاحبه الألماني قد سقطت حقيبة نقوده وهو يتريض في بورسعيد، وأصبح لا يمتلك مليماً وهو ذاهب إلى أستراليا معه؛ فهل لي أن أقرضه جنيهات، حتى إذا ما وصل أستراليا ردّها إلى؟ فقلت: ولم لا تقرضه أنت؟ قال باني أفلس منه.

فترددت وقلت: لا إخال نقودي تكفي أن أقرض أحداً، ومع كلّ سأرٍ ما يمكن عمله في الغداة، ولبيثت حائراً كلما ذكرت حرج موقفه، وصممت أن أقرضه شيئاً، على أني كنت

الأحظ عليه أنه كثير الاختلاط بالفتيات يساهمن الرقص، ويشارطهن الشراب، ويسرف في ذلك وفي شرب الدخان في مظهر لا يدل على الحاجة أو العوز، ولما أن تركته البالغة في عدن علمت عنه أنه شبه محظى، فحمدت الله أني لم أقرضه شيئاً، وظل موضوعهما حديث المسافرين طيلة اليوم، وأنهما سيلبثان في هجير عدن أسبوعين كاملين حتى تفدي البالغة التالية ولا مال لديهما ولا مداع!

أوغلت البالغة في مياه خليج عدن، ولبثت اليوم كله وما ينقص الحر، لا بل أخذ في الزيادة إلى درجة كدنا نختنق معها، وأصابني صداعاً أثنا وكثيراً من المسافرين من جرائه، ولما حان ميعاد العشاء جلس إلى جنبي ضيف هندي جديد، نحيل القامة، أسمر اللون، براق العينين، تعلوهما نظارة أعادت إلى ذكري شيخ غاندي كاملاً، وكان كلما قدم الخادم إليه صنفاً من الطعام تشكي فيه ورفضه، فجاءه رئيس الموائد فعلم منه أنه نباتي لا يأكل اللحم - وأمثال أولئك في الهند كثيرون - فأخذت أحدهما عن ذلك فقال بأنه لم يذق اللحم طوال حياته، قلت: ولماذا؟ قال: هي عقيدة أصبحت عادة متصلة؛ فلا أكاد أطيق حتى رؤية اللحم، قلت: إذن فسأكون في جوارك من أكبر المنغصات؛ لأن جل غذائي أنا من اللحم، فتظرف الرجل وقال: كلا، بل لا يضايقه ذلك، على أنني لاحظت أنه لا يفدي إلى المائدة إلا عندما أكاد أنتهي من طعامي. وهو مدرس هندي في مدارس عدن الحكومية الابتدائية، وقد قال لي: بأن جو عدن شديد الحرارة مدى ثلثي العام، لكنه صحي جداً؛ إذ قلما تنتشر الأمراض في تلك البلدة لجفافها.

أصبنا في اليوم التالي والبحر مضطرب مائج، والرياح شديدة بليلة، وهي الموسمية التي أنقصت من حرارة البحر الأحمر حتى اضطررنا أن نلبس المعاطف الخفيفة، على أن اضطراب الماء قد أصاب الكثير منا بمرض البحر، وقد أحسسته أنا وظل ينبعاني يومين كاملين، والعجيب أنه انصرف عني بعد ذلك، مع أن البحر زاد شدة - ويظهر أن الإنسان إذا ما اعتاده قليلاً خفت وطأته - وظل زهاء نصف المسافرين لا يجلسون على موائد الطعام، بل يستلقون على مقاعد فوق سطح البالغة في الهواء الطلق؛ لأنه خير علاج لإيقاف شر ذلك المرض المُمْضّ.

وكم كان يدهشني من جموع السيدات، وجلن من الأستراليات، إدمانهن على التدخين! فأمنت لا تكاد ترى الواحدة إلا والسجائر في فمهما، وصندوقي السجائر الكبير في يدها إلى جانب كتابها. وتلك ظاهرة لم أشهدها في سيدات الشعوب الأخرى إلا على سبيل الاستثناء. والأستراليون معروفون بالإباحة الشديدة؛ فهم يطلقون حرية كبيرة للنساء.



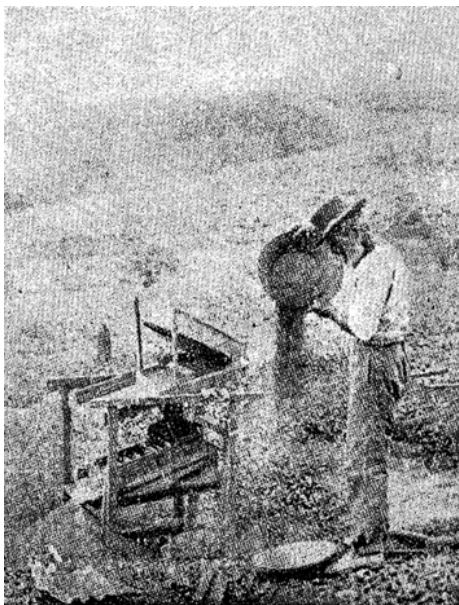
شكل ٥ : البئر المباركة في الجبال الزرقاء بقرب سدني.

ومما كان يشير عجبي مظاهرهن وهن يسرن عرايا إلا في ست العورة، وكأن أزواجهن يستعرضن جمال جسومهن أمام أنظار الغير، وإذا ما أقبل المساء ارتدين مهفهف ملابسهن في أزياء عدة تتتنوع بين ليلة وأخرى، ويجلس الجميع رجالاً ونساء حول حلة الرقص.

ولا تكاد تعزف الموسيقى في التاسعة مساء حتى يقبل الكل على المخاضرة والرقص إلى ساعة متأخرة من الليل. وكانت تلك هي وسيلة التسلية الوحيدة تقام كل ليلة، أما في خلال النهار فهناك من الألعاب: تنس البواخر، والبنج بنج، والحمام، ورمي الحلقات، والأراجيح، وكيف يمكن التغلب على سأم السفر الطويل إلا بتلك الوسائل المتعددة؟!

على أني لاحظت أن مزاج الإنجليز أبعد عن الموسيقى إذا قورنوا بغيرهم؛ فلا تكاد تعزف إلا للرقص، أما في البواخر الألمانية فكانت الموسيقى تلعب أدوارها أربع مرات في اليوم على الأقل، وقد كانت معنا عائلة إسرائيلية ألمانية طريدة ألمانيا بسبب اضطهاد هتلر لها، فهاجرت لترتزق في أنحاء أستراليا، وكانت سيدتهم تشتف أسماعنا كل ليلة بعزفها الجميل على البيانو.

لبثاليومين السالفين أُعرض عن تناول الطعام إلا في قليل من الفاكهة الطازجة؛ خشية أن يعاودني مرض البحر، وكان شعوري به يتعدد على آنَا فآنَا، وكانت رأسي أميل



شكل ٦: لا تزال تلك الطريقة الساذجة مستعملة في استخلاص الذهب من رمال أستراليا الغربية.

إلى الثقل، وفي اليوم الثالث قمت من نومي عند الأصيل وأنا مكتئب مقطب الوجه، وبينما أنا أسير في جانب منعزل من السفينة وإذا باثنين من البحارة يحملان نقالة عليها جثة سيدة هي Miss Love، وقد فتح جانب من الدرابزين ومدت لوحة مستطيلة من خشب وضع الجثة عليها، بعد أن حنطة ولفت في قماش لا يخترقه الماء Water Proof وأثقلت بالعوارض المعدنية، ثم أرخى عليها العلم الإنجليزي ووضعت بحيث تواجه أرجلها الماء، وعند رأسها أقيمت منضدة عليها مجموعة من الأنجليل فتحت ونكست عليها، ثم جيء بابنها، وهو شاب نحيل، وزوجها ولا يصل العقد الخامس، وأجلسا على مقعدين إلى جوارها، وما كاد يسمع خبرها الجميع حتى فزعوا وتكاثروا يُطلون من هنا وهناك. وكان نصف الجثة يشرف باللوحة الخشبية على المحيط، وما كادت الشمس تغرب في السادسة والنصف تماماً حتى نفخت الباحرة في صورها، وأبطأت سيرها، ثم وقفت في

عرض البحر، وعند ذلك أمال البحار لوحات الخشب فنزلت الجثة عليها إلى اليم، وغاصت إلى حيث لا يعلم إلا الله مستقرها؛ فعلا الكُرْ وجوهنا جميًعاً، وصاحت آنسة جميلة صيحة فزع، ثم أغmé عليها، فأسرع الآخرون بإيقانها، ثم أقبل الكل إلى الرجل وابنه يعزونهما في فقدانها، وقد كانت مريضه وتقصد بلاد أستراليا للاستشفاء، فوافاها أجلها في تلك البقعة التي لم تكن تخطر ببال أحد: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّا دَرِكَتْ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ صدق الله العظيم.



شكل 7: شارع هانان الرئيسي في كالجوري.

ولقد عجبت لما رأيت الرجل وابنه على مائدة الطعام بعدها بقليل يأكلان معنا عشاءهما، مع أنَّا نحن لم نتناول من الطعام إلا بيسير بسبب ما خلف ذاك الحادث عندنا من أُسى، ثم سرعان ما نسي القوم الموقف، وبدا الكل في مختلف ملابسهم الفاخرة وزينتهم البراقة، ومن بينهن الغادة التي أغmé عليها، على أن الباخرة أعلننهم بأن الموسيقى والرقص سيوقف عرضهما الليلة حدًّا على الفقيدة. وفي الحق ماذا يجدي الحزن بعد أن نفذ قضاء الله ولا راد لقضاءيه؟ مظهر من مظاهر الإيمان كان أجدب بنا نحن الشرقيين!

أعلن القوم عن سحب يانصيب هذه الليلة للمشترين مقابل ٢٧ شلن للنمرة، وكذلك أقيمت حفلة سباق الكلاب، وذلك من ستة كلاب خشبية يتصل كل بحبل يلف طرفه في بكرة تمسك بها سيدة، وعندما تُعطي الكلمة تحاول كل منهن طي الحبل، ومن أسرعت سبق كلبها وفاز، ولكل من النظارة أن يراهن على من شاء بشلن واحد، وقد جربت حظي في النوعين من المقامرة فلم أصب شيئاً.

بمباي

وفي اليوم التالي وصلنا بمباي في الساعة الرابعة والنصف مساء، فبدأ الخليج تحف به الربى الوطئية من الجانب الأيمن، وفي الأيسر تقوم المدينة على بسيط من الأرض، وفي الصدر ظهرت بوابة الهند *Gateway of India* في قوس مشرف، وإلى مقربة منها فندق تاج محل أكبر فنادق البلدة. وخشيـت من انخفاض المـلـو تـأـخـرـناـ فيـ الدـخـولـ، وعـنـدـ ذـلـكـ تـرسـوـ بـعـيـدـاـ، لـكـنـ كـانـ وـصـولـنـاـ قـبـيلـ اـنـسـحـابـ المـدـ. ولـقـدـ تـعـكـرـ مـاءـ الـمـحـيطـ قـبـلـ ظـهـورـ بـمـبـايـ بـسـاعـةـ مـنـ الزـمـانـ؛ فـكـانـ يـبـدوـ وـكـأنـهـ مـاءـ النـيـلـ أـيـامـ الـفيـضـانـ.

وبمباي يقع أغلبها على جزيرة مستطيلة تصلها بالهند قناطر عـدـةـ.

نزلنا البلدة بعد أن فحـصـتـ جـواـزاـتناـ وـخـتـمـتـ بـطاـقـاتـ النـزـولـ إـلـىـ البرـ، وـقـدـ نـزـلـ مـنـ رـكـابـ الـبـاـخـرـةـ زـهـاءـ ١٥٠٠ـ، وـلـمـ يـقـعـ مـعـنـاـ مـنـ الـمـسـافـرـينـ إـلـاـ القـلـيلـ، وبـمـبـايـ تـعدـ أـهـمـ الثـغـورـ الـتـيـ تـرـسـوـ عـلـيـهـاـ بـوـاـخـرـ تـلـكـ الشـرـكـةـ. جـبـنـاـ أـرـجـاءـ الـبـلـدـ الـمـجـانـبـةـ لـلـمـيـنـاءـ فـكـانـتـ آـيـةـ فـيـ الـفـخـامـةـ وـالـنظـافـةـ، كـلـهـاـ قـصـورـ شـاهـقـةـ، وـعـلـىـ أـنـمـاطـ مـنـ الـهـنـدـسـةـ مـتـبـاـيـنـةـ، وـكـثـيرـ مـنـهـاـ يـحـكـيـ الـقـلـاعـ، وـمـاـ كـدـنـاـ نـوـغـلـ فـيـ قـلـبـ الـمـدـيـنـةـ حـتـىـ تـجـلـتـ الـأـحـيـاءـ الـوـطـنـيـةـ بـشـوـارـعـهـاـ الـمـطـوـطـةـ، وـأـجـسـامـهـ الـهـاـزـلـةـ، وـأـلـوـانـهـ الـسـمـرـاءـ الـقـاتـمةـ.



شكل ٨: المـلـيـلـ الـذـهـبـيـ بـحـفـائـرـهـ وـمـنـاجـمـهـ فـيـ كـالـجـوـرـلـيـ.

أما الأزياء فمدـهـشـةـ فـيـ تـنـوـعـهـاـ وـأـلـوـانـهـاـ، وـبـخـاصـةـ مـعـاطـفـ السـيـدـاتـ إـنـاـ كـنـ مـنـ الطـبـقـةـ الـمـتـازـةـ، فـكـلـهـاـ مـنـ الـحـرـيرـ الـمـهـفـهـفـ؛ هـذـاـ أـحـمـرـ قـانـ، وـذـاكـ أـخـضـرـ زـاهـ، وـالـآـخـرـ

أصفر فاقع، والرابع أبيض ناصع. وتلك أجمل ظاهرة تسترعي النظر في بمباي. أما السّحنُ فلا تكاد تلمح في إحداها مسحة من جمال قط. ومن أزياء الرجال كان يستلفت النظر جماعة البارسي في كل مكان، ويلبسون على رءوسهم قلنس سوداء، وعلى أجسامهم معاطف سوداء طويلة «بلاطي» تكاد تصل إلى ما دون الركبتين.

وهم الطبقة التي بيدها أغلب رءوس الأموال، والتي تدير الشؤون التجارية، فهم في جمع المال والحرص عليه يشبهون اليهود، وأكثر عددٍ منهم في تلك البلدة. ومما شاهدناه لهم أبراج السكون الخمسة التي تعرض فيها موتاهم عارية، حتى إذا ما نهشت العقابان البرية لحمها أخفيت العظام في آبار هناك.

ولقد كان يهولني عدد الجماهير التي تموح بها الطرقات؛ إذ تكاد الرءوس والأكتاف تتلاصق، ولا يستطيع الواحد أن يشق طريقه بينهم إلا بجهد كبير، ورغم كثرة عربات الترام والأتوبيس لا تجد مكاناً خالياً أبداً، وإذا نظرت إلى البيوت من داخلها بدت كأنها خلايا النحل؛ لضيقها وكثرة نزلائها.

ورغم أن بمباي تعد أكثر بلاد الهند رقياً وتحضرًا، فقد كانت نرى السواد الأعظم من السكان من أشباه العرايا الذين تعلوا وجوههم علامات طوائفهم من نقط وخطوط في أشكال عده، وجلهم يسير وأفواههم مفتحة ينضح منها ذاك اللعاب الأحمر الذي يحكي الدم، من أثر ما يمضغون من ورق شجر «البيتل» المنفر الشكل والمذاق. وقد كنت أوجست خيفة المغalaة يوم أن تكلمت عن الهند في جولتي في ربوع آسيا ووصمتها بالتأخر المعيب، لكنني أفيتني مصيباً فيما كتبت.

لبثت أنا وزميل هندي من جزيرة سيلان تتجول في أنحاء عاصمة الهند التجارية زهاء أربع ساعات، ومن العجيب أنه لم يستطع أن يفهم من لغات القوم العدة كلمة واحدة، فلغته هو تامل، ولغات بمباي هندوستانى — وهي اللغة التي يفهمها أكبر عدد من الهنود — وججوراتي وكثير غيرها، والمثقفون يتفاهمون بالإنجليزية.

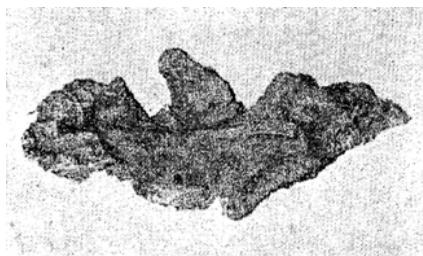
قمنا نبرح بمباي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ولبثنا نسir إزاء الشاطئ وجبال اللغات الغربية الوطنية تبدو على بُعد إلى يسارنا، وكانت الرياح الموسمية الجنوبية الغربية حقاً تهب في شدة لا يأس بها، وتحمل معها السحاب الذي أمطرنا كثيراً في بمباي، وكان يسح تارة ويمسك أخرى ونحن سائرون وسط اليم.

والليوم السبت «٢٠ يونيو ١٩٣٦» قمنا والجو غائم، كثيف السحاب الذي بدا متصلةً بماء المحيط، حتى كان الجو قاتماً مظلماً، وظل المطر هاتناً مدراراً طيلة النهار إلى

الظهر، ولقد فاجأتنا السفينة بالوقوف والصفير المتواصل؛ فذعرنا، ولما أن تساءلنا عن الأمر قيل: إنها تسلمت رسالة باللاسلكي أن باخرة أخرى قادمة إلى الشمال، وخشية أن تصطدم معها بسبب كثافة الجو وظلامه ظلتْ تصرّ، وتوقف تارة وتهديء السرعة أخرى حتى مرت بنا تلك السفينة، فاستأنفنا سيرنا بالسرعة العادلة، وهي زهاء ١٨ عقدة في الساعة.

كولبو

وفي باكورة الصباح بدت بلاد جزيرة سرديب، وأقبلنا على ثغرها الرئيسي كولبو – ومعناه بالسنهالية: ورق المانجو «منجه Cola ورق Amba» لكثرة ما كانت تنمو تلك الأشجار هناك، ولقد كان ثمرها يعرض في كل مكان بقيم زهيدة جدًا – تقدم بولييس الميناء وختم الجوازات لمن يريد نزول البر، ونقلتنا لانشات الشركة مجانًا إلى الشاطئ، فكانت شوارع البلدة ومبانيها آية في الجمال وخفة الروح، خصوصاً الحي المجانب للميناء ويسمى The Fort، وحتى الأحياء الوطنية البحتة التي ركينا لها الترام تارة والأمنبوس أخرى إلى بُعد زاد على ستة أميال.



شكل ٩: النسر الذهبي: أكبر كتلة من ذهب زنتها ١١٣٤ أوقية.

كل هذه بدت جميلة تزيينها الخضراء الرائعة في كل الأرجاء، فكان البلد قامت كلها وسط غابات لا أول لها ولا آخر؛ فلا تقع عيناك إلا على أشجار ومروج تتوسطها المساكن كبيرة وصغرتها، وكذلك الحوانين. وتغريد الطيور على اختلاف صنوفها يشجيك أينما

سرت — اللهم إلا صيحات الغربان التي تتكاثر حولك في غير خوف ولا فزع فتزعجك دائمًا — ويلفت النظر نظافة البلدة حتى في أفق نواحيها، وكذلك دقة البوليس وحسن إشرافه على كل شيء، غير أن ذاك الجمال ينقص منه مظهر الفقر الذي يسود الكثير من الناس، وكثرة المتسولين الذين يضايقونك إلى درجة تفقدك الاستمتاع بتلك الجنة النادرة.

وكم من مرة ذعرت على غرة، حين ألفيت صبيًّا أو طفلة عارية قد أسرعت بإلقاء جسدها على الأرض تحت قدمي، وتمرغت وهي تمسك، ثم تمسكت بالحذاء تقبله في منظر تستنكره النفوس! وكم هاجمنا من سائقي «الركشا» وألحفوا في الحديث معنا، والإصرار على أن يقودونا إلى هنا وهناك ليطلعونا على البازار والحدائق ودور الرقص والمجون وما إلى ذلك، ونحن نرفض كل أولئك! لكن أَنَّى لنا أن نغلب ذاك اللجاج الذي ينبع على الإنسان عيشه، وقبل أن نتخلص من هؤلاء بعد النهي والزجر يداهمك غيرهم. ولقد كنا نسير ومن ورائنا جيوش من سائقي الركشا من المتسولين والسماسرة، ويا ويلنا لو وقفنا ننظر إلى حانوت أو ومعبد! هنا يهاجمنا أهله، ويتمسكون بنا أن نزور حواناتهم لاستعراض ما هناك فقط لا للشراء؛ فإن فعلنا ذلك تمسكونا أن نشتري هذا وذاك، وإن حاولنا ذلك ضوعفت الأثمان واستخدمت الحيل حتى غير الشريفة لإرغامك على الشراء! وأنت في ذلك الحين تحاط بعدد ممن لا دخل لهم في الأمر يزجون بنفسهم في الحديث، وإذا فرغت من ذلك المكان طلبوا منك أجر تدخلهم هذا!

ظاهرة ما كان أجرد بالبوليس الدقيق هناك أن يقاومها أشد المقاومة، وهو إن فعل وَفَرْ على السائرين كثيرًا من المضايقة، وشجعهم أن يكتروا من زيارتهم لا أن يجتنبوا. ولقد حدثني بعض ركاب الباخرة أنهم لاقوا من أمثال تلك المضايقة كثيرًا في بورسعيد، فهلاً عُني بوليسنا بالضرب على أيدي أولئك السمسارة والمتسولين والمتدخلين حتى لا يشعر السائحون بمثل ما شعرت أنا به؛ مما كرهني في زيارة تلك البلاد.

حان ميعاد الطعام فأردنا أن نجرب المطاعم القومية لنرى ما فيها، فما كدنا ندخل واحدًا منها حتى سرت بين أصحاب المطعم وخدمه شبه موجة حربنا في تفسيرها، وأخذوا يتهمسون ثم تقدم رئيسهم فطلبنا إليه طعامًا، فقال: أرز وكري Rice & Curry؛ فأي نوع منه ترغبون؟ قلنا: لا ندري، فهات ما عندك. فوضع أمامنا صحفة ملئت أرزًا مسلوقًا في وسط المائدة، وأحاطها بأطباق صغيرة بها طائفه من سائل أصفر كثيف، به قطع من مواد مختلفة علمنا أن بعضها من لحم بقرى أو ضانى، أو دجاج أو سمك،

والبعض من خضر لم نعرف أغلبها سوى العدس والقرع، وبكل طبق نوع واحد من هذه، ومذاقها كلها حريف جدًا.

فأخذنا نغترف الأرز في أطباقنا ونلوثه بذلك الكري، ولما طلبنا خبزاً قال بأن ليس له وجود عندهم، لكنه أحضر لنا مقاصيص من رقاق منتفخ صنعوه من دقيق الحمص. أما الفاكهة فالملوز أو المانجو بالطبع. فرغنا من الطعام وعند دفع الحساب تداولوا في الأمر، ثم طلبوا ثمناً فاحشاً غير معقول، هو زهاء عشرين قرشاً لكل منا، مع أن ثمن ما أكلنا لا يكفي الوطنيين أكثر من قرش واحد أو اثنين؛ فثارت ثائرتي وقلت بأني لن أدفع ذلك، وبعد مشادة قبلوا شلنين لكل منا، وخرجنا ناقمين على أولئك اللصوص الذين يحالون استغلال الغريب بدرجة هي السرقة بعينها.

أما الأهلون فأعمق سواداً في لونهم من الهنود، وجلهم يرتدون الملابس الوطنية في لفافة حول الخصر يربطها حزام، ثم تتدلى طياتها إلى القدمين، وعلى النصف الأعلى قميص أو «جاكتة»، والعجيب أن جل ذلك من الحرير حتى لأفقر الناس، ومنسوجات الحرير النباتي هناك رخيصة جدًا؛ فالقميص يبدأ ثمنه بشلن واحد، وبعضهم كان يبدو في حرير ممتاز غالى الثمن، والعجيب أن الجميع يسيرون حفاة مهما بلغ من نظافتهم ووجاهة هندامهم.

أما النساء فسافرات جميعاً إلا المسلمات — وال المسلمين كثيرون جدًا في تلك الجزرية، ويلبس رجالهم الطرابيس، والعجيب أن الكثير كان يعرف مجرد النظر إلى بأنني مسلم فيقول: «مسلمان؟ فأجيب: نعم؛ فيسرُّ ويلاطفني حتى يبرح الترام وكأنه لقي واحداً من أهله. هذا ولم ألح في نساء تلك البلاد كلها واحدة عليها مسحة من جمال قط، فهنَّ أمعن قبحاً من الرجال، فكان الطبيعة بقدر ما أسرفت في جمال نباتها وحيوانها اجترأته من وجوه نسائها، على أن تقدير الجمال نسبي على ما بدا لي؛ لأن أحد رفقاء الباخرة من الهندو ألفت نظري إلى سيدة قال بأنها آية في الجمال، فخلته هازلاً لا جاداً؛ لأنها كانت على جانب كبير من القبح.

ومن الديانات السائدة: البوذية، وكنا نرى قسس بودا يسيرون حفاة وقد تدثروا بملابس الونها فاقع — أصفر أو برتقالي أو أحمر — ورءوسهم عارية، وقد حلقت شعورها، فبدت الجمجمة براقة محمرة، إلى ذلك ديانة الهندوس، ولغات الكلام مختلفة تسودها اثنتان: التاميلية، والسنهالية.

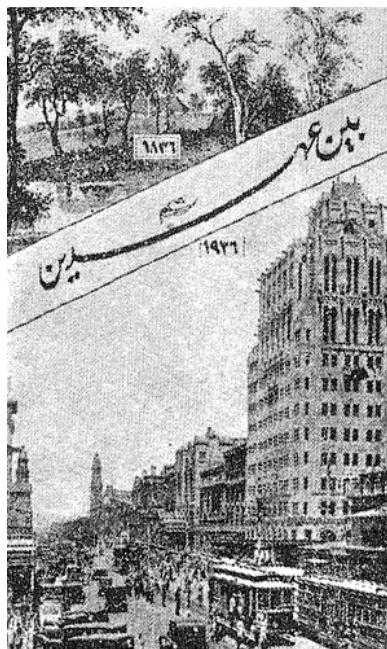


شكل ١٠: شجرة الكاري ذات الخشب الصلب والقوام الذي يفوق خمسين متراً.

ومن الجهات التي تروق السائح كثيّراً حديقة النبات Cinnamon Garden، وبها جل طوائف النبات الاستوائي، وكذلك قنطرة فكتوريا ونهر فكتوريا الذي يجري إلى جانب البلدة.

وجو البلدة تلطّفه الرياح الموسمية فيصير منعشاً جميلاً إذا حجبت الشمس سحابة خفيفة، وإلا كانت أشعة الشمس حارة محرقة، ولقد فاجأنا المطر بعد الظهر في غزارة عجيبة، على أنه لم يجاوز ساعة من الزمان، ثم عادت السماء تنفسها الغيوم المبعثرة حتى المساء حين أتينا إلى الباخرة، وكانت حركة الشحن دائمة، وجل البضاعة من شاي

سيلان ذاتع الصيت يرسل إلى أستراليا، ونيوزيلندا، وسكانها من أكثر بلاد الأرض استهلاكاً للشاي.



شكل ١١: أصبحت أديليد من أخر مدن الدنيا بعد أن كانت قرية ريفية منذ مائة عام.

وفي تمام الساعة العاشرة مساء أذنت الباخرة بالرحيل؛ فدققت أجراستها، ونفخت أبوابها، وتنحت عن الميناء بأصواتها المنشورة يشرف عليها جمِيعاً إعلان عن شاي سيلان بالضوء الأزرق في حروف كبيرة جدًّا. ظل الركاب يتحدثون عما بقي من الأيام إلى أستراليا يستكثرونها؛ لأن الباخرة لن ترسو على البر إلا بعد تسعه أيام كاملة، وزاد الأمر وحشة أن عدد المسافرين قد انضمَّرَ جدًّا؛ لأن جلهم نزحوا إلى بمباي وكولمبو، على أن البحر أصبح في اليوم التالي أكثر هدوءاً.

وفي المساء أعلن الربان أن السفينة ستتجاوز خط الاستواء الساعة السابعة والربع تماماً من صباح الغد «الثلاثاء ٢٣ / ٦»، فقمنا مبكرين لتعلم من هذا الخط قبساً يفصل

ما بين نصف الكرة الأرضية، والعجيب أن جل المسافرين قاموا مبكرين، وأخذوا يشيرون إلى نواحي البحر وكأنهم رأوا وسط اليم خطًا أو فاصلًا، وكانوا مغتبطين لأنّا بدأنا ندخل مياه النصف الجنوبي، وهي لا شك أطهر شائناً، وأراضيها أقل زحاماً وعبثاً. وكان البحر يومنا هذا أملس هادئاً لم تك تخدش أديمه موجة واحدة كأنه لجة من زيت براق.

ولقد أعلن الربان أن الساعات يجب تقديمها عشرين دقيقة كل يوم حتى نصل أستراليا؛ لأن انتقالنا إلى الجنوب الشرقي سيظل في زاوية واحدة لا تتغير، وكلما قاربنا الشرق بـَّ شروق الشمس، وجاء ظهراليوم سابقاً لظهر الأمس، ولم تحفل الباخرة كثيراً بخط الاستواء كما فعل الألان يوم عبرته ذاهباً إلى أمريكا الجنوبية. والحق أن الباخر الألماني أكثر مرحاً وأدعى للترويح عن المسافرين، ويظهر أن الصلف الإنجليزي وبرودهم المعروف قد أثر حتى في تلك المناسبات.

ولقد كان الجو صافياً، والنسيم عليلاً طريراً منعشاً لم يحقق تلك المخاوف التي تزعجنا بها الجغرافيا عن خط الاستواء، وهجير حرها، ووابل مطرها، على أن اتجاه الرياح قد تغير؛ فبعد أن كانت بالأمس تهب وافدة من يميننا جهة الغرب أصبحت اليوم تفدي من يسارنا، وهو الشرق؛ والأولى هي الموسمية الجنوبية الغربية، والثانية هي التجارية الجنوبية الشرقية.

حل المساء، وزينت الأبهاء بالثيريات الكهربائية الملونة، والجوانب بالأعلام المختلفة، وذلك احتفاء بعيد ميلاد ملك الإنجليز؛ إذ قد بلغ الثانية والأربعين، وظل القوم يرقضون إلى ساعة متأخرة من الليل، لكن عددهم القليل قد أنقص كثيراً من بهجة الاحتلال؛ إذ كانوا لا نعدو الخمسين مع أن الدرجة الثانية أعدت لأكثر من ستمائة، ولا يفضل القوم السفر إلى أستراليا على باخر Orient Line لا شيء سوى أن الشركة الأولى تستخدم كثيراً من الهنود في المطعم والحجارات، أما الأخرى فكل خدامها من الإنجليز.

وإني لأعجب من عصبية القوم لألوانهم وجنسياتهم؛ فبمجرد أن يلمحوا أحداً تشبّب لونه السمرة ولو الخفيفة خالوه Coloured، ونظروا إليه نظرة أخرى، وتحرجوا معه في الاختلاط والحديث كأنه وباء يوشك أن يصيبهم. وتلك النزعة لا تلمحها تبدو ظاهرة إلا بعد اجتياز قناة السويس؛ فعندئذ يبدئون التفرقة، ويظهر أنهم يُلقّنون ذلك أبناءهم منذ الطفولة، حتى إنّا كنا نلاحظ صغارهم ينفرون من الهنود حتى ولو كانوا من ركاب الدرجة الأولى.



شكل ١٢: تمتاز أدلية بشوارعها الفسيحة الممتدة.

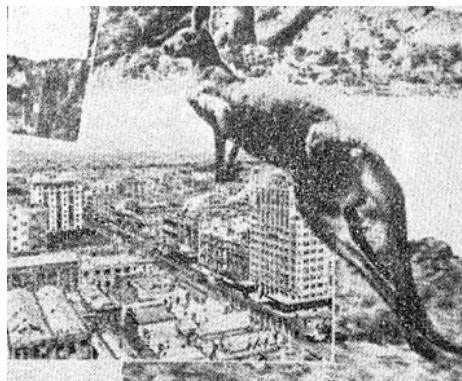
وأعجب كيف لا يقابل الشرقيون ذلك بمثله أو يزيد، بل يعترفون بتلك الذلة والمسكنة، ويتحدثون عنها وكأنها أمر واقع قضى به الله عليهم؛ فهلا تكتافنا على مقاطعتهم، وعدم التودد إليهم، والترفع عنهم حتى يثبوا إلى رشدهم، ويقلعوا عن ذلك الصلف الأجوف. ولقد كنت ألمح في معاملتي لهم؛ إذ كنت أنبو عنهم ولا أكثرت لهم، فكانوا هم يحاولون بعد ذلك مخالطتي وخطب ودي من نواحٍ عده.

بدأ البحر منذ عصر الخميس يضطرب والرياح تعصف، وظل كذلك طوال الليل، وأصبح أكثر عنفاً؛ إذ كان موج البحر يعلو جوانب الباخرة فلم يستطع أحد البقاء على السطح، بل آتوا إلى مضاجعهم، وكانت أغلب مقاعد الطعام خالية، وكان الجو رطبًا، والسماء محملة بكثيف الغيوم، فكان ذلك في ظني تغييرًا مستملحاً؛ إذ كنا قد بدأنا نسامم طول المسافة في جو واحد وعمل متكرر.

ولقد كان حظي هذا اليوم خيراً من سابقه؛ إذ ربحت ١٢,٥ شلنًا في سحب يانصيب يجريه القوم على الأرقام التسعة كل يوم مقابل شلن واحد للتذكرة. وكنت كلما طوحت ببصري إلى آفاق المياه المائحة المضطربة المخيفة ألس عظمة الكون، وضالة الإنسان

أمام القدرة العلية، و كنت أكِبُرُ في طلائع الكاشفين جرأتهم و جميل صبرهم يوم كانوا يقطعون ذلك بالسفن الشراعية الصغيرة، و نحن على عظمة باخرتنا و منعها كنا نخشى أن يصيّبها ضر أو أذى.

ولقد عاكس هذا الاضطراب سرعة الباخرة، فبعد أن كانت تقطع ٤٠٠ ميل في اليوم نزلت إلى ٣٣٠ ميلًا، وقد مررنا ليلة الأمس بمجموعة من جزائر تسمى Keeling أو COCOS على اسم إنجليزي كشفها سنة ١٦٠٨، وأهملت إلى سنة ١٨٢٥ حين ذهب إليها الكابتن ROSS وبهره جمالها؛ فرجع ليحضر عائلته، وإذا به يجد أسرة أخرى قد احتلتها فتنازعتها، وتغلب الأول، وأضحي حاكماً عُرف بالحزم والعدل بين سكانها القليلين، ولا تزال أسرته تملك أغلب وسائل الإنتاج هناك إلى اليوم، مع أن الجزائر دخلت تحت وزارة المستعمرات يشرف عليها حاكم سنغافورة، وهي من محطات البرق الهامة في المحيط؛ إذ منها تمتد الأسلاك إلى كوليو وجزائر الهند وأستراليا وموريس ومدغشقر وجنوب أفريقيا.



شكل ١٣: يكثر الكانجaro حول أدليد.

ما كنت إخال أنا في أيام قليلة سنتنقل من الصيف القائظ إلى القر الزمهرير؛ فلقد هبطت الحرارة هبوطًا فجائياً لما أن اجتنزا خط عرض ٢٠° ج، وأخذت في النقص فشعرنا ببرد الشتاء، واضطربنا إلى لبس الصوف والتحفافه، وسرعان ما تغيرت الأزياء

وغضيit جوانب السفينة، وانزوى غالب المسافرين إلى حجراتهم، وكانت السحب تحجب الشمس غالباً الساعات، وإن تكشف عنها قليلاً فرح القوم وماجوا، ولا يكاد يستوي بهم الجلوس تحت أشعتها المحبوبة الدفيئة حتى تخنقى، ويعودوا من حيث أتوا. وشتان ما بين نيران البحر الأحمر وهجيره، وبين قر تلك البحار المجاورة لأستراليا، وفي كلِّيهما كان الامتعاض يسود أوجه القوم؛ فلا الصيف أرضاهم، ولا الشتاء أقنعهم. ومتي كان الإنسان لربه شكوراً؟

ولقد أخذ الكثير يعد عدته للنزول إلى أرض أستراليا في الغداة، ونشط البحارة في تجهيز رواعهم وفتح مخازنهم استعداداً لتغريغ بضائعهم في فريمانتل أول مرسى أسترالي، وكم هالتنا كثرة البريد الذي كُدُّس في آلاف الأكياس فيما كأنه التل الشاهق! وذلك كله لجهات غرب أستراليا.

بكر الخادم يناديمنا منذ الساعة السادسة والنصف صباحاً كي نسرع بالصعود للكتشف الطبي، وقد علمت منذ الأمس أنه شديد، ومن الغريب أنني أصبحت بمجموعة من دمامل شوهرت من وجهي كثيراً، وقد كان ظاهراً منها في يوم واحد عشرة، ولعل ذلك من شدة الحرارة في الجهات الشمالية، وخصوصاً البحر الأحمر، وكذلك بسبب الغذاء المحفوظ المثلوج مدى العشرين يوماً السالفة، ذاك الذي أثر في شهيتنا فقللت شيئاً فشيئاً، فخشيت أن يكون ذلك سبباً في منعي من الدخول فتتكرر حادثة جنوب أفريقيا.

ولكن شتان بين رقة الأستراليين وظرفهم وخشونة أهل نانال وغلظتهم؛ فلقد أقبل رجال الكرنطينا ومررنا أمامهم، ونظروا إلى أيدينا وأذرعنا ثم أجازوا لنا الدخول حيث تفحص جوازاتنا. هنا داخلي الخوف أن يكون المصريون من غير المرغوب فيهم كما هي حال جنوب أفريقيا، خصوصاً وأنهم سلموا جميع الرعايا البريطانيين جوازاتهم، إلا فريقاً قليلاً من الأجانب أمثالي استمهلوا حتى يفحص جوازاتنا رجل آخر، لكنه كان غاية في رقة الحاشية ولين الجانب، وقد ختم الجواز لي وتمنى لي رحلة سعيدة، فكان ذلك لا شك مطمئناً لي ومزيلاً للوساوس التي ساورتنـي طويلاً قبل وصولي إلى تلك البلاد.

فريمانتل

أسرعت لاستقبال: فريمانتل Fremantle مرسى السفن الوافدة إلى أستراليا من الغرب عند مصب نهر سوان، ذاك الذي أوفدت إليه من سدني سنة ١٨٢٦ طائفة من المنفيين لاستغلاله، وكان قائد السفينة التي حملت تلك البعثة يسمى فريمانتل، فأطلق اسمه عليها، ومنذ سنة ١٨٥٠ أصبحت فريمانتل أكبر مرسى لوفود المنفيين، وهم أول نزلاء أستراليا. بدت الميناء عظيمة الامتداد تحدها حواجز الأمواج، وتقف السفن العدة إلى مراسيها، ومن حولها الروافع المرصوصة إلى مد البصر.



شكل ١٤: الكانجaro يسابق السيارة.

والبلدة تقوم على مجموعة من رُبَّي صغيرة في قيلات بد菊花 سقوفها منحدرة حمراء، وجلها بالآجر الأحمر أو الخشب، وشوارعها تعلو وتهبط إلى مد البصر. أقلتنا سيارة وسارت بنا تشق شوارع البلدة بعد أن عبرت قنطرة نهر سوان، ثم سلكت سبيلاها إلى پرث عاصمة غرب أستراليا، وتبعد عنها بمسافة ما بين الأهرام والقاهرة، وكانت جل الطريق تشق وسط مروج طبيعية خضراء تغص بالأحراش ويتخللها الشجر، وقد اتخذ منها القوم ضواحي كادت تملأ الفراغ ما بين البلدين، وكلها في قيلات أنيقة صغيرة متجاورة حول كل منها حديقة صغيرة أرضها خضراء بطيعتها.

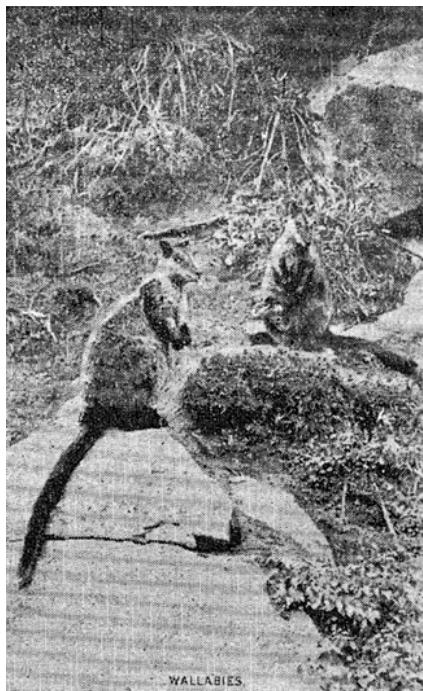
ظهرت پرت على الضفة الشمالية لنهر سوان الذي يتسع عندها اتساعاً هائلاً، وقد طغى على مائه ملح المحيط فأضحت أجاجاً. هنا اتسعت الشوارع واكتظت بالمباني الفاخرة، إلا أن جلها لا ينبع من دور الحكومة والبريد والبنوك، ويتحقق الترام والأمنبوس أهم طرقها. أما عن السيارات الخاصة والتاكسي؛ فحدث كثرة تفوق كل وصف حتى قيل لي: إن كل الناس من ملوك السيارات، وأظرف ظاهرة في شوارعها أن الإطارين عريضان جدًا تظللما ظلة ممدودة من زجاج أو خزف أو قيشاني بديع، ومظهر المساكن وأهل البلدة يدل على جانب كبير من الغنى والرفاهية، ولم نجد نجدة أو بيتاً قديمة متهدمة؛ فالجميع يسيرون في هندام نظيف، ووجوه جميلة، وبخاصة النساء.

ولم ألاحظ كثيراً من الدخلاء بينهم كما لاحظت في أهل أمريكا الجنوبية وجنوب أفريقيا مثلًا. والبلدة هي وفريمانتل وضواحيها تتوسي ٢١٥ ألف نفس، وليس ذلك الغنى بعجيب؛ فهي أكبر مصدر للذهب في أستراليا حتى أطلق عليها The golden west، وكذلك كان لفلو الأجر دخل في ذلك؛ فالعامل الذي يصلح الطريق يتضاعي خمسين قرشاً في اليوم.

ولن أنسى منظر المدينة في تقوسها الجميل، وتغضتها الجذاب من ربوة King's park أكبر متنزهاتها الذي تبلغ مساحته ١٢٠٠ فدان، وقد نسق نصفه وترك الباقي بحالة الأولى الفطيرية Bush، وعلى جانب منه تطل الجامعة، وهي في بناء فاخر على نمط قريب من الأندلسى ببواكه التي يعلو بعضها البعض، وبرجها الذي حاكي ماذن بلاد المغرب، وهي منحة من هبات كبار الخيرين الأستراليين، وتنتشر حولها الكليات في أبنية مختلفة.

ولقد هالني ما علمته من أن التعليم بجميع درجاته مجاني حتى الجامعة نفسها؛ لذلك لم أتعجب لما علمت أن الدولة تنفق على التعليم في أستراليا فوق ثمانية ملايين من الجنيهات، مع أن سكان القارة كلهم ٦٦ مليون، أعني أقل من نصف سكان القطر المصري، ومستوى الثقافة في البلاد مرتفع جداً.

ولقد فقدنا حالة الأسواق لأننا كنا نسمع أن الأسعار عالية في تلك البلاد، وإذا بنا نجدنا رخيصة؛ فالحلة الإفرنجية بثلاثة جنيهات، والحداء بأربعين قرشاً، ولقد هالتنا معروضات اللحوم على اختلاف صنوفها، وقد كتب على كل نوع ثمنه، فكان يكتب على



شكل ١٥: حيوان الولابي شبيه الكانجارو.

الرطل الضاني ٦ بنسات — والبنس الأسترالي أقل من البنس الإنجليزي — فهو يوازي نحو ثلاثة مليمات «الجيبي الإنجليزي كان يساوي ٢٥ شلنًا أستراليًّا» أي أن الرطل دون القرشين، وذلك في المدن الكبيرة، وهو لا شك في الريف أرخص؛ فالشاشة هناك تُشتري بخمسة شلنات أو أقل من ذلك.

لبثت اليوم كله أتجول والجو ماطر، والسحب تسد الآفاق، وكم أمطرت من بردٍ كثيف، ووابل غزير! هذا إلى شدة البرد وعصف الرياح، وكان القوم يستبشرون لذاك المطر لأنه المنقذ لأغناهم وغلالهم، وقد تخلف عنهم في السنتين الخاليتين فاضطرب الكثير أن يتركوا مزارعهم، ويبحثوا عن عمل آخر، ولما تأخر هذا العام خالوه أسوأ، وكادوا أن يبيأسوا من إنتاج المراعي ومحصول القمح، لكنهم بدءوا يستعيدون أملهم وقد داهمهم

المطر وابلًا منذ أول هذا الشهر «يونيو»، وهو موسم الشتاء عندهم. ومطتهم لا يسقط إلا في هذا الفصل كما هو الحال في الإسكندرية وببلاد البحر الأبيض عندها في الشمال. وكنت في تلك الجولة أزامل جماعة من الألمان الذين هاجروا من بلادهم زهداً في هتلر وتجاهيًّا به؛ لأنَّه يسومهم سوء العذاب؛ فمثلاً أضحي لا يباح لهم البيع ولا الشراء ولا دخول المطاعم، وقد كتب جميع الحوانيت على الأبواب: «ممنوع دخول اليهود». وأولادهم يُطردون من المدارس ويُطردون، ويُلْقَوْنَ بالوحش كلما ساروا في الطريق، والعجيب أنَّهم إن أرادوا النزوح تركوا أموالهم في ألمانيا، ولا يباح للواحد أكثر من عشرة ماركات، أي أقل من جنيه.

أما عقاره وأملاكه فتبقي باسمه، لكنه لا يأخذ منها فائدة في الخارج، وإن باعها دفع النصف ضرائب، والنصف الباقي ظل في بنوك ألمانيا؛ لذلك احتالوا على إخراج أموالهم، فبعضهم يشتري سلعاً وتحفَّاً ألمانية غالمة، ثم يبيعها إذا خرج بنصف ثمنها، ويحصل بذلك على بعض ماله. وقد هاجر منهم زهاء مائة ألف الآن، وهم يزيدون على ثلاثة مليون. وكم راقني من هؤلاء القوم ديمقراطيتهم! فقد كان معهم سيدة قال لي بأنَّها الطباخة، وكان يقدمها عليه في كل شيء كأنَّها إحدى نسائه، وكانوا يجلسون معها في الطعام والسمسر لا فرق بينها وبينهم؛ ولذلك عدت نفسها واحدة منهم تحس إحساسهم. فأئنَّ لنا نحن تلك المعاملة وإكرام الخدم حتى يخلصوا لنا، ويحسوا إحساسنا!

أما عن رفيق النوم في الباخرة فيوناني اسمه باسليوس، يقوم على مزرعة للرعى في قرية وراء فريمانتل هو وأخ له، وقد زار عائلته في سلونيك ورجع يستأنف عمله، وقد خبرني بأنَّ الأرض هناك رخيصة، فاللدان بشلن واحد، وتُنسقى المزارع إما بالأمطار، وإما بالأبار الهوائية يدقُّونها، وتُكَلِّفهم جنديهين للقدم الواحدة عمقاً في الأرض. ويدعو بشناني في أولئك القوم جدهم على المكاره، وإقدامهم على طلب العيش في أقصى الأرض، وقد بدا لي أنه هو وأخوه يعيشان عيشة تقشف شديد، ويجمعان المال المستقبلي.

ويكاد الرجل يكون أمياً ليس لديه من المعلومات إلا النذر القليل، وهو أقل تهذيباً من سائر الطوائف الأوروبيَّة التي كانت معنا، وتعوزه النظافة؛ فلم يكُن يُغيِّر ملابسه الداخلية المدة كلها، وكان يتجمش ويتمخط في غير تورع مع أنَّ ذلك ينافي الآداب الأوروبيَّة كلها، ولكن ما ذنبه وقد قضت عليه بذلك أمة فقيرة، وشعب منحل، وحكومة مرتبكة، ألا قاتل الله الفقر والضعف؛ فهما سبب كل ذلة وتدھور.

كنت أزمع أنْ أترك الباخرة هنا وأستقل سكة الحديد The Trans. Cont. لكن حذرني خبير بها كان في الباخرة فقال: بأنَّك ستصرف ثلاثة أيام كاملة وأنَّ تسير

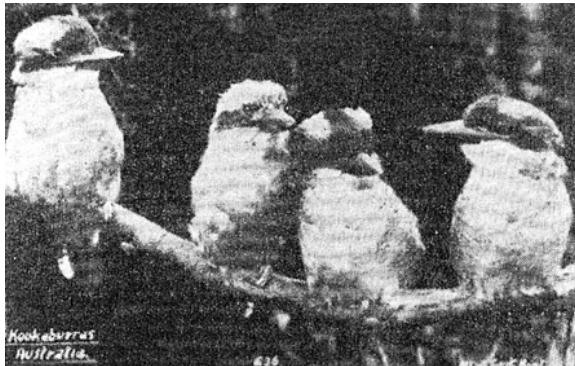


شكل ١٦: الكوالا دب أستراليا العجيب.

وسط صحارى مجدهبة مملة، ليس بها إلا قرى ضئيلة ليست بذات شأن، وفوق ذلك فإن شدة البرد، وبخاصة أثناء الليل، لا تحتمل، ولم تزود العربات بالمدافع والمعدات الواقية، ولن تفقد إلا كالجورلي مقر مناجم الذهب الشهيرة.

فترددت طويلاً، ثم رجحت البقاء في الباخرة بعد زيارة كالجورلي خلال اليومين اللذين وقفتُهما الباخرة في فريمانتل. أغلقني القطار وبدأنا نسير في نجاد جرانيتية يكسى كثير من جهاتها بالغابات، وجلها من أشجار الكافور «اليووكالبتس» الذي يسمونه Gum Tree، والذى لا تكاد ترى غيره في غالب جهات أستراليا الخضراء، ولما كان شكله العام غير جذاب كانت كثرته سبباً في افتقار القارة الأسترالية إلى جمال الغابات، وكنا نرى بعض أشجاره تفوق عشرين متراً في العلو.

وكنا نرى قليلاً من شجر الصندل وشجر جارا وكاري Jarrah، وهما أهم مصدر للأخشاب القيمة في أستراليا، وأغنى جهات القارة بهما الركن الجنوبي الغربي، وتصل شجرة الجارا ١٢٠ قدماً، ويزيد قطرها على المتر، وخشبها متين، عظيم النفع في القنطر وعارض سكة الحديد sleepers والرصف، وهو يقاوم الحشرات كلها.



شكل ١٧: الطائر الضاحك ويسمى كوكابورا.

أما شجرة كاري فتصل ٢٧٨ قدماً، وقطرها متان ونصف، وتمتاز بمتانة الخشب وطول كتلته، ولا يكاد يفرق عن خشب الجارا إلا إذا حرق؛ لأنه يتحمّم ويسود، أما الكاري فيختلف تماماً أبيض، وكلاهما يقاوم الاحتراق طويلاً، أما خشب الكافور فشديد المقاومةخصوصاً للآفات؛ لأن رائحته تطرد كل الآفات، إلا أنه لا يستخدم في الأثاث والأبنية بسبب رائحته.

ظل الشجر سائداً الطريق زهاء ثلاثة ساعات ثم اختفى فجأة، ودخلنا في سهول مموجة لا نهاية يسمونها نالاربور Nallarbor Plains جيرية، وهي التربة يكسوها غشاء رقيق من ثرى أحمر ينمو به عشب قصير قاتم يسمونه bluebush، saltbush، مذاقه مالح منفر، وأعجب ما في ذاك العشب أنه يظل أخضر طوال العام، ويغالب قيظ الصيف وقر الشتاء، وله خاصية عجيبة في تشرب الرطوبة، سواء من المطر أو الندى الكثير هناك. وتلك السهول تجري ٤٥٠ ميلاً إلى الشرق، ويسير خط سكة الحديد فوقها مستقيماً، ومنه جزء طوله ٣٠٠ ميل لا ينحني درجة واحدة، والمنطقة موحشة لا يقطنها من

جولة في ربوع أستراليا

الناس أحد، وإلى شمالها كثير من البقاع التي لم تستكشف إلى اليوم، والمنطقة جافة جفافاً مطلقاً، حتى كانت المياه من أكبر الصعاب التي اعترضت مد سكة الحديد، ولقد أعدوا آباراً تمد الخط على جانبيه من مسافة ٣٠٠ ميل.

أستراليا

(١) كالجوري

أخيراً بعد عشر ساعات دخلنا بلدة كالجوري التي يطلقون عليها اسم بلدة هانان Hannan، وهو الذي أسسها؛ لذلك كنا نرى اسمه يكتب على شارعها الرئيسي، ويحمله كثير من الأندية بها، ولقد قصوا علىًّا بأن الرجل نزل المكان باحثاً عن المعادن، وحدث أن حصانه كان يجري وسط العشب حين ضرب حافره حجراً تدحرج وبدأ براقاً، وإذا به من ذهب خالص، فانتشر نبؤه، وسارع الناس إلى المكان من بقاع الأرض المختلفة رغم جدب المنطقة وجفافها الشديد، ولقد قيل: بأن الماء كان يباع بثمن أعلى من ثمن الخمر هناك.

أزاح القوم الأحراش ونصبوا خيامهم، ثم أخذت البلدة تمتد والمباني تقام حتى بلغت امتدادها الحالي الذي حاكى في نظري بلاد المراكز الصغيرة عندنا، إلا في كثرة مداخنها وأكاس رمالها، وتلال الثرى الذي أزيح ليفسح مجالاً لحفائر المناجم. وتمتد منطقة المناجم ميلاً كاماً يطلقون عليه اسم الميل الذهبي The Goldin Mile؛ لكثره ما أغلَّ من ذهب.

ركبت الترام الذي يشق البلدة، ووصلت إلى فتحة منجم عاد القوم إلى استغلاله بعد أن أُوقف العمل لآن انخفض ثمن الذهب، ولما انحطت قيمة الجنيه الأسترالي اليوم علت قيمة الذهب، فعاد القوم إلى العمل، ولم تشعرني المنطقة بالغنى المفرط الذي كنت أتخيله؛ إذ قد رسمت لي الكتب التي طالعتها عن ذهب الإقليم صورة مكان كادت أن ترصف أرضه بالذهب الخالص، على أنني ألفيتها مترباً قدرًا لا يبدو على أهلها شيء من هذا الغنى الخيالي الذي سمعت عنه.

نزلت إلى سراديب ممدودة في شعاب عدة يجري فيها «التلي» وقد مليء رملاً لسد الحفائر خشية انهيار جوانب المناجم، وأخيراً وقفنا إلى جوار عمود براق أمسكنا به وزلقنا إلى أسفل المنجم، ورأينا قليلاً من العمال يكسرون حجارة الكورتز، وفيها بعض تبر الذهب. ولقد انحطت قيمة تلك المناجم اليوم مما كانت عليه في بدء كشفها، حتى إنها لا تكاد تسد نفقاتها؛ لذلك لم تبد حركة العمل فيها ناشطة كما خلتها. ولقد فاق مجموع ما استغل من مناجم كالجوري وحدها عشرين مليون أوقية، قيمتها تزيد على ثمانين مليون جنيه، أما ما أخرجته أستراليا كلها فيزيد على مليار جنيه.



شكل ١: الإيميو نعام أستراليا.

بت ليلتي وعدت بقطار الصباح إلى بريث، ولم يمكنني ضيق الوقت من زيارة منطقة البحيرات الملحية التي تقع إلى شمال منطقة الذهب، والتي يوجد حولها قوم من السكان الأصليين في حالتهم الفطرية. وتحمل بعض تلك البحيرات أسماء بلغتهم لا يكاد الواحد منها يستطيع النطق بها لتتفاوتها وتعدد حروفها، أذكر من بينها اسم بحيرة «كاديبراويرا كانا» الذي يحتوي على تسعه عشر حرفًا Cadibarrawirracanna. رجعت أستقل الباخرة وقد خاب أملي في الميل الذهبي وثراته الخيالية.

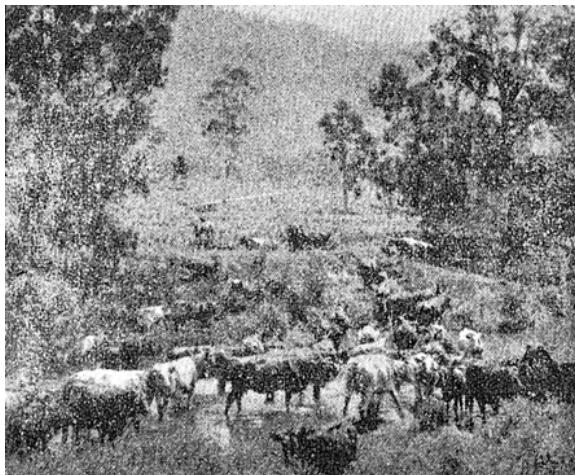
قامت بنا الباخرة تسير جنوباً ثم تطوف حول الركن الجنوبي الغربي لأستراليا في تقوسه وكثرة جزائره، وقد أخذ القوم جميعاً يندروننا بالليل الشديد الثلاثة الأيام التالية التي فيها نشق مياه الخليج الأسترالي العظيم The Great Bight؛ فقد عُرف بينهم بشدة الموج، واضطراب الماء في عنف مخيف، فبدأت الباخرة تضطرب، وعلا الموج، ولعب بها ذات اليمين وذات الشمال، ثم جزنا رأس Leeuin — بالبرتغالية أنتي الأسد — وهو أبعد نتوء في هذا الركن من أستراليا.

وبعده اتجهنا شرقاً نوغل في الخليج المرهوب، على أن الله حَيَّبْ فأَلَّ أولئك المتشائمين؛ فلم يزد البحر شدة، بل على النقيض من ذلك حَفَّ وطأته، وتلطف بنا كثيراً عن ذي قبل، ولم نلاحظ من جديد سوى شدة الرياح الغربية العكسية، وزيادة في البرد، على أننا بعد أن أمضينا يوماً كاملاً في هذا الهدوء النسبي عاد البحر إلى ما عهده القوم فيه، وغضب غضبة لم تهأ ثورتها إلا بعد وصولنا أدليد، أي يومين كاملين أو يزيد، حين ألزم المسافرين مضاجعهم، وصرفهم عن الطعام واللهو.

وكانت السفينة على ضخامتها تتفجر قفازات مروعة يخيل إليك إذا كنت واقفاً أن الأرض قد هجرت قدميك فصرت معلقاً في الفضاء، وتسمع لتلك الرجات ضجيجاً يصم الآذان، ويوقظك فزعًا مرعوباً، هذا إلى شدة البرد، وهزيم الريح، ووابل المطر. وللقوم الحق أن شبهوه بخليج بسكاي غرب فرنسا، فهو في ظني يفوق ذاك شدة وعنفًا، وخليق به أن يسمى Great Bite؛ لأن قرصته السيئة لا تُمحى من الذاكرة أبداً.

ساقني الحديث مع أسترالي كان عائداً مع زوجته من إنجلترا إلى الموازنة بين الإنجليزي والأسترالي، فقال الرجل: بأنه يعود من إنجلترا بكلمة واحدة هي disappointment، قلت: وكيف؟ قال: إني ألفيت الإنجليز ليسوا رجال العصر الحاضر، بل هم يعيشون على تقاليدهم وماضيهم They live on tradition، وهم طائفتان: قوم

يترفعون عن كل شيء، ويضعون أنوفهم في السماء، ويصعدون خدودهم في شيء من الصلف والغطرسة الجوفاء، وفريق وضعيف ليس من مرتبتك أن تطالعه. أما الطبقة الوسطى المستنيرة فمعدومة هناك.



شكل ٢: أحد مروج الماشية في أستراليا.

لقد ذهبت إلى إنجلترا يحدوني أمل كبير أنني سألقى خير مرشد ومعلم، وأحسن مثل يحتذى، وإذا بي أراهم في مجتمعهم دون المتوسط بكثير، وإنني لأترفع من أن أضع نفسي ندًا لهم لا تلقياً أتلقي منهم التهذيب. ولقد لمس الأستراليون ذلك منذ الحرب الكبرى، فقد كانوا يخالون إنجلترا كل شيء، وإذا بالجنود الأستراليين يفوقون الجنود الإنجليز كفاءة وخلقاً، فمنذ ذلك الحين عاد الأستراليون يحترمون أنفسهم، ولا يخالون الإنجليز كبراءهم وقادتهم. ونحن نرى في الأميركيان خير قدوة؛ فهم لا يزالون في نخوة الشباب لا يرکنون إلى الماضي البائد، ولا يدخلهم الغرور الذي يسود الخلق الإنجليزي؛ لذلك كان المزاج الأسترالي أقرب ما يكون إلى الأميركي، وأبعد ما يكون من الإنجليزي. والحق أنني كدت أمس ذلك من مقارنة النفر القليل الذي كان معي على الباخرة، فهم

قوم مرحون غير متربعين، يسارعون إلى المعاشرة، ويختالطون الجميع في شيء كبير من التواضع الجميل، والحاشية الرقيقة.

أخيراً أقبلنا في صبيحة يوم ١٩٣٦ / ٧ / ٣ على جزيرة كبيرة عند مدخل خليج سبنسر يسمونها جزيرة كانجارو، ولبثنا نسir إزاءها ساعات عدة، وفي الرابعة بعد الظهر بدت أرض الشواطئ عند أدليد وطيبة، ولم يدل المكان على شيء من الجمال، فهو مرسى حقير على رصيفه أربعة مخازن ليس غير، ومن ورائه أرض عشبية مهملة لا يسكنها أحد. وهذه هي الميناء الخارجية للسفن الكبيرة.

(٢) أدليد

هنا أقلنا قطار مدى ساعة كاملة $\frac{2}{3}$ ميلًا، مررتنا خلالها على عدة قرى صغيرة من بينها Port Adelaide، وهي الميناء الداخلية الصغيرة. خرجنا من محطة أدليد الفاخرة وإنذا بالمدينة آية في الجمال، قسمت رقعتها على النمط الأمريكي في مربعات وخطوط متعامدة بدون استثناء، والأبنية غاية في الجمال، والشوارع فسيحة جدًا، ونظافتها تسترعى الأنظار، والمتاجر على أحدث طراز، فهي حًّلاً جديرة بلقبها The City Beautiful، ويقوم إلى جوانبها جميًعاً مجموعة من منتزهات نسقت أيًّا تنسيق، ومساحة بعضها ألفان من الأفدنـة.

ويشرف من ورائها جبل Mount Lofty، وأعلى ذراه ٢٣٣٤ قدم، يبدو من أي مكان نظرت. ومنظر المدينة من مرتفعاته التي نصلها بالسيارات أو بالقطار في أقل من ساعة يسرح اللب، ويزيد المدينة قيمة ورواء وبهجة، وهي عاصمة أستراليا الجنوبية، وثالثة مدن أستراليا، يقطنها زهاء ثلث المليون من مجموعة سكان المقاطعة، وهم ٦٠٠ ألف؛ أعني نحو نصف مجموع الناس هناك أو يزيد.

حل المساء وكنت مع بعض الرفقـاء الإنجلـيز، وكان الجوـع والبرـد قد أخذـا منـا كثـيرـاً؛ فأؤـينا إلى مطعم في أحد الشوارـع الرئـيسـية وقلـنا لهـ: هـات لـنا أـكلـة قـومـية، فـقالـ: هـا هي Three Course Meal، أـعني منـ ثلاثة أـصنـافـ: الأولـ broth شـربـة ثـقـيلة كـأنـها «ـالـكـشكـ» يـدخلـها دـهـنـ ذـنـبـ الـكاـنـجـارـوـ المـحبـ لـديـهـمـ، وـأـعـقـبـها بـالـلـحـ Mutton مع القـبـيـطـ والـكـرـنـبـ المـسـلـوقـ وـالـبـطـاطـسـ المـشـوـيـ بـقـشـرـهـ، ثـمـ تـلاـ ذـلـكـ بـنـوعـ منـ الـحـلوـيـ pudding السـاخـنةـ منـ خـلـيطـ الـفـاكـهـةـ وـالـقـرـنـفـلـ وـالـعـجـينـ وـالـكـريـمـةـ، وـبـعـدـ ذـلـكـ الـقـهـوةـ معـ الـلـبـ، وـإـلـيـ جـانـبـ هـذـاـ أـكـداـسـ مـنـ الزـبـ، ثـمـ شـرـائـخـ الـخـبـزـ الـأـسـمـرـ وـالـأـبـيـضـ. كـلـ ذـلـكـ

جولة في ربع أستراليا

الطعم الشهي دفعنا له شلناً واحداً أستراليّاً، أعني أربعة قروش مصرية، فأدهشنا ذلك الرخاء والرخص الذي ما كنا نعهد له هناك.



شكل ٢: طريقتهم في جندي الكروم في أستراليا الجنوبية.

أما دور السينما فلا حصر لها؛ إذ هي التسلية الرئيسية، وجل الأشرطة الأمريكية، والبلدة تتأهب للاحتفال باليوبيل الذهبي Golden Jubilee لمرور مائة عام على تأسيس حكومة ولاية جنوب أستراليا؛ إذ أسست سنة ١٨٣٦، وقد أسرفوا في الإعلان عن Centenary Celebration والإعداد له، ويظهر أنه سيكون بالغ الأبهة؛ لأنه سيبدأ في أول سبتمبر ويظل مستمراً إلى آخر العام. وسيشمل المهرجان جانبًا عظيماً من الألعاب والإذاعات، وتزيين البلدة كلها، وخصوصاً الشوارع الرئيسية، ومن بينها أسبوع الزهور، وفيه يزين كل بيت وحانوت واجهته بالزهور على اختلافها، وللمتفوق جوائز كبيرة، وقد زرعوا من الزهور مساحات كبرى خاصة بذلك، وعند حلول سبتمبر يكون الربيع عندهم وهو موسم الزهور الجميل، وليس للقوم حدث اليوم إلا هذا الحفل والدعائية له.

(٣) ملبورن

قمنا نسير شرقاً جنوب ملبورن، فظل الشاطئ الجيري مشرقاً من بلاد جنوب أستراليا الجنوبية، فكان البحر مضطرباً، والجو مظلماً ماطراً طيلة الليل ونهار اليوم التالي، وفي صباح الاثنين انعرجا شملاً لنوغل في جون ملبورن الذي يسمى بورت فيليب، فإذا به بالغ الامتداد، كثير الاليات والشعوب، وعند مدخله وقفنا نلتقط الدليل Pilot.

وظلت الباخرة تسير فيه فوق ثلث ساعات ونصف مدى أربعين ميلاً أو يزيد، وفي نهايته بدت مداخلن المدينة ومراسيمها ممدودة في ثنيات وشعاب عده. ولقد استرعى نظري ما زودت به تلك المراسي Piers من أحذث وسائل الشحن والتفرير، فما أن وقفنا حتى بدأت شبак الحديد تجري هنا وهناك تحمل السقايد التي نسيرة عليها إلى البلدة، ثم أخذت الروافع Cranes تجري وتدور، ومن تحتها إلى جوار السفينة عربات سكة الحديد.

أخذنا الترام إلى المدينة فبدا لي عجيباً لم أر مثيله من قبل: القاطرة مكشوفة وبها مقعدان جانبيان للركاب بينهما فجوة يقف فيها السائق وبهذه الفرامل يحركها؛ ليسير الترام أو يوقفه، وتلك الفرامل تتصل بسلسلة تحت الأرض تتحرك دائماً، وتحدث جلة في الشوارع دائماً، فإن أراد الرجل تحريك الترام أنزل ترسos الفرملة فاتصلت بالسلسلة فجرى الترام، وإن شاء أن يوقفه رفعها فانفصلت عن تلك السلسلة. ويقاد ذلك الترام يعد أثرياً؛ لأنه أقدم ما أسس هناك، ويسمونه cable car.

اخترقنا من الأبنية ما هو فاخر ضخم شاهق، ونزلنا وسط البلدة فهالنا ما كان لشدة الحركة، ووجاهة الأبنية، وحسن تنسيق العرض في المتاجر، وجمال إضاءتها، وهم يقفون أثر نيويورك في نظام الأبنية، فهي في كتل Blocks متعدلة تفصل بينها شوارع متعمدة، وحركة المرور فيها هائلة؛ إذ تقاد العربات تسد الطرق سداً، وقد ألغت نظري من بينها عربات النقل الكرو بخيوطها الضخمة ذوات الأرجل الهائلة، التي تسمع وقع سبابكها في جلة صاخبة، وترى شعورها الهائلة التي تكسبها مظهراً برياً، وأنت لن تستطيع اختراق الطرق إلا عند زواياها، ولما أن يسمح البوليس بذلك، عندئذ ترى المارة تتلاصق أكتافهم وهم مسرعون لاجتياز تلك الطرق.

وبين فترة وأخرى ترى حنفيه أقيمت وسط طبق أبيض يشرب الناس منها، واستغرقت تلك الظاهرة البدوية في هذا الوسط المتحضر. أما الناس فغاية في الرقة وحسن الاستعداد للإرشاد، فلا أكاد أسأل أحدهم أمراً حتى يرغب في أن يدلني إليه



شكل ٤: مهرجان الزهور في العيد الذهبي لتأسيس أدليد.

بنفسه، وإذا شكرته قال: Welcome. ولقد لاقاني أحدهم من تعرفت إليهم في الباخرة أسير في الطريق وهو يركب التاكسي فأصرّ أن أركب معه، وظل يطوف بي هو وزوجته أطراف المدينة طويلاً، ولما أن فرغنا من الرحلة حاولت عبّأً أن أقوم بتصبيبي من الأجر مع أني أعتقد أنه ضاعف الرحلة لأجلني، ودفع للسائق زهاء ستين قرشاً.

وكثير من المباني يفوق الدور العاشر علوّاً، ومنها ناطحات تعلو إلى الدور السادس عشر، علوته فإذا منظر المدينة والمياه المحطة بها والمتزهات وأرض السباق التي تحفها آية في الإبداع والجمال، ولو أن رداءة الجو وكثافة سحبه ورذاذ مطره قد أخفي من جماله الكثير، وكان القوم يعتذرون لي عن رداءة هذا الجو؛ لأنني جئت في Off Season؛ إذ إن هذا الشهر أرداً أوقات السنة عندهم، على أنهم قالوا: بأنني محظوظ؛ فالاسبوع الماضي لم يكن يطاق؛ لأنه كان قارس البرد، ولم تقطع سيول المطر أبداً. خرجنا إلى متنزهات المدينة وما أكثرها وأبدع تنسيقها! فهي تزيد على ربع مساحة المدينة كلها، وفي جانب منها Fitzroy Gardens، زرت مأوى الكابتن كوك، وهو بيت ريفي صغير بالأجر الأحمر كان مسكن أبيوه في إنجلترا، فنقل بشكله وأقيم حيث حل كوك من بلاد فكتوريا «ملبورن»، وبدوره الأرضي غرفتان صغيرتان إلى جوارهما مجموعة من مداخل، وأثنان من خشب مصمت، والمدفأة من شباك الحديد الغليظ، ودخان الفحم قد لوث جوانبها، وهناك خريطة الدنيا في دائرتين عليها خط سيره، وبالدور الأعلى غرفة وشرفة،

وفي وسطه قطعة حجر كسرت من الصخرة التي رسا عليها أول يوم وصل أستراليا في خليج بوتاني قبيل سدني.

وذاك البيت كعبة الجميع يزورونه اعتراضاً بفضل كوك على الأستراليين؛ إذ هو الذي أوجد لهم ذاك النعيم المقيم. ثم طفنا بأرجاء حديقة النبات الهاهلة التي نسقت أيمما تنسيق، وحوت من مختلف نباتات أستراليا ما لا يحصيه إلا أولو العلم والمحظون في ذلك الفرع، وقد أعجبني كثيراً منظر السرخس Ferns الذي أذكرني بالعصر الفحمي وما كان به من نباتات كثيف.

قامت بنا السيارة على طريق سنت كلدا الشهير الذي يحدثك عنه كل ملبورناني بشيء من الفخر والزهو، وإذا به حقاً طريق فاخر أعد وسطه للعربات الثقيلة، ويساره للعربات الخفيفة، والإطاران للمارة، والأشجار تحد كل أولئك إلى مد البصر، وعلى جانبيه تقوم أفالن مساقن القوم Residential Quarters، وفي متنه من بنا مشروفاً كالطود بناء الجندي المجهول، ويسمونه The Shrine Of Remembrance، بنوه لإحياء ذكرى من ماتوا من أبناء فكتوريا في الحرب العظمى، وكلفهم فوق مائتي ألف جنيه.



شكل ٥: الأسترالي الأصلي يلقي علينا درساً في قذف البوميرانج.

وهو مدرج هائل يؤدي بدرجة في أربع جهاته إلى بهو من أعمدة داخله قبة مجوفة ووسطها المدفن، وحوله الأسماء بالذهب وعليها النياشين والأعلام، وقد شق منور في جانب

من سماء القبة ينبع منه شعاع للشمس يسقط على الضريح الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من نوفمبر؛ فيثير من الذكريات أجلاها.

وفي أثناء الليل تلقى عليه الأضواء الكهربائية من جميع الأركان في قوة يجعله يبدو بهيجاً براقاً بما حوى من زخرف ومرمر ثقيل، ثم واصلنا سيرنا إلى نهاية الطريق، فبدا شط البحر رملياً ناعماً مدرجاً أقيمت عليه الجواص والحمامات — وتلك أحب الجهات لهم صيفاً — وفي جانب منها مدينة للألعاب، ويسمونها Coney Melbourne تشبيهاً لها بجزيرة كوني عند نيويورك، ثم كانت جولتي في المدينة أثناء الليل، فلم يسترع نظري سوى أضواء الشوارع والمتجار بألوانها العدة، ولم يكن رواد الطريق ليلاً كثيرين إلا عند دور السينما — وهي أحب ملاهيهم — ولعل للجو العكر الماطر دخلاً في ذلك.



شكل ٦: ملپورن تُرى من الطيارة بقصورها وناظحاتها.

ويا لهول ما ترى إن وقفت هنيهة عند محطة سكة الحديد هناك! ترى سيولاً من الناس دافقة: ذاك مسافر وهذا آيب صباح مساء، وبناء المحطة فاخر جدًا، وعلى أبوابها

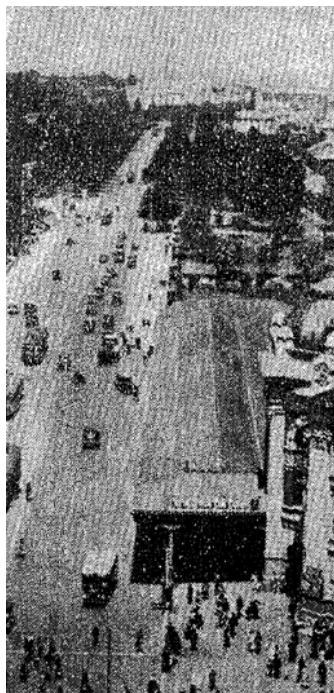
الرئيسية ساعات كثيرة بعدد الأرصفة والخطوط المختلفة، وتبين ساعة قيام كل قطار، ويشق البلدة نهر يارا Yarra الصغير، ويسير وهو يتلوى بينها، وعبره قناطر فاخرة عدة أجملها Prince's Bridge إلى جوار المحطة، وقد نسقت جوانب ذاك النهر وصُفت عليها اللنشات الأنique للنزة والمسابقة.

أما عن الألعاب Sports، وgram القوم بها على اختلاف صنوفها، فذاك أمر قد جاوز بالأستراليين الحد المعقول، وأخشى أن يكون قد أضحي ضرباً من الجنون؛ فإذا لم تتكلم عن الرياضة والألعاب، وتكون عليماً بدقائقها وأسماء أبطالها؛ فأنت رجل متاخر في زعمهم. وكم كانوا يتحدثون معي عن حوادث اللعب المختلفة وهم موقنون بأنني بما يقولون فيه! الحق أني لم أكن أفقه منها شيئاً؛ بل كنت أدعوي خشية أن أرمي بالتأخر.

وأينما سرت بدت أمامك أرض السباق ووسائل الرياضة في كثرة عجيبة، ولعل أحبها لديهم سباق الخيل التي لا تفتأ حتى دور الحكومة وسكة الحديد تعن عنه في إسراف كثير، وكذلك الهوكي والكركت والسباحة وسباق الدراجات. ولقد كان يفدي على الباحرة شاب لم يجاوز الرابعة عشرة، وهو بطل فرنسا في سباق الدراجات، وقد دُعي إلى أستراليا ودفع له تكاليف باهظة لينازل بطلها الشاب الذي لم يجاوز السادسة عشرة، وقد استقبلوه استقبلاً عظيماً، ونشرت الصحافة صورته وتحدثت عنه طويلاً.

والباريات الرياضية بين المقاطعات الأسترالية قائمة لا تنقطع أسبوعاً، وتکاد تملأ أخبارها نصف فراغ الجرائد كلها على كبرها. وأعجب الجرائد التي لا تحصى، والتي تظهر في حجم كبير، فمثلاً Time Herald تبدو في أربع وعشرين صفحة يومياً، ولها عدة طبعات: الأولى والثانية والثالثة لليوم الواحد، وأنت تقرأ فيها فلا تکاد تجد شيئاً عن العالم الخارجي أبداً، اللهم إلا ما تتعلق باللعب والإعلان.

المعروف عن الأستراليين أنهم لا يعيشون بأخبار العالم كثيراً؛ لأنهم في معزل عنه لا تهمهم شيئاً، وكل جريدة عمارة فاخرة قد تزيد على عشرة أدوار، ويكاد يخصص الدور الأسفل كله على كبره لسيارات النقل التي توزع الجريدة بمجرد ظهورها في أنحاء المدينة. وأغلب الناس من قراء الجرائد، وقد رأيت أحدهم ابتاع «الهارالد» ببس ونصف «خمسة مليم»، ونظر فيها نظرة وهو واقف على ناحية من الطريق، ثم أطبقها ووضعها في سلة المهملات.



شكل ٧: طريق كلاد الشهير في ملبورن.

وفي المساء كان بعض القراء يمرون ليلتقطوا منها ما راقهم، وتلك شبيهة بما رأيته في بلاد أمريكا يوم أن زرتها، ويفتهر أنهم يتخذون نيويورك وأهلها مثلًا، وينأنون عن لندن وينقدونها دائمًا. والجرائد حرة إلى حد كبير، وقد تنشر أخبارًا فاضحة مبالغة في الصراحة، فمما قرأت مثلًا الخبر الآتي:

قالت المس روز عن نفسها: كنت أخرج لأمرح مع شاب ينفق علي ثلثين شلنًا في الأسبوع، ولما لم يزد على ذلك هجرته إلى غيره، ولكن سرعان ما هجرني ونأى عنني، فهلا عاد إلى حبيبي الأول!

والنساء في أستراليا أميل إلى الإباحة والانقياد وراء الحرية المطلقة؛ حتى قيل: إن حرمة المنازل هناك ضعيفة، ولا تحرص الزوجة كثيراً على حقوق زوجها، حتى قال بعض القضاة في حكمه مرة: «يسود البلاد أزواج منحلون، وزوجات بعيدات عن الوفاء». وقضايا الطلاق هناك لا تدخل تحت حصر.

أوينا في المساء إلى مقهى لنسريج، فتقدمت منا الآنسة تسألنا: ماذا نشرب؟ فقال صديقي الألماني: بيرة، والفرنسي: شمبانيا، والإنجليزي: براندي، وأنا: قهوة باللبن، فابتسمت وقالت: يظهر أنكم لم تمرروا بتلك البلاد من قبل؛ ألسنت تعلمون أن الخمور محظور بيعها بعد الساعة السادسة من كل يوم؟! فدهشنا لذلك، وشرب الكل قهوة معى.

وقد علمنا بعد أن ذاك هو القانون في فكتوريا كلها؛ ولذلك ترى العمال بعد الخروج من العمل الساعة الخامسة تماماً مسرعين إلى المقاصف؛ ليشربوا ما راقهم من الخمر قبل حلول السادسة، وكذلك احترامهم ليوم الأحد مكفول بالقانون؛ فلا يباح للجرائد أن تصدر يوم الأحد فقط، ولا يجري الترام ساعة الصلاة، ولا تفتح صالات اللعب والتنس، على أن سائر بلاد أستراليا تسخر من فكتوريا وملبورن، وترميها بالشعوبنة وسلب الناس مسراراً لهم بلا مبرر، وتسمى عملها هذا kill-joys.

ويظهر أن البوليس هناك شديد جدًّا؛ فمثلاً دخل بنا سائق التاكسي طريقة لا يباح دخول السيارات فيه، فاستوقفه على الفور وأخذ نمرته ليلزممه الغرامة المفروضة، فقال السائق: ولكن كيف أعرف ذلك ولم تقم إشارة هنا تدل على ذلك؟ فقال: حقاً ذلك واجب على الدولة، ولكنني أقوم أنا بالواجب على؛ فتلك هي الأوامر، ولك أن تدفع أمام القضاء بذلك كي توضع الإشارة اللازمة.

فذك فإنك إذا أقيمت بأية ورقة في الطريق، فللبوليس أن يلزمك بما يقرب من العشرين شلنًا غرامة. والحق يقال: إن شوارع البلدة بالغة النظافة، وقد حاولت أن أغثر على بعض الأحياء القديمة القذرة slum فلم أجد قط. والقوم بعيدون عن التدين لا يقادون يؤمدون الكنائس، ولا تقاد ترى من الكنائس إلا النادر.

أدهشني ذاك العمran الهائل والرقى العجيب الذي ما كنت إخاله في تلك القارة المبنوذة النائية، والتي لا نكاد نعلم من حقيقتها شيئاً، وحتى الإنجليز أنفسهم يخطئونها ويخاطبون أبناءها قائلين: You colonials أنتم لا تعرفون هذا ولم تتعلموا ذاك. مع أنهم على جانب عظيم من العلم والرقى. حدثني أسترالي عائد هو وزوجته من إنجلترا



شكل ٨: فوق جبل النصر وراء ملبورن.

عن جهل الإنجليز فقال: بأنهم دعوا إلى بيت، وقدم الشاي والسكر المكثنة Loaves ف وقالت لها ربة البيت: هذا سكر يا سيدتي، أظنك لم تريه في هذا الشكل من قبل؟ قالت: وكيف؟ نحن الذين نصنعه ونرسله إليكم! وكانت تسألهما: هل عندكم دور للسينما؟ أليست أستراليا موطنًا للسود ومصادرًا للكانجارو والإيميو؟

تلك كل معلومات بعض الإنجليز عن أستراليا؛ ولذلك فهم ينظرون إليهم نظرة السيد للمسود، وقد أحاس الأستراليون ذلك، وتبسموا بموقفهم من أولئك السادة. وللناس بعض الحق أن جهلو الكثير عن تلك القارة، فهي نائية عن العالم كله، وأقرب إلى أمريكا منها إلى أوروبا، وملبورن — في نظري — خير من أغلب مدن أوروبا، وأكاد أفضلها على لندن نفسها، فإنك لا تجد في أحياها ما يعادل Covent Garden & Liverpool Str يوماً قذارة وإهمالاً وإن كانت دونها حجماً، وهل كان يعتقد John Batman يوماً أن وقف وسط رهط من الأبرجينيز على ضفة نهر صغير كانوا يسمونه Yarra Yarra لأول مرة سنة ١٨٢٥ وقال: ذاك مكان صالح لإقامة قرية صغيرة؛ هل كان يخال ذلك الرجل أنها ستصبح بهذه الفخامة في مدى مائة عام؟ فلقد بدأت في تلك السنة بأربع عشرة نفساً، واليوم فاقت المليون من مجموع سكان فكتوريا.

وهي ثانية بلاد أستراليا بعد سدني، وخير البلاد الصناعية هنالك فيها ما ينوف على خمسة آلاف مصنع وأسماಲها فوق خمسين مليون جنيه، وتنتج من السلع ما يقدر بماية مليون جنيه في كل عام. ولقد بدأت نغمة التفاخر بالسلع الأسترالية Home Made تكثر في المتاجر المختلفة.



شكل ٩: اشتهرت آنسات فكتوريا بالرشاقة والجمال.

قمنا إلى سدني وبلاد ويلز، وأخذ يسير بنا البيلوت المسافات الممدودة وسط ليات جون پورث فيليب الجميل، ثم تركنا بعد ثلاث ساعات، وأوغلنا في المحيط نسير شرقاً، وكان الشاطئ يبدو إلى يسارنا في رُبّي وطيبة وجزائر عده، ثم اخترقنا مضيق بأس بين تسمانيا وأستراليا، ودخلنا المحيط الهايدي الذي حق لنا تسميته هذه؛ فلقد ظل مأوه هادئاً، ونسيمه عليلاً، وسماؤه مشمسة بعد أن سادنا ذاك الجو العكر في نواحي جنوب أستراليا، وظل طيلة يوم الأربعاء في هدوئه فاستبشر الجميع أنهم مقبلون على أيام هي خير مما سلف، وجلهم سيغادر الباخرة في سدني باكورة صباح الخميس ٩ يوليو.

(٤) سدني

بدأت طلائع سدني حوالي الساعة السادسة صباحاً، ووقفت بنا الباخرة تنتظر البيلوت ساعة، ولما أن أقبلأخذت تشق طريقها مقبلة على خليج جاكسون بلياته العدة، التي يوغل بها في البر في غير حصر، وسط رُبّي وطيبة لانهائيّة تكسوها الخضراء من الأشجار الكثيفة، والدغل الثقيل، في رواء يفوق كل وصف. وقفنا نستجي من آيات الطبيعة الرائعة ما أذهلنا، وإذا بنا ندخل تحت قنطرة دونها كل ما رأيت في بلاد العالم الأخرى حتى قناطر نيويورك، تصل ما بين طرفي الميناء في امتداد هائل، وضخامة لا تحد، وهي

من معجزات فن الهندسة المعمارية؛ فعلى الرغم من ضخامتها تراها معلقة، ويمر بها من فوقها قطار سكة الحديد والترام والعربات والمارة، كل في جانب خاص ذات اليمين وذات الشمال، ومن تحتها تixer جميع الياقوت مهما بلغ حجمها كي تدخل الميناء أو تخرج منها. وهي مفخرة لأهل سدني يباهون بها العالم أجمع، فلا يكاد يكلم أحد هم عن بلده حتى يقول: هل رأيت Sydney Bridge؟ وقد كلفهم بناؤه فوق عشرة ملايين من الجنيهات.

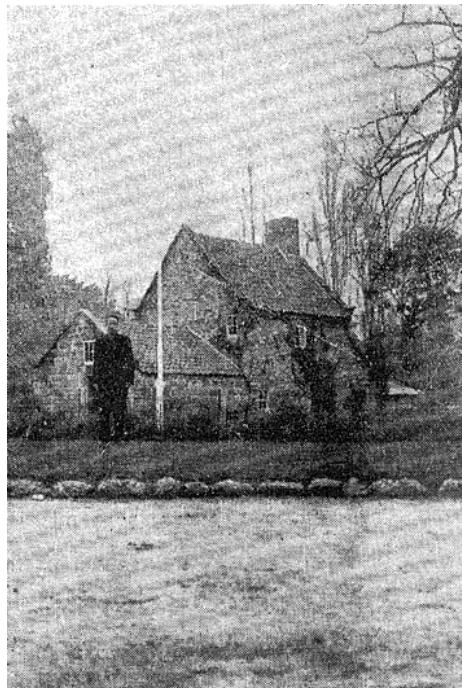
أخذنا نمر من جون إلى آخر حتى رست بنا الباخرة وحللنا المدينة، وإذا بها تفوق في نظري جميع بلاد أوروبا، بل وأمريكا في كل شيء؛ فأحياها التجارية تمتد في شوارع فسيحة متوازية طويلة من الميناء إلى محطة سكة الحديد، ثم تقطعها أخرى عرضية، وجلها يسير به الترام الفاخر والأتوبيس، وأغلبه من طابقين. وتکاد حركة المرور تسد الطرق سداً، ويُظلل الإطارات غشاءً عريض من زجاج أو خزف بديع تحته أبواب المتاجر، وقد مد أمام كل باب منها الاسم في حروف كبيرة من نور يكون أغلبه أحمر أو أزرق يتلألأً صباح مساء.

وعرض السلع في نوافذ الأماكنة يدل على شيء كبير من حسن الذوق وجمال الفن، وذاك الحي الغاصل يشبه ملبورن تماماً إلا في أن شوارعه تعلو وتهبط فوق الربى والوهاد، ومن المباني كثیر يفوق الدور الخامس عشر، وحتى الفندق الذي حملته Morris Hotel في شارع Pit به أربعة عشر دوراً. أما ضخامة الأبنية وواجهتها فحدث عنها، وبخاصة دور البنوك والشركات الكبرى، وهم لا يعرفون تلك الأبنية بنمرها، بل كل عمارة تحمل اسمًا خاصًا، مثل Sydney House وUnion House.

أودعـت حقائبي ذلك النزل الجميل، وأجرـه ستة شلنـات في اليوم، أعني أربـعة وعشـرين قرشـاً، وبعد أن تفـقدت خـريطة المـدينة وـتسلـمت عـدـداً لا يـحصـي من المـطبـوعـات المصـورة عن نـواحي الـجمـال فـيها، قـصدـت توـاً إـلى: دـار السـيـاحـة Govern Tourist Bureau، وتـلك إـدارـة حـكـومـية نـافـعـة لـها فـروعـها في جـمـيع بلـاد أـسـترـالـيا، وـتـؤـدي خـدمـات عـظـيمـة لـلسـائـحـين من جـهـة أـخـرى، فـلا يـكـاد قـطـار أو سـفـينة تـصل بلـداً من بلـادـهم حتـى تـرى منـدوـبي ذـاك المـكتـب يـقدمـون لكـ أـكـدـاسـاً من المـطبـوعـات والـخـرـائـط الـتي تـتجـلـي بـها بـدائـع بلـادـهم، وـيـرـشدـك الدـليل إـلى كلـ شـيء طـلـبـت بـدون مـقـابلـ.

وـهـم يـرـتـبون سـيـاحـات دـاخـلـية مـخـلـفة لـها أـسـعـارـها الثـابـتـة، وـفي موـاعـيد مـقرـرة كلـ يـوم بـعـضـها بـالـسـكـة الحـديـدية وـالـبعـض بـالـبـواـخر، وـالـغالـب بـالـسيـارـات الفـاخـرـة الـبـديـعة.

وجل وسائل النقل هناك ملك للدولة «سكة الحديد والأتوبيس والtram، وقطر تحت الأرض، والسابات الصغيرة، وحتى جانب كبير من عربات التاكسي».



شكل ١٠: بيت الكابتن كوك يتخذ متحفًا لخلفاته في ملبورن.

والحكومة هناك تنزع إلى الاشتراكية؛ لأنها تكاد تملك كل شيء، وتساهم في أغلب العقار والأراضي والغابات، وجل المنشآت الكبيرة لها، وبخاصة البيوت المالية والتعليم والمواصلات، وكثير من النزل والمطاعم.

ساهمت في كثير من السياحات التي يقومون بها مقابل قيم معقولة، وبدأت بالسياحة في المدينة وما جاورها؛ فطافت بنا السيارات زهاء ثلاثة ساعات مقابل خمسة وعشرين قرشاً، والدليل يلفت أنظارنا إلى الجهات الهمامة، ويشرح ما خفي عنا من أمرها.

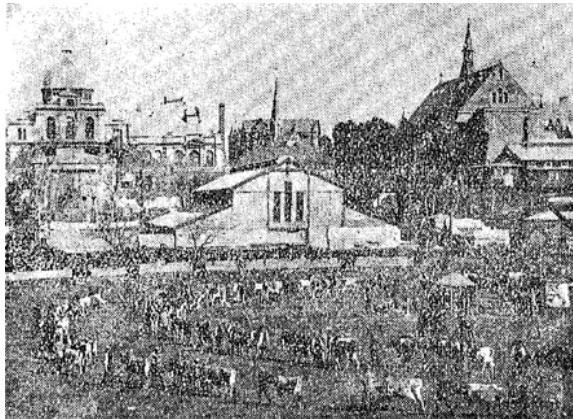
وسدني بحكم توغل البحر فيها بزوايده العديدة لم تكن محصورة في رقعة واحدة، بل ترى نواحيها مبعثرة هنا وهناك، وشوارعها تعلو وتهبط وتتلوى كثيراً، وقد بلغ من انحدار الطرق أن تزيد الزاوية على خمس وأربعين درجة، وذاك في نظري زاد المدينة جمالاً.

أما في ملبورن فالبلدة مسطحة محصورة في حيز محدود، ويقولون بأن ملبورن أكثر وجاهة وتمثيلاً للأرستقراطية من سدني، وكذلك أهلها أكثر تمسمًا بقواعد الإتيكيت والل spiele إلى أقصى حد، فهل تستطيع أن تجتاز الشارع من وسطه، أو تسير في هنام غير منسجم، أو تخلع عنك البقعة وتسرير عاري الرأس؟ إن فعلت ذلك تعرضت للنقد الشديد، والبلدان يتنافسان، وتدعي كل منهما حق الأولوية في أن تكون عاصمة أستراليا، وهل تستطيع وأنت في سدني أن تتكلم عن ملبورن أو العكس؟ فهم لا يحبون إلا الإطناب كلُّ في بلده. وسرعان ما يسألك أحدهم كيف رأيت ملبورن؛ أهي خير من سدني؟ فإن قلت: نعم. آلمته كثيراً، وتلك المنافسة الحادة بين البلدين هي التي حدث بهم إلى تخير العاصمة في بلد أنشئ بينهما هو كانبيرا، رغم عدم لياقته لذلك مطلقاً.

استرعى نظري روعة الشوارع، وضخامة المباني، والإسراف في تجميلها بالمرمر البراق، والعلو الشامخ في قلب المدينة. أما في أطرافها حيث مساكن القوم، فالبيوت قيلات من طابق واحد أو اثنين على الأكثر، ولا تكاد ترى بيتين متشابهين في الهندسة، وحول كل منها متسع للحديقة التي تعوزها المزروعات والزهور والأشجار، فجلهم يتركونها أرضاً يكسوها الكلأ المشذب، ويقاد كل واحد هناك يمتلك بيته، ولا تكاد تجد واحداً لا يمتلك سيارته؛ لذلك كان تزاحمتها في الطرق كثيفاً جدًا.

طفت بتلك الأحياء التي تقوم بيوطها الأنقة فوق الربى، وتنحدر إلى البحر، ويحوطها بين هذا وذاك شجر الصمغ «البوكالبس»، الذي لا يقاد يخلو منه مكان في البلاد كلها من سهل وجبل، وكم راقتني نواحيها الرملية Beaches، خصوصاً Bondi و Manly، وCoogee، وتقوم عليها حمامات السباحة البدية.

ومن الشواطئ ما هو صخري مشرف في علو شاهق، وتغضن مخيف، تضرب فيه موجات المحيط الهادئ في شدة ساعة أنْ تقذف بها الرياح الغربية، فيعلو رشاشها إلى عنان السماء، ومن تلك الشواطئ القاسية ما أحاطته الدولة بأسوار عالية؛ لأنَّ كثيراً منها كان يتخذ مقذفاً لراغبي الانتحار، وهؤلاء في البلاد كثيرون، فلا يقاد يمر يوم لا تسمع فيه بحادثة انتحار، وحتى قنطرة سدني الجديدة بعد أن تم بناؤها أخذ المنتحرون يفضلونها على غيرها، فاضطررت الدولة إلى رفع الجوانب، وتزويدها بالشباك الشائكة.



شكل ١١: معرض الأبقار في أدليد.

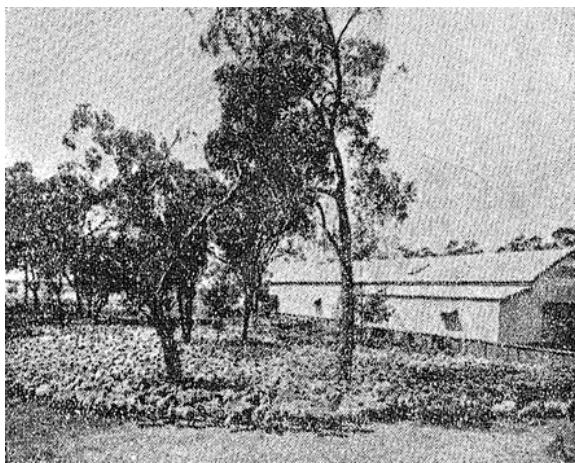
ونزعة الانتحار هذه يرجع بعضها إلى المرض، والأغلب للفقير؛ فالبلاد مستوى العيش فيها مرتفع، وجل الناس يبدو عليهم الغنى واليسار، وحاجياتهم عدة لا تقف عند حد، وحتى الأجراء يتضاعفون رواتب كبيرة، فلا ينقص دخل العامل عن نصف جنيه في اليوم؛ ولذلك عرفت أستراليا بأن الأجور فيها مرهقة تفوق حتى تلك التي في أمريكا؛ لذلك سارع القوم بالانتحار إذا أمضُتهم طول البطالة.

جلست إلى مائدة الطعام في النزل إلى جوار شاب خفيف الروح أخذ يتحدث إلى، وإذا به سوري حل هو وإخوته منذ خمس سنين، وهو يشتغل بالتجارة، وقد قال لي بأن مجئه إلى أستراليا كان حظاً سعيداً؛ إذ شantan بين دخله هو وعائلته في بلاد الشام وبين ما يكسب هنا، فالمال في أستراليا متوفّر جداً للرجل المجد التشيّط، وهم يعيشون في قرية داخل سدني، وهو يتربّد على العاصمة كل أسبوع، وللسوريين والإغريق أندية كثيرة في سدني، دعاني إلى أحدها، وتناولت الطعام الشرقي البديع، وقد لازمني اليومين الأولين واستفدت من خبرته هناك كثيراً.

وكم كانت دهشتي من جرأته، وبخاصة في أمر مخاطبة النساء ومسامرتهن! ونساء أستراليا أعطين نصيبياً من الحرية لا يحد، فليس للأبوبين على الفتاة سلطان قط، وهن على جانب كبير من الجمال والرشاقة وخفة الروح، يسرعن بالاختلاط والمعاشرة في غير

تخرج، إلا أن فيهن شيئاً كثيراً من الخجل، ولا يبدو عليهن شيء من الفجور الذي تلمسه في نساء أوروبا مثلاً، وأنت لا ترى الكثير منهن تقفن على نواصي الطرق متسلكات في الكثرة المزرية التي كنت أراها في البلاد الأوروبية.

فالمتبذلات هناك قليلات جدًا، وليس في البلاد دور للفجور، وما الداعي لذلك والبلاد معروفة بمجاوزة الحد في الحرية؛ يأتي الواحد ما يريد في غير رقيب؟! اللهم إلا إذا صحب ذلك اعتداء على كائن من كان. وأول ما يسترعى نظر الزائرين المتسعات الهائلة من الأرض التي يُخصّ بعضها للمنتزهات، والبعض للملاعب الرياضية. ولعل الأستراليين أكثر أهل الأرض ولوغاً بالرياضة على اختلاف أنواعها؛ فأنديتها لا تكاد تغيب عن العين حتى في الريف، وكل أسترالي عضو في واحد أو اثنين منها على الأقل، والبعض يساهم في الاشتراك في ثمانية نوادي معاً.



شكل ١٢: الأغنام عند حظائر الجز في أستراليا.

وأحب الألعاب لديهم جميعاً الجولف ثم التنس، وإن لعبوا كرة القدم والهوكي كثيراً، وهل هناك أسترالي واحد لا يلعبها؟ أما المساهمة في سباق الخيل فأمر قد جاوز بهم الحد؛ فهم يقامرون عليها بكل شيء، والأستراليون من أكثر أهل الأرض ميلاً للمغامرة

على اختلافها، ومن المتنزهات التي تتوسط المدينة Hyde Park، نسق خير تنسيق؛ فهو يفوق جمالاً هايد بارك لندن، لكنه أصغر وأقل شجراً، وتقوم وسطه النافورات البدية والتماثيل، ومن بينها تمثال للكابتن كوك كاشف أستراليا، وفي جانب منه ذكرى الحرب War Memorial في مدرج رباعي عليه شبه قبة مربعة هرمية، تطل من دائرة وسطها على تمثال لجندي قتيل عاري الجسد استلقى على عمود تحته ألسنة لديران متذكرة، وقد كتب حولهم أسماء البلاد التي ساهموا فيها بأرواحهم.

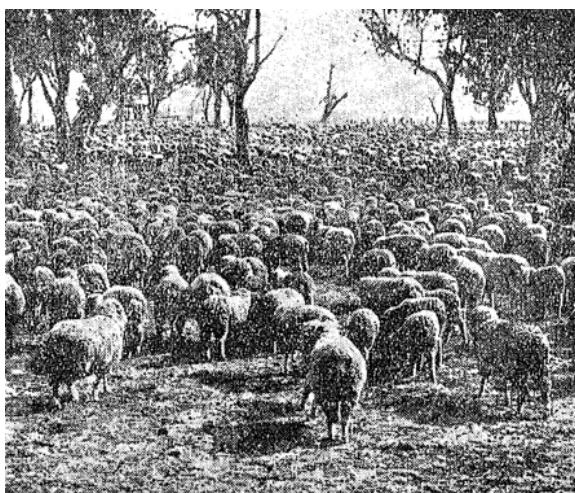
الجبال الأزرق والمغارات

ساهمت في رحلة المغارات والجبال الأزرق The Blue Mountains & Jenolan Caves وقد استغرقت يومين، وتتكلفت زهاء ثلاثة جنيهات، قامت بنا السيارات تشق ضواحي سدني، وكلها نظيف جميل البنيان، ثم أوغلنا في سهل يسمونه Emu Plain لكثره ما كان يؤمُّه من نعام أستراليا قديماً، ويقسم جلها إلى «زرابي» للأغنام أو الماشية، ويصورها أهلها بأسلاك تصلها قوائم خشبية، وحيث تكثر الفيران والأرانب تسد بشباك السلك سداً محكماً – ولا تزال الأرانب تتلف جانبًا كبيراً من المزارع هناك.

ثم أخذنا نعلو جوانب الجبال الزرقاء، فزادت كثافة الشجر، وكله منأشجار الأوكالبتس المختلفة، وبعضها Wattle وكان كثير منها يغص بحيوان الكانجaro، يقفز هنا وهناك في كثرة هائلة، ومنه أنواع أخرى أضعف ذنباً، وأقصر قامة، وأغرب لوناً، بعضها يسمى Wallabies، والبعض Wallaries، وفوق الشجر كما نرى جموع حيوان الدب الأسترالي Native Bear أو Koalas في وجهه العريض، ووبره الناعم، وجسده السمين، يقرض طوال الوقت ورق شجر الكافور في شهية تسترعى الأنظار، وذلك غذاؤه الوحيد، وهو من ذوات الجيب كأغلب حيوانات أستراليا.

ولبئنا نمر في الوهاد بالقرى البدية تسيل حولها مجاري الماء، ويفحها الشجر الكثيف حتى مررنا بأكبرها Katoomba، وهناك تناولنا الغذاء في مطعم فاخر للسكك الحديدية، ثم واصلنا سيرنا ونحن نعلو تدريجياً في تلك الطرق الملتوية البدية حتى وصلنا أعلى بقعة ٤٢٠٠ قدم، وأينما نظرت إلى الجبال وجوانبها بدت زرقاء يفوق لونها لون السماء زرقة، وذلك ناشئ من بخار أو شبه دخان خفيف يعم أرجاءها ويسكبها ذاك اللون الذي من أجله سميت Blue Mounts.

أخيراً، بعد أن قطعنا زهاء ١٣٥ ميلًا، دخلنا مناطق المغارات عند الغروب، هناك آتينا إلى فندق حكومي Chateau وسط الجبال الشاهقة، فأذكرنى ببلاد سويسرا في كل شيء، إلا في أن ذرى الجبال هنا لا تكسوها الثلوج، وبعد العشاء دخلنا إحدى المغارات، وتسمى Left Imperial، يتقدمنا دليل سار بنا في سراديب الصخر مسافات طويلة، ثم بدأت المغارة نفسها فلبيثنا نسير داخلها زهاء ساعتين، تتنقل من تجويف هائل في الصخر إلى غيره تتبعى من سقوفه زوايد الصخر المتبلور في أشكال مدهشة، وألوان عدّة Stalagmites، وكان يزيدتها روعة نظام تسليط الضوء الكهربائي عليها من جهات عدّة في إسراف كبير.



شكل ١٢: أغنام المرينو ذات الأصوات الناعمة.

ومن الأرض كانت تقوم الصاعدات Stalagmites العجيبة، ومن تلك الظواهر ما كان يبدو أبداً مدبة، أو كتلاً مجزعة، أو شرفات لها أهداب كأنها الشيلان يُسمونها Shawls في بلورات صافية البياض، أو مزركشة بالحمرة التي أكسبها إياها أكسيد الحديد، والبعض كان يرى بأنه شعاب المرجان، وبين هذا كذا نرى بحيرات يملؤها الماء، وبعضها كان يتصل بنهيرات باطنية كنا نسمع دوي الماء الدافق فيها.

وفي صباح اليوم الثاني، دخلنا مغارة أخرى يسمونها Orient، عدد درجاتها ١٦٠٠ سلمة بعضها يعلو بنا إلى السماء، والبعض يهوي إلى الأعماق. وقد لبثنا داخلها ثلاثة ساعات نستجي بداعها ومعجزات القدرة الإلهية فيها، وقد حملت هذا الاسم لأن بها ثلاثة حجرات Persian, Egyptian, Indian Chambers، ففي الهندية تبدو مجموعة الصاعدات والداليات كأنها باجودا بودا أو معابد الهندوس، وفي الفارسية قبة هائلة حولها بعض المآذن والنقوش التي بدت فارسية، وفي المصرية تبدو الصاعدات كأنها الجثث الفرعونية المحنطة، خصوصاً إذا ما أطفئت أغلب الأضواء.

وهم يتلقاضون أجوراً كبيرة على دخول تلك المغارات، ومتوسط أجر الواحد خمسة شلنات، يعني عشرين قرشاً، وعددها إحدى عشرة مغارة، لكل منها اسم خاص، وتلك المغارات تحمل اسمًا أستراليًا قديماً aboriginal، معناه مغارات الجبال العالية، وقد كشفها Charles Whalan سنة ١٨٣٨ وهو يتعقب لصوصاً سرقوا بعض الماشية، فوجدهم يأوون إلى تلك المغارات. وكثيراً ما كان يهاجم أولئك اللصوص قواقل الذهب وقطعان الماشية والأغنام في تلك الجبال وهي سائرة من الشرق إلى الغرب والعكس. ولقد أوقفت الحكومة خمسة أميال حول تلك المنطقة حرم فيها الصيد أو البناء أو الملك A Reserve؛ لذلك زادت فيها كثافة الغابات، وأوضحت مأوى آمناً لختلف الحيوان، وكنا نرى طوال الطريق جحور الكانجaro والولابي واللولاري والكوالا، وبعض الولابي كان يفدى إلينا من جوار المغارات آمناً وديعاً، ومن الطيور شيء لا يدخل تحت حصر، وأجملها في نظري البعير الأسترالي بألوانه البديعة، وكنا نطعمه الخبز والزبد من نوافذ المطعم في النزل.

أخذنا نسير حول المغارات بعد استيعاب اثنتين منها صعوداً فوق الربي كثيفة الشجر، وعرة المسالك، وكان البرد قارساً حتى إن الصقيع كان يكسو المقاعد، ويعيم ورق النبات في أغشية رقيقة بيضاء محببة، وقد راقني من النبات شجر السرخس الكبير بورقه الذي يحكي زغب الريش، وكان معه رهط من النساء والرجال وفدوا من بلاد ملبورن وأدلليد وپرث، وكانت على جانب كبير من كرم الطبع، وحب المعاشرة، والأدب الجم، حتى إني أصبحت واحداً منهم، وقد أعطوني عناوينهم وأصرروا أن أزورهم في بلادهم، وكم راقهم حديثي عن بلاد أستراليا، وما وصلت إليه من رقي وكمال يفوق كثيراً من بلاد العالم المتدين!

عادت إلى المنزل وإذا بإشارة تليفونية تطلبني أتكلم مع المستر Ward وزوجته في بيته، وذلك أحد رفقاء الباخرة كان في رحلة حول العالم وعاد عن طريق قناة السويس،



شكل ١٤: يجز الصوف بالآلات لكثره.

وهو مندوب عن مصنع كبير في سدني اسمه David Jones، وجل مهمته أن يتفقد نظام تفصيل أردية الرجال في جميع البلاد، ولما أن حادثته في التليفون قال بأنه سيجيء بعربته ليطوف بي أرجاء سدني، ثم نتناول العشاء في منزله.

حاولت أن اعتذر فلم أفلح، ولقد لبست ينتقل بي من ناحية إلى أخرى، ثم قصتنا الدار، وإذا بجمع من أقربائه يرحبون بي، وقد أصرروا أن أرافقهم غداً الأحد في تمضية سحابة النهار خارج المنزل، وقد كنت ضيفهم طوال اليوم، وموضع رعايتهم وكرمه، ولما ودعتهم قالوا بأنهم سيرونني قبل سفرى، وفي مساء الثلاثاء دعوني لتناول العشاء للمرة الثانية، فأدهشنى ذاك الكرم والظرف النادر الذي يلاحظه الإنسان ملماساً في جميع سكان أستراليا، وحب المعاشرة والإفراط في الكرم من أ Zimmerman.

ثم كانت زيارتي لحديقة الحيوانات في حي Taronga Park، ركبت لها سابحة مائية Ferry، والسابحات عديدة تصل ما بين أطراف الميناء العديدة في باخر صغيرة فاخرة تقوم كل نصف ساعة، وبأجر ثلاثة بنسات، أي قرش صاغ، تلقي بالقطعة في الصندوق فيدور بك المدخل إلى السباحة، صعدت تلك الربى ودخلت الحديقة، فرافقني حسن تنسيقها من ربعة لأخرى، وهم يلاحظون في حظائر الحيوان أن تكون ملائمة لبيئة الحيوان، وأن يحمل المدخل إليها بعض هندسة البلاد التي تقد منها وهم يكتبون

لوحة تفسر كثيراً من صفات الحيوان وب بيته، ويشفعونها بخريطة يظلل فيها الجزء الذي يقطنه الحيوان.

والحديقة غنية بالطيور وذوات الجيب، وما راقني بها القرد الأشقر Alibnoe ناصع البياض جيء به من الملايو، والحسان البري قصير القامة، هادل الشعر، كبير الرأس جداً، والدب الأسترالي Koala أو Native Bear في جسده السمين، ولو نه الأعبر، وججمته الكبيرة، يعلق بأطراف الشجر، ويأكل ورق الكافور.

وبيت السابع هناك شبه مغارات عميقة يقوم حولها سور قصير من حديد، وهي ليست مسقوفة، فيخيل إليك بأنها طلقة، ومنظر الميناء بزواائد العدة يبدو رائعاً من أية بقعة في الحديقة نظرت، على أن الحديقة في مجموعها صغيرة فقيرة في طوائف الحيوان، وحديقة القاهرة في نظري تفوقها كثيراً.

لابروز

قصدت زيارة خليج باتاني Captain Cook أول مكان رسا به في تلك البلاد، فركبت له الترام الأربعين دقيقة، وجزء كبير من الأرض التي قطعناها بري مهملاً bush، وأخيراً وصلنا إلى محطة يسمونها لابروز Laperouse على اسم الفرنسي الذي احتلها كأول إنسان أبيض عقب كوك مباشرة، وكان يعتزم ضمها لفرنسا.

ولقد رأينا مقبرة قسيس لابروز مشرقة على الماء هناك، وهو أول أبيض دُفن في أستراليا كلها، وركبنا سابحة مائية إلى الشاطئ المقابل الذي نزل به الكابتن كوك، وقد أقاموا له هناك نصبًا تذكاريًّا يحج إليه الجميع معترفين بفضله عليهم؛ إذ أمدتهم بتلك القارة الفتية الغنية.

ولقد استرعى نظري في تلك الناحية كثير من الوجوه السمراء، والسعن الهمجية الغريبة، وهم بقية من سكان أستراليا الأصليين Aboriginals لا يزال منهم زهاء ستين نفساً، قد نسوا لغتهم الأصلية، ويتكلمون لهجة إنجليزية ردئية جداً، ويشتغل جلهم بصناعة الأسلحة القديمة، وبخاصة البوomerانج boomerang الذي يعرضونه للسائلين، وكم دهشت لما رأيت كل واحد ينتحي جانبًا من الأرض ويلقي بالبوomerانج أمام الناس، وهو قطعة خشب معوجة مسطحة من جانب، مقببة من الآخر.

والعجب أنه يقذف بها إلى الجو في غير شدة، فتخرج كالسهم النفاذ يدور في السماء دورة أو اثنتين ثم يعود فيسقط عند قدمي الرجل الذي ألقاه. ولقد حاولت



شكل ١٥: الخبراء يفرزون صنوف الصوف للتصدير.

أن أتعلم طريقة رميه، ولبث الرجل يرشدني إليها زهاء نصف ساعة، وقد كدت أنجح وشريت منه واحداً بشلن، وذلك السلاح لصيد الطيور والحيوانات الصغيرة، ومنه نوع كبير للقتل Dead boomerang من خشب ثقيل جدًا، إذا أصاب قتل، وأعجب ما في البوميرانج أنه إن أصاب لم يرجع إلى صاحبه، وإن خاب عاد تحت قدميه تماماً، وكان لمنظر أولئك الناس وهم يلقون بأسلحتهم أمامنا لذة كبيرة، وتقدير لكافية الإنسان حتى في أحط أطوار همجيته.

(٥) السكان الأصليون

ومن السكان الأصليين عدد يقارب ستين ألفاً، يتفرق جلهم في الصحاري الداخلية وغابات الشمال، ولا تزال منهم بقية منأكلة لحوم البشر، ويعيشون إلى اليوم في عصر لا يزيد على سكان العصر الحجري، وكانتوا يعيشون بحالتهم هذه منذ مائتي ألف عام، وهم أحاط أجناس البشر عقولاً، وسخنُهم منفرة، وليسوا على استعداد للتقدم أبداً؛ فهم يعيشون على صيد الحيوان، وجمع بيض الطيور من أوكرارها فوق الشجر، ومن أحب الأطعمة لديهم النمل، ولكي يربوه يقتلون عدواً لهم ويدفونه، فيجتمع النمل حول جثته، وعندئذ يجمعون النمل ليأكلوه.

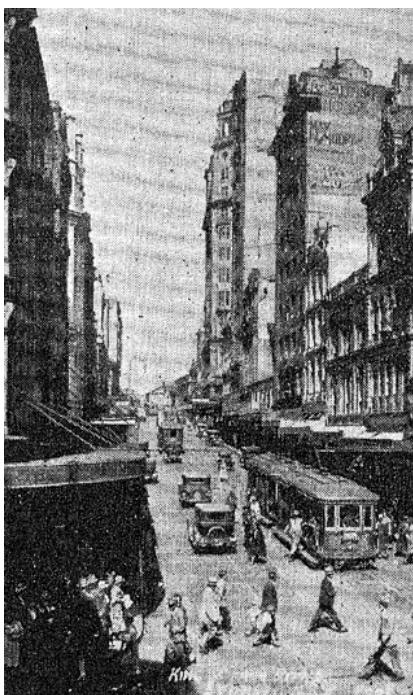
ويُعدُّون طعاماً محبوباً من أعشاش الطير، يكسرونها وينقعونها في الماء بأوساخها ونملها، ثم يُسْحَقُ ذلك في الماء فيكون شراباً حمضي المذاق لذِيًّا عندهم. ويترزج الرجل منهم من أي عدد شاء من النساء ما دام قادرًا هو وأصدقاؤه على تقديم الهدايا، ولما كان ذلك يستطيعه الطاعون في السن من الرجال دون الشبان لم يبق من الفتيات من تكفين لزواج الشباب، وذلك قد أضعف النسل وأنقصه، إلى ذلك فإنهم يئدون البنات غالباً؛ لذلك انحدر جنسهم إلى طريق الفناء رغم محاولة الدولة الإبقاء عليهم وتحسين مستواهم.

والغابات التي يحلونها لا تكاد تُحرق لما يحفها من أحطار الحيوان، وبخاصة الأفاغي، وحتى الشجر نفسه قاتل ميت، فهناك تسود الشجرة اللاذعة Stinging tree، فمن لمس ورقها العريض تسمم وظل يقاسي آلاماً شديدة، وهناك من القرش الكهربائي ما إذا لسته شعرت بهزة عنيفة خطيرة؛ لذلك لا يزال كثير من جهاتها مجهولاً بمن فيه من وحوش وإنسان، وتشكل الدولة لجاناً وبعوشاً تقوم ببحث حال أولئك، وإعداد الوسائل التي بها يبقون على ذلك الجنس الذي ظل منحطاً بسبب طول عزلته، حتى إن البحث لم يكشف عن أي أثر لمدينة قديمة في أستراليا كلها.

وهو في ججمته وظام أطرافه يشبه إنسان أوروبا إبان عصر الجليد، وهم نصف عرايا، شعرهم كث على لحاظهم، كثيف فوق جسومهم، يحبون الوشم، ويعتقدون في السحر، ومحاربوا ينقشون أجسادهم، ويخرقون آذانهم وأنوفهم بالأسلحة، ويشعلون النار بحَكَّ قطع الخشب ببعضها البعض، ويجدلون من شعورهم حبلاً لربط سلاحهم من البوميرانج والقصي والحراب.

وقد يصل طول الواحد منهم ست أقدام، والذين يقطنون منهم بكونزيلند وأستراليا الوسطى بدءوا يتصلون بالجنس الأبيض وينسون إليه، وقد حارب منهم كثير إلى جانب الحلفاء في الحرب العظمى في ميدان فرنسا.

وتُعدُّ أستراليا بسببهم متحف الأجناس القديمة؛ إذ فيهم يجد العلماء مجالاً كبيراً للبحث عن أصول الآدميين، ومن أشهر قبائلهم: Binbinga و Warramunga و Arunta و Kamilioi، ولغتهم تحكي أصوات الحيوان يكررونها مئات المرات بنغمة موحدة مملة. وإذا خالف أحدهم أوامر السحرة؛ كان يأكل طعاماً شهيًّا حُرِّم عليه كشح الإيمو ولحم الكانجارو وغذاء الزعماء، عُوقب بفقد عيونه، وبعدم إطلاق حيته – وإطلاق اللحي شعار الاحترام عندهم.



شكل ١٦: شارع كنج في سدني.

ومن أتعجب عاداتهم الحداد والنحيب على المُتوفى، فتراهم يصيرون صيحات منكرة عالية، وبيَد كلّ منهم مضرب أو حربة يضربون بها أجساد بعضهم ضرباً مبرحاً، ولا يتأنّم لذلك أو يحاول تجنب تلك الصدمات، ثم تُشعَل نار وهم حولها يهربون ودماؤهم تسيل من أجسادهم، ثم تُحمل الجثة فوق شجرة، ويُنزع اللحم عنها، ويُكسر أخو الفقيد العظام، ثم تُدفن في جحر تحت الأرض.

ومن أقسى عاداتهم أن الغلام إذا شب خضع لصنوف من التعذيب أربعة عشر أسبوعاً، وفي نهايتها يُرمي فوق نار يُزد لهبها تدريجاً، والغلام يتلوى فوقها بسرعة لكي يتتجنب خطرها، فإذا استقر فوقها عشر دقائق عَدَ رجلاً وزينَ بأشرطة من جلد

الكانجaro. والموت عندهم نتيجة لتأثير سحر صَدَرَ من شخص آخر لا يزالون يبحثون عنه ينتقموا منه.

ُعُدت إلى قلب المدينة أسيير بين جدرانها الفاخرة وحركتها الصاحبة، أدخل ذاك البناء وأصعد غيره، واختلف إلى بعض متاجرها البديعة ومصارفها الغنية، فكان يذهلني ميلهم إلى الوجاهة، وشديد إسرافهم في تموين أبنائهم بأحدث الوسائل وأجملها، ترى البناء براقاً بُولغاً في نقشه وتجميله، حتى بدا بناء بنك مصر على وجاهته لا يُذكر إلى جانب تلك المباني، فعجبت لمظاهر الغنى واليسار البدائية في كل شيء.



شكل ١٧: في أرض جامعة سدني.

ولقد سألت عن الأحياء الفقيرة فأرشدوني إلى بعضها، وإذا بها بيوت صغيرة نظيفة جدًا هي أقدم الأحياء ليس غير، ولا توحى بالفقر أو القذارة أبداً، على أنه رغم ذلك تجد في المدينة زهاء أربعين ألفاً من العاطلين يُمْهِرُون معاشاً هو شلن كل يوم، على أن نقابة العمال تحاول توظيف الجميع كل بدوره ولو إلى حين.

والعمال هناك متمنعون بحقوق كثيرة يندر وجودها في الخارج؛ فلا يجوز لرب المصنوع أن يطرد أحدهم إلا بإذن من النقابة، ولا يستطيع توظيف أحد، فهو يتطلب النوع الذي يريد، والنقابة ترسله وتفرض له الأجر، والمصنوع أو المتجر يمهد للعمال شراء

منتوجاته بنفقات الإنتاج ليس غير، ويخولهم متسعاً من الوقت لتناول شاي الصباح العاشرة صباحاً: ربع ساعة، والغداء: ساعة، ولا يصح لعامل أن يشتغل بعد الساعة الخامسة إلا بأجر مضاعف؛ لذلك كان كل الناس متيسرين، وساهم في بنوك التوفير ٤٧٤٨٤٠٠ من مجموع السكان البالغ $\frac{1}{7}$ مليوناً.

وقد دل الإحصاء أن لكل فرد في أستراليا ودائع في البنك تبلغ ٤٤ جنيهاً على الأقل، ولا عجب؛ فالبلاد فتية وغنية الموارد، وأهلها قليون، والطلب الخارجي على خاماتهم الكثيرة يتزايد كل يوم، على أنها رغم ذلك لم تخل من المتسللين، وجدهم من مدمني الخمر أو العاطلين، وبعضهم يسير في الطرق عازفاً على مزماره أو كمانجته مستجدياً، لكن عدد أولئك قليل جداً، وفوارق الطبقات غير موجودة رغم ميل الكثير منهم للواجهة والظهور؛ فأنت تعامل الخادم أو الخادمة وكأنه من عائلتك، فترى العامل يغني ويلهو أمام سيده، وقد يشاطره السيد ذلك السمر واللهو.

وكم لاحظت من العمال في هندامهم غير النظيف يركب الترام إلى جوار سيدات ممن بدا عليهم اليسار، فيفسخن لهم المكان، ويبتسمن لهم، ويكلمنهم على قدم المساواة، وفي غير تألف أو اشمئزاز! وسرعان ما يجاذب الناس أطراف الحديث حيث كنت، ويسألونك: كيفرأيت بلادهم؟ ثم يقولون: هل لاحظت مدى الحرية التي يتمتع بها الناس هنا جميعاً؟ تلك Free Country ليس لأحد قبل الغير سلطانقط، فنحن أحراز نتصرف كيما شئنا دون أن يتدخل في أمرنا أحد.

ومن المظاهر العجيبة التي استرعت نظري طائفة المبشرين الذين يسيرون بعربات كبيرة زُوِّدت بمكبرات الصوت، وдинامو الكهرباء والأضواء، ويقفون على نوادي الطرق يبشرؤن بال المسيح والمسيحية، وكانت أرجى الناس وقوفا حول البشر بعضهم منتص، والبعض ساخر، والرجل يقول: المسيح الذي ضحي بنفسه من أجلنا كيف لا نؤمن به؟ فصاحت رجل من المستمعين قائلاً: ولمَ لم يرفع عنا الخطايا دون أن يلجم إللى تعذيب نفسه؟ وكيف يموت وهو Supreme being؟ أنا لا أعتقد في وجوده، وأخر قال: هل تعلم ما كان لون آدم وحواء Adam & Eve؟ وثالث قال: قبل أن يولد المسيح هل لم يكن هناك عالم موجود؟ وكيف خلق المسيح هذا الكون ومتى؟ فكان البشر يتهرب من الأسئلة ويقول: هاكم الإنجيل يقول: لقد خلقت العالم وقلت له: كن فكان! وكان جلهم يبدو متبرماً غير مصدق.

والعجب أنهم لا يتعرضون لبعضهم، فكل منهم يُبْدِي رأيه في حرية دون اعتراض، وقد تناقض عجوزان في الأمر، واحتمل الجدال بينهما، وأخيراً مد أحدهما يده للآخر



شكل ١٨: في قلب الجبال الزرقاء بمقاطعة ويلز الجنوبية الجديدة.

قائلاً: Well Shake hands friend، والقوم غير متعصبين ولا يؤمنون الكنائس إلا نادراً، ويُخيل إلى أن تلك النزعة التي تباعد بينهم وبين الدين هي التي حدت بالقسس وأرباب الكنائس أن يخشوا على مستقبلهم، فنشطوا بتلك الدعاية، وشجعوا طائفة من الناس اسمهم جيش الخلاص Salvation Army من الشبان والفتيات يلبسون أردية خاصة، ويطوفون بالشوارع.

وقد شاهدت حلقة منهم نصفها من البنات والنصف من الشبان يغنون ويطبلون بالدفوف، ويلعبن ويدربن على تلك الأنغام، ثم يقفن ويقدمون واحد، ويقف على كرسي ويحدث المستمعين حديثاً أساسه الإيمان، ووجوب التمسك به Faith in Jesus. ومظهر الديمقراطية يبدو في كل شيء حتى في المطعم، فترى المطعم الرخيص إلى جانب الأرستقراطي كثير النفقات، وإذا دخلت الأول رأيت به العامل بملابس القذرة إلى جوار المتألق الوجيه من الناس، وتعجب لرخص الطعام في تلك المطاعم، فبعضها يعطي الوجبة ذات الصنفين Two Course Meal بقرشين، وذات الثلاثة Three Course Meal بسبعة بنصارات، أي أربعة وعشرين مليماً، ويتبع ذلك الخبز والزبد والشاي غالباً أو القهوة.

كذلك النُّزل ترى الفندق يعلن عن الغرفة بشلن ونصف، وإلى جواره آخر يعلن عنها بثمانية شلنات أو يزيد، ولا تكاد تعرف الفقير إلا بلهجته الغامضة وهو يستخدم

كثيراً من الكلمات الدارجة Slang، ويعني في الحديث عن طريق الأنف، ويزيّد الكلمات لفّاً وعوجّاً حتى لا يكاد يُفهم.

ومما استرعى نظري بعض الكلمات العربية، مثل: مافيش وامشي Mafeesh وimshee بمعنى «لا شيء وادهب»، وكثير منها يرجع إلى السكان الأصليين. ولا تزال أسماء البلاد والأنهار وما إليها تشعر بذلك مثل: بلدة Katumba، وناحية Wallamaloo . Tarra Murra

ومن الجهات الجديرة بالزيارة: المتحف الذي زرته — والدخول إليه مباح بغير أجر للجميع — فكانت معرضاته حيوانات محنطة، وهيأكل عظيمة لحيوانات العصر الحاضر والبائد، وبخاصة الأسماك، ثم قسم چيولوجي به جل المعادن والصخور.



شكل ١٩: الداليات والصاعدات في مغارات جنولان في الجبال الزرقاء.

ويقتصر القسم التاريخي على مجاميع من أسلحة سكان جزائر المحيط الهادئ وأدواتهم، وكذلك مخلفات الأستراليين الأقدمين aborigines. وقد استرعى نظري في هذا القسم شعار الحزن من حزمة من نثر جذع بعض الشجر يلبسه رجل آخر، ثم يأكل قطعة من الجثة لتهديه إلى تعرف المتسبب في الموت، ويبدل هذا الرجل عليه، ثم نعش القتيل، وهو أسطوانة أصلها شجرة منقرفة قطرها قدم، تُحُشر بها عظام الفقيد بعد أن ينزعوا اللحم منه، ويُطبخ هذا اللحم ويُقدّم للزائرين والمقربين ليأكلوه. أما أقرباؤه فلا يقربونه.

وكان بعض تلك النعوش يُعرض بعد كسره وإظهار العظام منه، ثم قسم صغير جدًا مصرى به جثتان ملفوفتان في كفنهما وداخل توابيتهم يرجع زمانهما إلى ما بين ٦٠-٣٠٠ ق.م، ثم عدة رءوس محنطة من الأسرة الخامسة، ثم قليل من ألواح بابل الطينية. وفي ناحية مخلفات الكابتن كوك، وبعضها من أحجزته ومتاعه، والبعض مما جمع من مخلفات أهل جزائر المحيط الهادئ.

وقد راقني في قسم الحيوان المحنط كانجaro عملاق يفوق الزرافة طولًا، وكان يعيش هناك وانقرض اليوم، ثم أنواع لا حصر لها من ذوات الجيب، وحيوان البلاتبوس «ذو المنقار البطي»، ثم الطائر القيثارى lyre، وهو أسود في حجم الدجاجة الكبيرة، وله ذنب ريشه طويل، وله زَغَب خفيف كريش النعام، ومن وراء هذا ريشستان منقوشتان كبيرتان في رسم القيثاراة تماماً.

ثم الطائر القسورى Cassowary، وهو مثل الإيميو إلا أنه أسود الريش كالنعمان، وله عرف طويل، والطائر الضاحك الذي يسمونه كوكابورا kookaburra الذي يُرى في أستراليا، ويعيش على الأفاعي التي ينقضُ عليها، ثم يرفعها في الجو ويرمي بها إلى الأرض؛ حتى تضعف، ثم يجرحها ويلتهمها، وصياحه ضاحك مستمر يسترعي النظر، وهو قريب الشبه بالغراب الأسود الكبير، إلا أنه أضخم جسماً، وأقصر رقبة، وأطول منقاراً، وضاحكته هكذا كا كا هو hoo، ka ka ka hoo، ومن السمك: الراي، يحكى الترس المستدير في لون أغبر، وله ذنب قصير رفيع تخرج من أعلى شوكة مسننة سامة قاتلة، وجلدہ متین خشن تُتَحَذَّد منه بعض المبارد.

وفي ناحية قرب الميناء متحف الفن Art Gallyry، وهو صغير، وغالب معروضاته من الصور الأجنبية، أما إنتاج الأستراليين فقليل، وإن كانت بعض صورهم آية في الإبداع، ثم كانت زيارتي لحدائق النبات Botanical Garden، وهم يعنون بهذا النوع

من الحدائق في كل بلادهم، فإذا ما تحدثت إلى أحدهم عن أي بلد من بلادهم سارع بسؤالك: هل رأيت حديقة النبات؟



شكل ٢٠: همج أستراليا أحط الفصائل البشرية عقولاً.

والحديقة بها مجموعة لا يأس بها من النباتات خصوصاً الاستوائي Tropical Conservatorium of Giant Ferns، وفي جانب من مدخل الحديقة دار الموسيقى، وبه مدرسة هائلة لتخريج الموسيقيين المحترفين، ومتاحف صغير لآلات الموسيقى، وغالبها لهمج المحيط الهادئ.

ومن الأحياء العاملة ناحية من المدينة تُسمى King's Cross هي أكثر جهات البلدة حركة وجبلة في المساء، وتُصفَّ على جوانبها دور الملاهي، خصوصاً السينما والمقاهي بدبيعة التنسيق، والمطاعم الفاخرة، وتظل أضواوها ساطعة إلى ساعة متأخرة من الليل، وهي على ربوة تنحدر منها الطرق في صعود وهبوط إلى مدار البصر.

ولن أنسى منظر أحياء المدينة وأنا فوق تلك الجهات العالية؛ إذ كانت تنتشر بالثُرَيَّات المتلائمة إلى مدار البصر، وببعضها يسفع ويختبئ في ألوان مختلفة، وأينما نظرت رأيت جانبًا من الميناء وأجوانها النحيلة وقد فُرشَت منحدراتها بتلك النجوم الساطعة في جمال لا يُحدُّ.

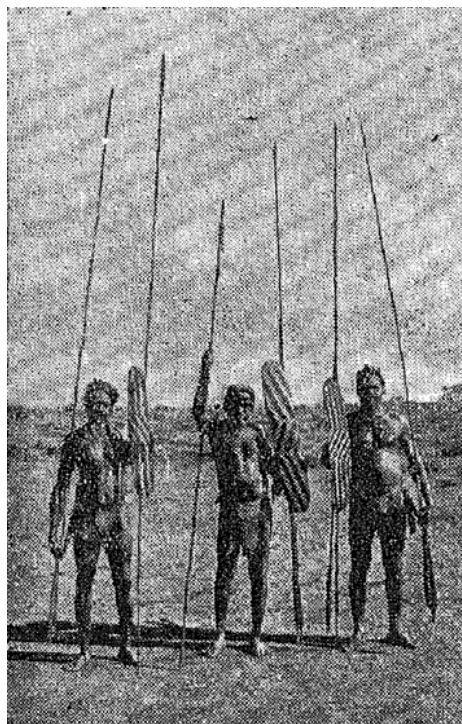
مر الأسبوع الذي أقمته في سدني وكأنه سويعات قصيرة، رغم أن الجو في الثلاثة أيام الأخيرة كان قاتماً غائماً مطيراً، وهذا الشهر أسوأ وقت لزيارة البلدة، وقامت أودع أستراليا، تلك البلاد التي تُعدُّ أكبر الجزر، وأصغر القارات، وأحدث بلاد الدنيا مدنية، وأقدمها من الوجهة الجيولوجية، فلقد طالت عزلتها عن سائر القارات؛ فخدم تطور الإنسان فيها، وظل الأسترالي الأصلي إلى اليوم يعيش في طور البداوة الأولى، ولا يزيد مستواه على مستوى إنسان العصر الحجري. ولقد تأخر كشفها بسبب بعدها، وامتداد صاريتها، وقسوة جبالها، وقد ساعد هذا على قيام أمة تستند على أصول الحرية والديمقراطية؛ إذ لم تتأثر برجعية القرون الأولى وتقاليدها، حتى إنني كلما حدثت نفراً منهم قالوا: نحن نعيش في بلاد حرة.

ولقد بلغت تلك البلاد من التقدم والثراء حداً كبيراً؛ فمستواهم الثقافي عظيم بفضل جهود الدولة في التعليم الذي تتفق عليه فوق ثمانية ملايين من الجنسيات، هذا خلاف مجهود المدارس الأهلية، وحتى النساء يساهمن في الشهادات العالمية، وغالبهن يُؤثِّرن جانب التربية، فجُلُّ المُدرَّسات في المدارس الابتدائية والصناعية والثانوية منها، وكثير من الحاضرات في الجامعات من النساء، ولهن حق الانتخاب منذ سنة ١٨٩٤، ومنهن كثير من البوليس، وبيدهن سلطة كبيرة.

وليس الفقر بحائل دون التعليم، لذلك وجدت كل الكفاءات مجالاً للظهور، وللسينما فضل ثقافي كبير، ودور السينما متعددة في كل مكان حتى في القرى، وقد دل الإحصاء على أن في أستراليا فوق ١٥٠٠ دار للسينما، أي بمعدل دار لكل أربعة آلاف نفس، وتلك النسبة تفوق حتى الولايات المتحدة، ومن تلك الدور تسعون في سدني، وثمانون في ملبورن، ويزيد ما يُعرض سنويًا من الأفلام على ٢٥ مليون قدم، أي نحو ألفي فلم، ونحو ٨٥% منها أمريكي؛ لذلك كانت جل الثقافة الأمريكية لا أوروبية.

وإذا ذهب الأمريكي إلى أستراليا لم يلحظ فرقاً كبيراً بينها وبين بلاده؛ ففي الحقول يرى الزراعة بالألات الحديثة، وفي المدن يرى دور الملاهي الأمريكية، وحتى الجرائد والمجلات تتبع أمريكا في نظمها وضخامتها. والأستراليون رواد مدن، ويندر من يعيش منهم في القرى، وقد دل الإحصاء على أن ٨٥% منهم يحلون المدن، ولا يفهم من أمر العالم الخارجي شيء، فقلَّما تشير الجرائد إلى البلد الأخرى.

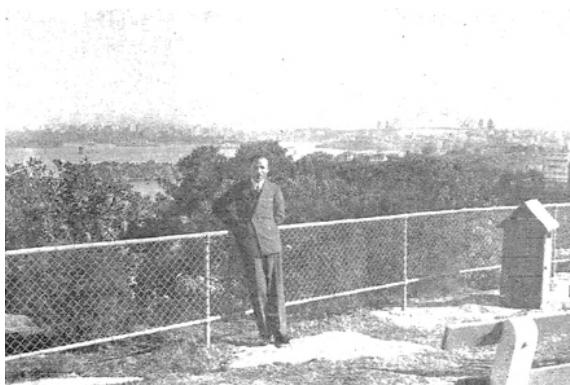
وتميل الصحافة إلى مداهنة الشعور القومي دائمًا؛ لأن الناس يغضبون لأي نقد يُوجَّه لهم، وهم يفاحرون بأنهم أكثر الأمم حرية، وهم على جانب كبير من حب المعاشرة



شكل ٢١: همج أستراليا كلفون بالقتال بحرا بهم الطويلة وتروسهم.

والكرم؛ فمهما بلغ بهم الضيق المالي لا يغفلون كرمهم. والأسترالي أكثر اعتماداً على نفسه حتى من الإنجليزي، يبدأ عمله في الحياة مبكراً في حداثة سنّه، ويجري وراء المادة بجد، فإن خسر في حياته لم يفزعه ذلك، بل تراه يجدد مجهوده بأمل صادق في المستقبل وتفاؤل مبشر، وهو في صبره واحتماله وأريحيته وكرمه قريب شبه بساكن الصحراء، فبمجرد التعارف يكاشفك بكل شيء، ويتخذك صديقاً، ويدعوك إلى منزله، ويصحبك ليطوف بك بالعربة وهو في كل ذلك مرح ضحوك، وليس لفوارق الطبقات وجود لديه؛ فقد يكون الوزير من أبوين وضعين، وقد يكون حفيد العظيم عاملاً بسيطاً، ولا ضير في ذلك قط، وبقدر كده وراء الرزق تراه مبالغاً في لهوه ولعبه.

ومستوى المعيشة بينهم مرتفع جدًّا؛ فالمنزل الصغير يتطلب خمسة عشر جنيهاً نفقات شهرية على الأقل، وأجر الطباخ الماهر جنيهان في الأسبوع، وأجر الخادمة أربعة جنيهات في الشهر، ويرمّى الأستراليون بأنهم يفتقرن إلى الحياة المنزلية، ولعل ذلك راجع إلى جوهر المشمس الصافي الجميل الذي يشجع الحياة خارج المنزل، وإلى أنهم جميعًا موسرون ينفقون كثيراً من المال في الخارج؛ لذلك كثُرت الأندية التي قد يشتراك الواحد منهم في عشرة منها في آنٍ واحد، إلى ذلك حياة الخلاء والشواطئ والمراقص التي أُغرِّم بها الجميع، فلا تكاد تكلم أحدهم عن بلاده حتى يسأل قائلاً: هل رأيت شواطئنا beaches؟ وإذا دعا أحدهم صديقاً له أضافه في فندق؛ لأن المنازل يعزّزها الاستعداد والخدم، ولقد خلَّف فيهم ذلك حب الديمocratic والرياضية التي ولعوا بها إلى حد الجنون.



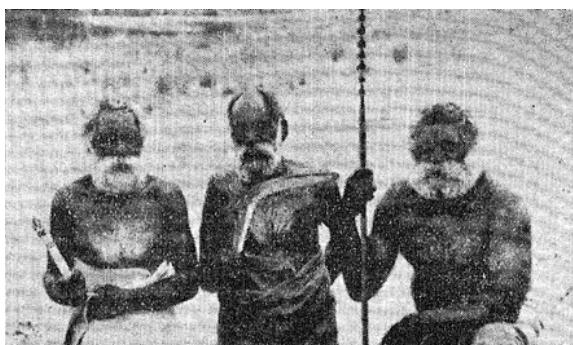
شكل ٢٢: أُشرفُ على ميناء سيدني من حديقة الحيوان.

وهم متفائلون مستبشرون دائمًا؛ فترى الواحد يقول: ذاك الضنك سيزول في غير رجعة، ولم لا؟! أليست بلادنا غنية وفيّة الخيرات والموارد؟ ويعزّى ذاك التفاؤل الجميل إلى جوهر المشمس الباسم، إلى ذلك فهم نزاعون إلى التساهل والتسامح وتيسير الأمور، وأنت تسمع على ألسنتهم دائمًا عبارة Give it a go أي «خليها ماشية»، وهم في ذلك يشبهون المصريين، ويعزو البعض تلك البساطة إلى عزلتهم عن العالم، وإلى المساحات

الشاسعة التي يقطنها عددهم القليل، ومثل ذلك لا يساعد على إنتاج العقول الراجحة، وبُعد النظر في تصريف الأمور.

ومظهر الغنى واليسار غالب على كل فرد؛ فيكاد كل واحد يمتلك سيارته ومسكنه الذي يتراوح ثمنه بين ٣٠٠٠ - ٣٠٠ جنيه، وأجور العمال عالية باهظة تكفلها لهم الدولة نفسها، وتدفع لهم المرتبات والمعاشات السخية في حالة البطالة، فالقانون يمنع العامل أن يشتغل بأقل من ٦ بنسات، و٧ شلنات، و٣ جنيهات في الأسبوع، أي نحو خمسين قرشاً في اليوم.

والفقراء تعهدتهم الدولة ولا تتركهم لتبرعات المحسنين كما هي حال أوروبا؛ لأنها تعد ذلك من الواجبات العامة. وتقاد الدولة تشرفاً على كل شيء، من بينها التعليم والمصارف وطرق المواصلات، وبخاصة سكة الحديد، وأهمها الخط القاري ويسمونه The Trans، ويمر بين العواصم كلها من بريث إلى برسبيون، وطوله ٣٤٧٤ ميلًا تقطعه القاطرات في ستة أيام.



شكل ٢٣: لا يزال الأسترالي الأصلي يعيش في العصر الحجري.

وأهم موارد البلاد المراعي، فأول الصادرات الصوف بنحو ٥٥ مليون جنيه في العام، ثم القمح والدقيق بنحو $\frac{1}{2}$ مليون جنيه، فالجلود $\frac{1}{8}$ ، فالزبد $\frac{1}{7}$ ، فاللحم $\frac{1}{6}$ ، فالفاكهه $\frac{1}{3}$ ، والصادر من الصوف آخذ في الزيادة لجودته، لكن اللحوم آخذة في النقص لأن أغذام المرينو ردية اللحم، جيدة الصوف.

والصوف هنا ثلاثة درجات: المرينيو الصافي للنسيج الممتاز، ثم المختلط للنسيج العادي، ثم الخشن لصنع الطنافس والأغطية «البطاطين»، وقد صدرت أستراليا ربع صوف العالم، ونصف نوع المرينيو المطلوب في الأسواق، وبلغ الإنتاج فيها ٩٥٦ مليون رطل، وقد بلغ ثمن الرطل ٢٨ بنساً، لكنه نزل هذا العام إلى تسعه بنسات؛ لذلك كان الفلاح يشكو الضائق المالية، ويخشون اليوم مزاحمة الصوف الصناعي، وعدد الأغنام في البلاد $\frac{1}{3}$ ١١٠ مليون؛ فهي أولى بلاد صوف المرينيو، وقد يبلغ ثمن الخروف الأصيل الواحد ٥٠٠٠ جنيه، أما الماشية فتنتشر في كل مكان، وبخاصة كويزيلند، لكنها تسد الحاجة المحلية فقط.

ويلي ذلك القمح الذي بلغ محصوله ٢٠٠ مليون بوشل، أي نحو ٤٠ مليون أرجب يُصدر نحو خمسها. ومن الإنتاج الهام هناك السكر، لكن زرעה يتتكلف كثيراً بسبب علو أجور العمال، فهي ١٧ شلنًا في اليوم مع أنها في الهند خمسة بنسات، وفي جاوة عشرة؛ لذلك كان ثمنه غالياً. ومجموع صادرات أستراليا $\frac{1}{3}$ ١٣٤ مليون جنيه.

والصناعة آخذة في النشاط؛ إذ يُوظَّف فيها اليوم ٢٠٠ مليون جنيه، وتنتِج المصانع ما قيمته ٤٠٠ مليون جنيه كل عام، خصوصاً في ويلز وفكتوريا، وبسبب علو الأجور زادت في البلاد قوة الشراء، فأضحت أستراليا من أغنى الأسواق، على أن نفقات الإنتاج الصناعي تزيد ٥٠٪ عنها في إنجلترا؛ لذلك كانت السلع غالية، ومستوى المعيشة مرتفعاً، وتحاول الدولة علاج ذلك بالضرائب الجمركية الحامية، لكن حالة أستراليا المالية ستظل في ضيق حتى تعالج المشكلتان: علو الأجور، وعلو الضرائب الحامية.

أما الضرائب العامة فعاليةً جداً، وعيُّوها ثقيل على الناس؛ إذ تزيد على ٣٠٪ من الدخل، وأكبر سبب لذلك كثرة ديونهم، فالذين العام ١٢٠٠ مليون جنيه، منها ٨٠٠ مليون نفقات الحرب العظمى. وكثير من مرافق البلاد مُعَطَّل بسبب قلة السكان وعلو الأجور، لكنهم يخشون إن هم فتحوا باب المهاجرة أن تطغى عليهم الأجناس الدخيلة. ولا تزال البلاد ناشئة وتنشق في مستقبلها ثقة كبيرة، وكثيراً ما كنت أسمع تلك العبارة تجري على ألسنتهم مجرى المثل، وهي: تعيش أوروبا على ماضيها، وأمريكا على حاضرها، أما أستراليا فعلى مستقبلها. ويشبهها البعض بحسناء لَمَّا تستيقظ من نومها بعد فيقولون:

She is a sleeping beauty

كان لا بد لي أن أُبرح البلاد الخميس ١٦ يوليو، وإنما اضطررتُ لانتظار الباخرة التالية شهرًا كاملًا، ولم يكن لدى من الزمن أقضيه في زيلندة الجديدة سوى أسبوع



شكل ٢٤: شارع من أوكلاند.

واحد؛ فأثرت أن استشير دار السياحة الزيزيلندية New Zealand Government Tourist Bureau، فقامت بتنظيم رحلة تشغل السبعة أيام، ودفعت لها ٨ بنسات، و ١٦ شلنًا، و ١٢ جنيهًا أستراليًا، يعني زهاء عشرة جنيهات مصرية، وقد زُوّدت بمجاميع من المطبوعات عن زيزيلندا، بعضها مصوّر بالألوان البدوية، والبعض وافر الشرح مزود بالخرائط، وكل ذلك يُصرَف مجانًا لمن أراد، وتلك طريقتهم الناجحة في الدعاية لبلادهم. ولقد ذلل لي ذاك المكتب صعاب الجمارك، وأغفاني من التأمين الذي يدفعه كل من حل زيزيلندا — وقدره عشرة جنيهات — وتلك المكاتب تجدها في أمميات مدنهم جميعًا، وتسرير في دقة وإخلاص عجيب، وكلها حكومية.

قمت أربع أستراليا تلك البلاد التي لم نكن نعرف عنها إلا ما يتعلّق بالذهب وبشكه، والصوف وتصديره، والهجم الأصليين وسلامتهم من البوميرانج، فكان يُخيّل إلى أنّي سأرى قومًا من الرعاة يعيشون عيشة بدوية، وإذا بي أرى شعبًا راقياً فاق سائر الشعوب حضارةً، وحتى رعاتهم في الريف على جانب كبير من التهذيب ونظافة الهندام وجمال المساكن. حقًا كانت تسترعى نظري أينما سرت حوانيت عرض اللحوم ومنتجاتها، فكنت أقف إلى جوارها طويلاً وأنا مدھوش لرخص المعروضات أولاً، وللتأنق الشديد في عرضها في «فترينات» كبيرة غاية في النظافة والوجاهة.

ولم أعجب لهذا الرخص، فقد بلغ بهم انخفاض الأسعار أنهم كانوا يبيعون الشاة بشلن واحد في السنوات الأخيرة، حتى هجر الكثير منهم مزارعهم وتخلص من قطعانه وبحث عن عمل آخر، غير أن الحال قد تحسنت قليلاً الآن بفضل ما تقوم به البنوك من الخدمات للفلاح، وقد كانت تدهشني كثرة المصارف؛ فلا يكاد يخلو منها شارع واحد، وهي متعددة وفي أبنية رائعة.

رِيْلَنْدَة

(١) إِلَى رِيْلَنْدَة

حللت الباخرة نياجرا من بواخر شركة Union Line التي تصل ما بين أستراليا ورِيْلَنْدَة وأمريكا، وحمولتها ١٣٤١٥ طن، لكنها من طراز قديم، وقد كان في وداعي على الميناء المسز وورد وبعض أقربائها. والحق لقد غمرني أولئك القوم بكرمهم، فالكرم والظرف وحب العاشرة سجية فيهم، فلا تكاد تتعرف إلى نفر منهم حتى يأخذوا عنوانك، ويُصرّوا على الكتابة إليك كأنك صرّت منهم. وخرجنا نتنحّى عن الميناء، وقد كان تزاحم الودعين كثيفاً، ومع كل منهم أشرطة ملونة من ورق في طيّات يُلقون بها إلى المسافرين، فيستطيع الشريط كلما بعثت الباخرة عن المرسَى؛ لتظلل الصلة بين الصديقين طويلاً، فكانت شباك تلك الأشرطة تسد الجو، ولا تسمح بالمرور على الرصيف مطلقاً، وكلما بعثنا تكشفت روائح ميناء سدني.

وقد مررنا تحت القنطرة الفاخرة التي ليس لها نظير في العالم أجمع، ولبثنا نشق مياه المحيط الهادئي المارد العظيم، ولم تكن موجاته عالية، ولكن السفينة كانت تتمايل وترتعد كأنها ترعب ذاك المارد الخضم، على أن ما نعرفه عنه من الهدوء بالنسبة لغيره كان مطمئناً لنا بعض الشيء، ولكن القوم جمِيعاً كانوا يوجسون خيفة من بحر طسمان، وهو ما بين أستراليا ورِيْلَنْدَة، وبعضهم يقول بأنه من أشد بحار الدنيا اضطراباً، ويظهر أن حظنا كان جميلاً؛ لأن الأيام كلها قد انقضت في هدوء وجو مشمس جميل يحكي شتاء مصر تماماً.

والليوم الأحد ١٩ يوليو قبيل الظهر رأينا أول قبس من أرض نيوزيلند في ثلاثة مخاريط شبه مجده يسمونها The Three Kings، ثم أخذت الجوانب الصخرية المشرفة



شكل ١: شارع رئيسي في أوكلاند وترى البوليس مثراً على الحركة من ذاك الصندوق المرتفع.

للهجزيرة الشمالية تبدو إلى يميننا، وسنظل بجانبها الليل كله، ولقد كان جمهور المسافرين أكثر ظرفاً وأميل إلى المعاشرة من رفقاء الباخرة الأولى مالويا؛ لأن الجنس الإنجليزي لم يكن يوجد بينهم، بل كان الجميع من أهل زيلندا وأستراليا وأمريكا، وكلهم أميل إلى المرح، وأبعد عن الترفع والكبرياء والصلف، وكم كانوا يكثرون من التحدث إلى في شئون مختلفة، وبخاصة عن مصر!

ولما أن عرفوا أنني مصري وعلموا بسياحتي وأطلعتهم على بعض الصور الفوتوغرافية، انهال الجميع يطلبون عنوانني، ويعدون بزيارة مصر، ويقدمون إلى عناوينهم كي أكتب إليهم، ودهشوا كيف أستطيع القيام بتلك الرحلات الجسيمة، وكانوا يقولون: إن نفقاتها لا شك تدفعها لك حكومتك، خصوصاً وأنك في وزارة المعارف، فكنت أتردد في الجواب وأقول: لا، بل أقوم بها لحسابي الخاص، وإن كانت الوزارة تساعدنني مساعدة أدبية فقط. وقد لبثوا يتحدثون معي إلى ما بعد منتصف الليل، وفي الصباح تهافتوا عليّ يأخذون صورتي وكأنهم لاقوا شخصاً عظيماً. فانتظر كيف يقدرون الرحلات، ويرون القائمين بها أهلاً للإجلال والتكريم!

(٢) أوكلند

وصلنا أوكلند قبيل شروق الشمس بعد ثلاثة أيام ونصف، وأقبلنا على الطبيب وضابط الجمارك ومررنا أمامهم، وتسليمنا ترخيص النزول إلى بلادهم في غير شدة ولا تعطيل، ومررنا من الجمارك بدون تفتيش بفضل رجال مكتب السياحة الحكومي. وقد بدت ميناء أوكلند عظيمة حديثة البنية والأثاث والمعدات، وترى الأرصفة متوازية وفي صفين منتظم، ومن خلفها البلدة تقوم على منخفضات من ورائها ربيّ وطيبة.

وقد اخترقت الشارع الرئيسي Queen St. إلى نُزُل أوكلند الفاخر، والشارع شبيه أخواته في سدني وملبورن تماماً، إلا أن مظهر الناس والمباني والمعروضات أقل وجاهة وثراء.



شكل ٢: شلالات وايروا الرائعة شمال أوكلند.

وكثير من الناس يبدو عليهم مظهر الفقر، وكان يسير بعض الصبية حفاة، وفي ثياب مرقعة. أقلني الترام إلى المتحف فوق ربوة نُسِقَت حولها المتنزهات، والبناء حديث وعلى جانب كبير من الفخامة، والدخول إليه مجاناً للجميع، على أنك تجد صندوقاً إلى يمينك كُتبَ عليه: «نرجو التبرع بشيء للقيام بنفقات المتحف». ومحطويات المتحف قَيِّمة فيما يختص بمخلفات الماوري من زوارق في أحجام عده، وطول أكبرها ٨٥ قدماً، وعرضه

٧، ثم أسلحة حجرية وطبول ومراس «هلب» من حجر مخروط كالرحي، وسلام لصيد السمك، وإبر من عظام الطيور، وأردية من ليف النرجيل، وحرابهم من أسنان السمك خصوصاً *Sword fish*. ويُسْتَرَّعُ النظر بنوع خاص نقشهم على الخشب وحفرهم فيه، فقد بلغ حداً كبيراً من الذوق الفني والمقدرة، ويرصعون بعضها بالصدف البراق. وكانوا ينسجون أقمشتهم الرقيقة من ألياف قشور بعض الشجر *Bark cloth* فتبدو ببيضاء كأنها الكتان، والقتل في سُمْك جدائل الخيش.

وهناك بعض بيوت للماوري كاملة من الخشب المحفور واللون الأحمر، وتملأ بين القوائم بأعواد الغاب تربطها شرائح رقيقة ملونة منه – كشغل الكراسي الخيزران – في نقوش وألوان فنية بد菊花，والسقف مثلث «جمالون»، وأمام الدار شبه «فراندَة»، والأعمدة كلها تُنْقَرُ في أشباح بشعة مخيفة، والبيت مظلم من داخله عديم النوافذ، وتُلْصَقُ بجميع جدرانه أصداف كبيرة تعكس الضوء الذي يدخل من الباب فينير المكان، والخشب جُلُه من شجر Kauri المتين أشهر أشجار نيوزيلندا. وهناك دار للاستقبال كان يقيمها زعيمهم وسط البلدة للحفلات، واستقبال الضيوف، وعرض الرقص الذي يولعون به جداً، ويسمون دار الضيافة Hotunui. ومعاطفهم يُكْسَى بعضها بريش الطاووس. ومن معروضاتهم بعض توابيت موتاهم من خشب كالبراكي الكبيرة نُقِرت في صورة أشباح مخيفة.

وشعوب المحيط الهادئ في جزائره العدة ثلاثة: أهل ميلانيزيا، وهم سود أفرقةيون بهم مميزات الزنوج في كل شيء، ويمتدون شرقاً إلى فيجي ونيوكالدونيا، وهم أقدم نزلاء جزائر المحيط الهادئ، ثم أهل بولينيزيا، وهم قوقازيون وفروا حديثاً من الهند على الراوح، واخترقوا ميلانيزيا وانتشروا بعيداً في المحيط واختلطوا بغيرهم، لكنهم لا يزالون يحتفظون ب特اليزات الجنس الأبيض – ومنهم الماوري – ثم أهل ميكرونيزيا، تلك الجزر الصغيرة المرجانية شمال خط الاستواء، ولا يزال أصلهم مجهولاً، لكنهم أميل إلى المغول. ولعل الماوري أهل زيلندا القدماء أكثرهم استعداداً للرقي، ومن عاداتهم مضاع جذور نبات السرخس Ferns، وذلك بسبب سرعة انحلال أضراسهم وتأكلها، وكان هذا يبيدو في الجماجم المعروضة بالمتحف، وهناك بعض آثار أبورجنيز أستراليا، وقليل من بابل والروم ومصر «جثثان وأوانٍ وخرز»، ويلي ذلك في الأهمية قسم الطيور والحيوانات المنقطة، عُرِضَت وسط بيئتها الطبيعية، وأعجبها طير زيلندة العجيب الكيوي Kiwi، ولعله أغرب طيور العالم؛ فليس له أجنحة قط ولا ذنَب، وخياشيمه على حافة منقاره

الطويل النحيل، وريشه يبدو كالشعر تماماً، والبيض لا يتناسب مع الحيوان؛ فالطائر لا يزيد على الدجاجة الرومية المتوسطة بينما تجد بيضه يحيى بيض النعام حجماً، وهو جبان نفور لا يبدو إلا ليلاً، وكاد أن ينقرض تكريباً.



شكل ٣: مشاهد الطبيعة رائعة في زيلندة.

وئمَّ قسم جيولوجي لا يأس به، وأخر نباتي، وقد استرعى نظري به كتل الصمغ الكبيرة، وزِئنة القطعة منها ٧٦ رطلاً، ويُستَمدُّ من جذور شجر الكوري Kauri، وبعض كتله صفراء رائعة جميلة كأنها الكهرمان تماماً، وقد تُرى بعض الحشرات داخله، وتُصنَّع منه العقود.

متاحف فاخر كلفهم ربع مليون جنيه، ويقع على أعلى ربوة تُشرف على المدينة، ويُوضع في الدور العلوي منه قبر الجندي المجهول وحوله أسماء ٦٣٠٠ جندي ماتوا من مقاطعة أوكленد في الحرب العظمى، وقد رأيت المكتبة التي أهدتها جورج جراي لها، وبها ١٤ ألف مجلد.

قمنا بعد الظهر نطوف بالمدينة وضواحيها في عربات السياحة Sightseeing cars، فاخترقنا أهم أحياء البلدة وأروعها شارع Queen الفسيح كثير الحركة، ثم أخذنا نعلو إلى الربي المجاورة، وعلى مدرجاتها تقوم المساكن الصغيرة الجميلة، ويندر أن نرى

في المدينة كلها بيتاً يعلو أكثر من طبقتين، وجُلُّ البيوت من الخشب، ويندر أن تُبنى بالحجارة أو الآجر؛ وتلك لكتة غابات الكوري حولهم ولتانة خشبيه.

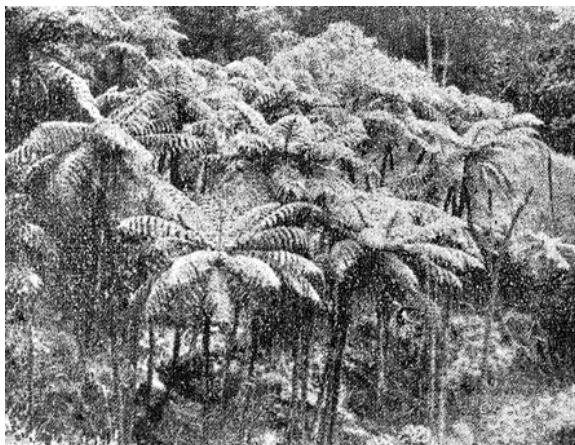
وقد زرنا ساحة سباق الخيل في متسع هائل نُسقَ تنسيقاً يفوق الوصف، ومساحته ٥٨٠ فدان وهبها أحد الأثرياء، ويُعدُّ أجمل ساحة للسباق في نصف الكرة الجنوبي، ويتهافت القوم على المقامرة في تلك الحفلات الأسبوعية بشكل يسترعى النظر، وسباق الخيل أحب الملاهي وأكبر طرق المقامرة عندهم.

لبثنا نسير وسط تلك المخاريط وكلها بقايا لبراكين خامدة، وقد تجمع منها في دائرة قطرها خمسة أميال ٦٣ مخروطاً؛ مما يدل على أن المنطقة كانت نهباً لتلك القوى الباطنية المخيفة أزماناً، لكنك تعجب إذ لا تجد في زيلندا إلا بركاناً واحداً ثائراً اليوم هو Ngauruhoe وسط الجزيرة الشمالية، وعُلوه ٧٥١٠ قدم؛ لذلك كانت جميع الأراضي من تربة سوداء بركانية غاية في الخصب، حتى إننا لم نك نرى شبراً لا تعلوه الخضراء، وحتى شقوق أسفلت الطريق كان ينمو بها العشب كثيفاً.

أخيراً وصلنا طرف البلدة الشمالي، وعنه تقاد تتصل مياه البحرين الشرقي، وهو المحيط الهادئ، والغربي، وهو بحر طسمان، ولا تundo مسافة الفصل بينهما ميلاً ونصف، وفي تلك البقعة الضيقه المنعرجه أقيمت أوكلند، لكن خير مراسيها في الشرق؛ لذلك اضطررت الباخر من أستراليا أن تطوف بشمال الجزيرة مدة يوم كامل حتى تصلها، ومن ثمَّ فكروا في حفر قناة تصل الشرق بالغرب، وتُقرب زيلندا يوماً كاملاً من أستراليا، ويُطلقون على أوكلند Gateway of N. Zealand، وكنا نُبصِّر بالأطفال والصبية والفتيات في غدواتهم من المدارس وسط الأمطار الهاطلة وهم يلبسون المعاطف من الجلد البراق، والطراطير، وأحذية الكوتش طولية العنق في شكل جذاب مضحك، وكثير من الأطفال يسيرون حُفاة، وفي ثياب رثة بعض الشيء، مما لم نلاحظه في أستراليا قط.

عدنا الساعة الخامسة بعد ذاك الطواف الطويل، لكن الجو كان مكفهراً عبوساً ماطراً، والبرد قارساً، ورغم ذلك استمتعنا بمناظر تلك الربى تكسوها الخُضراء، وتناثرها البيوت الخشبية حمراء السقوف. ولن أنسى منظر الميناء بدت من فوق الربى في جمال فاتن، وتنسيقه بديع، وهي التي حدت بالحاكم Hobson سنة ١٨٤٠ أن يتخيرها مكاناً لعاصمة جديدة لزيلندا، إلى ذلك فإنها أسهل اتصالاً بالداخل، وأكثر أشجاراً، وأخصب تربة، أسسها منذ ٩٦ سنة، وأسمتها على اسم الملكة فكتوريا؛ لذلك يُطلق عليها اسم

.The Queen city



شكل ٤: نبات السرخس الكثيف ينمو في جميع أنحاء زيلندة الجديدة.

وأظرف ما يُذَكَّر أن تلك المساحة البالغة ثلاثة آلاف فدان شراها من الماوري بالثمن الآتي: خمسين جنيهاً من النقود، وخمسين بطانية، وعشرين بنطلوناً، وعشرين قميصاً، وعشرة أصدار، وعشر قبعات، وأربعة صناديق من الطباق، وصندوق من الغلايين pipes، ومائة ياردة من القماش، وعشر أواني حديدية، وكيس من السكر، وأخر من الدقيق، وعشرين بلطة.

وقد وُقِّقَ الرجل في اختياره، وأقبل القوم عليه، فأضحت أكثر البلاد تجارة وسكاناً «٢٢٣ ألفاً» ومقاطعة أوكленد من أغنى جهات الدنيا بمنتجات الألبان والمراعي، وقد ساعدها جوها المعتدل عن جو ولنجتون فأضحت العاصمة التجارية للبلاد.

(٣) إلى ولنجتون

قمت بقطار المساء إلى الجنوب صوب ولنجتون في أقصى جنوب الجزيرة الشمالية، وظل القطار يسير بنا زهاء خمس عشرة ساعة ساعة ٥٠٠ ميل، أي فوق ما بين مصر والأقصر، وسط أراضٍ مموجة تكسوها خضراء قصيرة، وتُسَوَّرُ بالأسلاك الشائكة قطعاً كبيرة هي المزارع Sheep farms التي تُرَبَّى عليها المراعي، وكانت تُطلق فيها ألف الخراف في

صوفها الأبيض الكثيف، ووجهها الذي يبدو مغضناً في طيات دائيرية بعضها خارج بعض، وساحتها جميلة جدًا، وقليل من الأرض يُخصص للأبقار.

وبين آن وأخر كنا نمر بغاية من شجر الكوري والصنوبر، ولما أن قاربنا ولنجتون زاد تعقيد الجبال، وكثرت المساليل المائية والمساقط العالية، وبعض الجداول كان يتلوى ليات ثعبانية متعاقبة، والقرى كانت تقوم بيوطها في بطون تلك الوديان، لكن عددها قليل وببيوتها نادرة، ثم أوغلنا في مجموعة من أنفاق لا حصر لها، وأخيراً وصلنا العاصمة وسط جو مكفر قمطري، وسيل للمطر لا ينقطع، واضطراب الريح شديد، وبرد قارس زمهرير. والبلدة معروفة بتقلب مناخها، وكثرة أنواعها دائمًا، وبخاصة في هذا الفصل فصل الشتاء؛ إذ تَسُودُ رياح جنوبية قارسة البرد، وتزجي السحاب، فيجعل الجو رطبًا لا يطاق، وقد ظل كذلكاليومين اللذين أقمتهما بها، فلم أستطع التجوال إلا راكبًا.

حللت نُزل Barrats من الفنادق الفاخرة، ثم جاءت سيارة السياحة وطافت بنا البلد وضواحيه، فكان القسم التجاري والحكومي في المنخفضات المجانبة للبحر، وجُلّها أرض طمرواها على حساب البحر، وأقاموا عليها أكبر المباني من الأسمنت والحجارة، على أن عددها محدود وارتفاعها لا يعلو كثيرًا. وقانون زيلندة لا يُبيح العلو أكثر من ١٠٢ قدم — مع أن نيويورك قد علت ببيوتها ١٠٢ دور.



شكل ٥: ولنجتون عاصمة نيوزيلندا.

ومن المباني الفاخرة دار البريد والبرلان والبلدية Town Hall، وبعض البنوك والشوارع لا تتبع نظامًا خاصًا، بل تتعرج وتحكي أخواتها في أستراليا وأوكلندا.

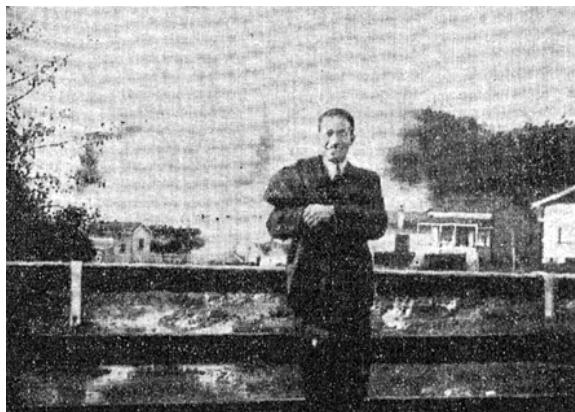
أما أحياه السُّكُنَى، فالرُّبِّيَ المعقدة التي يعلو بعضها فوق ٦٥٠ قدم، وتقوم عليها البيوت الخشبية البديعة في قيلات من دور واحد، وكانت الصخور تبدو بركانية في الغالب، ومشقة وملتوية لشدة تعرُّض تلك البلاد لفعل الزلزال، فلا يكاد يمر أسبوع دون أن يحدث زلزال يضطرب له القوم، وذلك من الأسباب التي دعت إلى إقامة المساكن من الخشب؛ فإنه أكثر مقاومة لهزاتها.

أما منظر الميناء وخليانها العديدة من فوق تلك الرُّبِّيَ، ومن جوانب الطرق الشعبانية المخيفة التي تتلوى على جوانبها صعوًدا وهبوطاً، فذلك ما يعجز القلم عن وصفه. وأنت ترى متسعات الملاعب والسباق فسيحة في تلك المنخفضات، وتلك الميناء اختيرت عاصمة البلاد سنة ١٨٦٥ بفضل اتساع مساحة مياهها العميقية التي تقدّر بعشرين ألف فدان، وبفضل موقعها المتوسط بين الجزيتين.

ولقد نمت أهميتها حتى شملت تجارتها ثلث تجارة البلاد، وبلغ سكانها ١٥٠ ألفاً، على أن جوها العَكِر ووعورة جبالها شجع أوكلند أن تفوقها أهمية، وكان بدء تأسيس المدينة في سنة ١٨٣٩، حين شرّت مكانها شركة نيوزيلندا، ثم حملت اسم دوق ولنجتون الذي شجع بكتاباته كشف أستراليا وتعميرها، وسيقيمون له مهرجاناً ذهبياً لمرور مائة عام سنة ١٩٤٠.

ومن جهاتها القيمة: المكتبة التي أهدتها لها تاجر وطني سنة ١٩١٨ اسمه Alex Turnbull، بها ستون ألف مجلد من أفجر الكتب، ومنها ٢٢ ألف مجلد على جهات الباسفيك وحدها، وكذلك المتحف، وهو شبيه أخيه في أوكلند، ومجموعة الماوري به قيمة جدًا، وحديقة النبات تحوي مجموعة قيمة من نبات زيلندة، وكذلك حديقة الحيوان، على أنها صغيرتان بالنسبة لحدائق أستراليا. وقد استرعى نظري اهتمام البلدية بالبلد وأهله اهتماماً فاق كل حد، فهي تبذل مجهودات جبارة في إصلاح الأراضي، وإقامة المباني والمتزهات العامة والتمويلين. وقد أتعجبني منظر عربات اللبن تُصْفُ فتكاد تسد الشارع على جانبيه؛ انتظاراً أمام الملبن الذي يعمق اللبن ويعبه في زجاجات مغلقة، ويُوزَع على البيوت كل يوم. ويبلغ مقداره يومياً ٦٠٠٠ غالون.

أما شطوط الاستحمام فنادرة جدًا؛ لأن الساحل صخري عنيف الموج، إلا في جهات رملها أسود قذر منفر، وفي نهاية تلك التواتئ الصخرية وقفنا نُطل إلى الجنوب لنرى قبساً من جبال كايكورو المغطاة بالثلوج في الجزيرة؛ لأن مسافة ما بين الجزيتين هنا بوغاز كوك لا تزيد على ثلاثة عشر ميلاً، على أن جماله لم يبد؛ لأن الجو كان أغرب منفراً.



شكل ٦: تكاد بلدة واكا تخفيها الأبخرة الصاعدة من جوف الأرض.

ويُخيّل إلى أن ولنجتون تفوق أوكلند جمالاً بمينائها بورت نكلسون ذات الرعوس والمداخل الجذابة، وإن كان بعض الناس يفضل أوكلند عليها. قمت أودع ولنجتون الجميلة، وإن لم يكن استقبالها لنا كريماً؛ لأن ريحها الصرير ومطرها الغزير لازمنا طوال اليومين من ساعة وصول القطار الأول إلى قطار الرحيل. قام بنا القطار شمالاً بشرق، وسكة الحديد هنا تديرها الدولة، ومقاييسها أضيق من المقاس العادي، وبها درجتان: الأولى والثانية، وهذه مطية الجميع، والعربات مريحة جداً، مقاعدها معددة لاثنين؛ واحد إلى اليمين، وواحد إلى اليسار، وبينهما طرق، وهي مغطاة بالجلد المجزع الأحمر الفاخر، وتتم الدافئ تحت القدمين، والقاطرة من نوع ضخم جداً قوي ليستطيع الصعود فوق تلك الربي العاتية.

وللدولة ٣٢٠٠ ميل، وهي أرخص سكك الدنيا وأكثرها أمناً؛ فقد بلغ المسافرون في الثماني سنوات الأخيرة ١٨٠ مليوناً لم تحدث خلالها حادثة واحدة. أخذنا نشق طريقنا وسط تلك الجبال المعقدة تكسوها الغابات وغالبها من الصنوبر، وتجري من دونها خوانق ووديان ملتوية خلابة يذوي فيها الماء ويضطرب. ومن تلك الجبال ما يكسوها الثلج، لكن ذلك قليل جداً، وكانت تقوم القرى البدية في جهاتها المنخفضة، وكلما تقدمنا قلت الجبال، وانفسحت شبه سهول مموجة تكسوها خضرة لا يكاد يستقيم لها

عود، وقد يكسوها عشب قصير ذهبي، وتنثرها بقع تسدها الغابات، وتلك الأرضي كلها مقسمة إلى مزارع تحوطها شباك السلك، والغنم الأبيض يعيش بعشبها، ويُجهز عليه في شهية لا تخطو.

ولقد كانت الشياح أحياناً ترى مع صغارها تفرض العشب على جوانب من تلك المزارع زلقة منحدرة، بحيث يخيل إليك أنها لن تستقر في مكانها، وتتعجب إذ ترى كل تلك الأغنام عديمة الأذناب؛ وذلك لأنهم يبترونها منذ الصغر؛ لكيلا ينصرف مجدهداً عن اللحم إلى الدسم والسمن الذي يُؤكَّد في الذَّبَّ بدون جدو.

ولم تقع عيني على واحدة غير بيضاء أو تشوبها بقعة، ولا تزال حال الفلاح هناك قاسية بسبب هبوط أثمان اللحوم والأصواف، وفي بعض تلك المزارع كانت تُطلق الماشية والخيول. وفي مواسم الجز Shearing يطوف الجزارون بالآتمهم وينزعون الصوف عن الأغنام، ثم يُرسَل إلى المفارز لعزله إلى أنواعه الجيدة وغيرها، ثم يُعدُّ للتصدير، وموسم الجز يبدأ حوالي ديسمبر من كل عام. ومهنة الجز يقوم بها الماوي غالباً، فيحملون الآتم الصغيرة ويطوفون بالمزارع، وفي غالب المحطات كان نرى مسالك من خشب تمُّر فيها الأغنام فتُحرَّز، ثم يُشْحن صوفها في عربات سكة الحديد المجانية لها.

أخذت تلك المتسعات تزيد امتداداً كلما قاربنا بلدة Napier، وقليل منها يُزرع فاكهة وخضراء؛ إذ جلُّها للمرعى، ومتوسط ثمن الفدان منها جنيه، ويزيد بالطبع كلما قارب المدن، أخيراً بعد ثمانى ساعات دخلنا المدينة، وقد تحسَّن الجو كثيراً بمجرد مغادرتنا لولنجتون، على أن السحاب لم ينقشع تماماً. والبلدة صغيرة وواسعة منطقة غنية جداً بمراعيها ومنتجاتها من الألبان واللحوم، وقد استرعى نظري نظافة المدينة وحداثة مبانيها الخشبية البراقة الملونة، لكنني علمت أن زلزال سنة ١٩٣١ قد دكَّها تماماً، وقد أكلت النيران جُلَّ مبانيها، لذلك جُددت في مجموعها.

وقد رأينا دار البلدية City hall القديم مهشماً محترقاً؛ ترك دليلاً على قسوة الطبيعة في تلك الجهات. ولقد نسقوا شارع البحر بالحدائق والأنوار اللليلية الوفيرة في إسراف جميل. قامت بنا السيارة تسير في عقد من جبال لا آخر لها جلُّها تُقسَّم بأسوار السلك إلى مزارع للغنم غنية بعشبها؛ ولذلك جاد اللحم في زيلندة جداً؛ فهي من أول بلاد العالم في الـ Mutton، لكن الصوف قد قلت قيمته، وفسدت فتلتها؛ لأن أغنام المرينو

يجب أن تمرح في مساحة أفسح وعشب شحيح؛ لِتُجْهَد جسمها بالسير طويلاً؛ فـي هـزـلـ اللـحـمـ، وـيـزـكـوـ الصـوـفـ.



شكل ٧: عند مدخل قرية الماوري واكاريواريوا.

ومتوسط المساحة المطلوبة للشاة فدان من الأرض المتوسطة الجودة، هذا إن أردنا لحمها، ومن تلك المزارع ما تبلغ مساحته ٢٥ ألف فدان، لكن الحكومة تشجع اليوم توزيع الأراضي إلى مساحات أصغر، ولم تكن تلك المساحات تخلو من الشجر الكثير، وبعض جهات الجبال كان كثيف الغاب، وفي النمو العشبي أسفل الشجر، خصوصاً فسائل السرخس *Fern*.

وكم مررنا بوديان ذات خوانق متلوية وفييرة الماء عنيفة التيار! وكان منظر الوديان من دوننا ساحراً، وبخاصة من أعلى بقعة اسمها *Turanga Kumū* على ارتفاع ٢٨٠٠ قدم، ثم أخذنا نهبط، وتناولنا الشاي في لوكاندة صغيرة اسمها *Taupo* هي أكبر بحيرات زيلندا الجديدة، وطالما أبصرنا بقطعان من الخيول البرية تمرح في تلك السهول. أخيراً في منتصف الثانية مساء دخلنا *wairaiiki* من المحطات البدية، وتناولنا الغداء، ثم طفنا بوادي فواراتها العجيب بعد أن مررنا بعدة نافورات صغيرة يتتساع بخارها ويغلي ماؤها. ولما أن انكشف ذاك الوادي أبصرنا به نهرًا كثير الخوانق والشلالات، متحجر الجوانب، وكل مياهه تغلي حرارة، وتتنفجر من مصادرها على الجوانب وفي القاع



شكل ٨: في قرية الماورى أمام دار الضيافة، وإلى جانبي كيري القائد.

في كثرة مخيفة، وتمتد تلك المنطقة ميلين أو يزيد. والعجيب أنه يُغص بالنبات الجميل رغم تلك الحرارة المتقدة.

سرنا صوب رتوروا أَعْجُوبَة تلك المنطقة، فأوغلنا في أراضٍ مُجْدِبة بركانية صخرها من النوع المثقب الذي يسمونه Pumice، ولا يصلح للزراعة ولا للمراعي قط، ولذلك رأت الدولة استغلاله في غابات الصنوبر، فزرعت مساحات شاسعة من صغار الشجر، ولا تزال دائمة على ذلك العمل، وتتصبح تلك الأشجار صالحة لقطع الخشب منها بعد ٣٥ سنة. وفي الرابعة بعد الظهر مررنا بقرية واكاريواريوا ثم دخلنا.



شكل ٩: فواراة البخار كاريبيتي في وايراكى.

(٤) رتوروا

التي بدت مدينة كبيرة منسقة أَيْمَا تنسيق، وجُلُّ أهلها يرتزقون من السائحين، وبها عدد كبير من الفنادق الفاخرة، وبيؤمها الزائرون للاستشفاء بمياهها المعدينة أولاً، ولمشاهدة عجائب القوى الباطنة حولها ثانياً، فما كدت أصل تُرُزُل Waiwera البديع حتى أُلقيت بحقائب وأسرعت لأرى عجائب ذاك البلد، فقصدت قرية الماوري الصغيرة التي تقع على شاطئ بحيرة رتوروا، وتسمى Ohinim utu، فهالني ما رأيت: بيوت خشبية أنيقة يقطنها الماوري تقوم وسط نيران يتصاعد بخارها من كل ناحية، ففي الطرق وفي حدائق

البيوت وإلى جوار شاطئ البحيرة يتتصاعد بخار يسد الأفق، وتسمع له أزيزاً أو دويّاً كأنه يخرج خلال مصفاة من الصخر، وهنا وهناك ترى فتحات يغلي فيها الماء، وتسمع دوي فقاقيعه.

وأَعْجَبُ كيف يستطيع هؤلاء الناس، وبخاصة الأطفال، السير وسط تلك الأخطار، وكثير منهم يغترف الماء الحار ليحمله إلى البيت للطبخ أو الغسيل، وبعضهم يستحم في تلك البرك. وعلى ربوة فوق تلك القرية نَبْعٌ يُسَمُّونَه fairy spring ماوه لذيد بارد رائق الُّزْرَقَة، يكثر به سمك ملون Trout يلعب في كثرة مدهشة، وبياح للناس صيده، ومن الأطفال من كان يصيد السمكة ثم يسارع فيغمراها في النبع الفوار فَتُسْلَقُ ويأكلها على الفور.

ولقد دخلت كنيسة الماورى هناك، فإذا بنقوشها فاخرة كلها في عمد من الخشب نُقِرَتْ في أشباح مخيفة، وزُيِّنَتْ بالصدف كعادتهم، ومنظر تلك البلدة ليلاً يثير الرعب؛ لأن البخار يظهر فيوضوح، ويُسَدِّدُ آفاق البلدة – فالشمس تُخَفَّفُ منوضوحه نهاراً. ولقد خُلِّلَ إِلَيْيَّ أنها بلدة تلتهمها النيران، والناس يأوون إلى منازلهم الصغيرة الخشبية تسمع حديثهم ولا تقاد ترى مقرهم من كثرة الأخيرة، وبعضهم كان ينام في «الفراندة» الخارجية ولا يحس البرد على قسوته؛ لأن الأبخرة تحوطه من كل جوانبه.

عُدتْ أزور بعض الحمامات، وهي هناك كثيرة، وأكبرها تديرها الحكومة، فما كدت أقرب أكبرها حتى كان البخار يتتصاعد إلى عنان السماء، وإذا بالنبع في دائرة قطرها زهاء أربعة أمتار يصعد ماوه البخار في مدحنة ضخمة ويسمونه نبع Rachell، ومنه تأخذ الأنابيب الماء القلوى إلى مقر الاستحمام، وهو حوض هائل مكشف إلى السماء أَحِيطَ بالمقاعد والفراندات، واختلط به المستحبون والمستحبات، ويتصاعد بخاره دائماً وكأنه نبع آخر، ودرجة الماء ٢١٢° ف، أي درجة الغليان تماماً، وهو يضاء بالنور الأزرق البنفسجي ليلاً، فيبدو المنظر رائعًا، خصوصاً إذا نظرته من وسط المتنزهات الفاخرة التي تزين المكان إلى مساحات بعيدة، وأنت تشم رائحة الكبريت تعقب الجو في جميع أرجاء البلدة، وقريبة شبه برائحة حمامات حلوان تماماً.



شكل ١٠: فوارات زيلندة الجديدة.

(٥) واكاريواريوا

قمت مبكراً صباح الجمعة، وأقلتني سيارة إلى قرية واكاريواريوا Whakarewarewa على بُعد ميلين من رتوروا، وما كدت أصلها حتى أبصرت مجموعة من المساكن الخشبية الأنيقة لا تكاد تبدو من كثرة الأبخرة المتتصاعدة إلى عنان السماء من كل فج، وحولها سور وطيء من شرائح خشبية، ولها بوابة من قوائم خشبية حمراء نُقرَت في أشباح مخيفة كعادة الماوري.

نزلت بالباب فتقدم إلى جمع من سيدات الماوري وفتياتهم يتمايلن في دلال ويُقْلُن: أتريد مرشدًا يا سيد Guide Sir؟ قلت: نعم، فقدَمْت إلى إداهن بطاقة اسمها وعليها:

Kiri تقدوني إلى مفاوز تلك القرية العجيبة: هنا مجموعة من فوارات حارة تذبذب بالماء الحار في درجة الغليان إلى عنان الجو، وهناك فتحات يتتصاعد منها بخار كثيف وهو يزمر في صوت مرعب، وفي مكان آخر عيون من الطين الأبيض، وأخرى من الوحل الأسود يغلي في فوقيع كبيرة، والأرض تحت قدمي أينما سرت تهتز وتتنفس عمّا في جوفها في أصوات فاترة، وبخار خفيق.

وعند بعض تلك العيون ذات المياه الغالية المضطربة رأيت جمّاً من الفتيات يغسلن الثياب وهن يتحادثن ويتسامرن، ويكاد البخار يحجبهن عن الأنظار، وفي مكان آخر أحاطوا بعض الفتحات بألواح خشبية، وعلقوا فيها سلاسل البطاطس أو قدور الشاي، وفي فترة وجيرة يُعدُّ للأكل أو الشرب، وخلال كل أولئك كنت أرى البيوت الخشبية منثورة، والأطفال يمرحون هنا وهناك في غير وجلٍ، وبعضهم كان غاطساً يلعب ويستحم في إحدى تلك البرك الصغيرة، ويمرون بالبلدة نهير صغير تجد ماءه بارداً هنا، وبعد أمتار يبدو ساخناً لكتراً ما تُلقى فيه العيون الجانبية، ثم يعود بارداً، وهكذا.

ومن العجيب أنهم يصيدون السمك من فرع منه إلى اليمين، ثم يغمر الطفل السمسكة في الشعبة اليسرى الحارة فتتشوّى ويأكلها على الفور، وأكبر تلك الفوارات يسمونه Pohutu، وقد علمت أنه خمد منذ ثلاثة أسابيع، وعندما يثور يعرفونه بعلامات جانبية من المياه المتفجرة، فتدفع الأجراس، أو ينادي المنادي إذاناً بفورته ليسارع الكل إليه، ويشاهدوا انفجاره الذي قد يصل ۱۸۰ قدماً في الجو، وإلى جواره في شقوق الصخر تضع الطيور البرية بيضها؛ لأنه آدفأ لها، وأسهل لتفريخها.

استرعي نظري بين البيوت بناء خشبي مستطيل كبير أمامه «فراندة»، وكله من خرط الخشب في الأشباح المخيفة، فقلت: وما هذا؟ قالت: دار ضيافة البلدة، وإلى جواره واحد أصغر منه مرفوع على قوائم خشبية إلى السماء هو مستودع الغذاء الذي سيُقدم إلى الضيوف، وفي ذاك البيت الكبير تُعقد مجتمعاتهم وأفراحهم و«محاذنه» ومراقصهم، وعندئذ يشاطر أهل القرى الأخرى فياؤون إلى تلك الدار.

وكان كثير من السيدات في «فراندات» بيوتهن دائمات على شغل النسج والجدل من ألياف الكتان لُوِّنت بالأسود والأحمر في أحزمة حول الجبهة، وحول الخصر، وداليات من عيدان الكتان كُسّرَت أجزاء منها في فتل رفيعة، وتُركَت أخرى كأنها قصب الغاب الرفيع، وتلك تُلبَس من الخصر وتتدلى على الثوب أو على الجسد العاري، فتروح وتغدو



شكل ١١: ومن النافورات ما يقذف بالأوحال المستعرة.

وتعطي صوتاً يسترعى الأنظار، ويلبسه النساء والرجال. ووجوه القوم سمراء عريضة التقاطيع جميلتها، والشعور غزيرة هادلة سوداء براقّة يُرسلها السيدات إلى ما دون الكتفين، والأجسام أميل إلى الغلظة والسمنة، وبخاصة النساء، وفيهن جاذبية كبيرة، وحفة روح؛ إذ لا تكاد تفارق البسمات ثغورهن أبداً.

والكل أميل إلى الاجتماع يسارع إليك بالحديث والسؤال عنك وعمما حولك في رقة زائدة، ويعيشون عيشة مرحة سعيدة لا يحملون همماً، وسواء أكثر رزقهم أم شح فهم سعداء في كلتا الحالتين، ولا يعيشون بالدنيا أبداً، ولذلك لم يعرفوا قيمة النقود، ومنهم بعض الأثرياء الذين يمتلكون مئات الآلاف من الجنierات، لكنهم يبددون منها بمقادير غير معقولة، وبعضهم بدد ماله كله ولا يزال يشعر بالسعادة، ولا يبدي من الهم شيئاً، وحتى فقاراؤهم وحفاتهم الذين كانوا نراهم في ثياب خلقة كانوا يتقدمون إلى في رقة ويتطوعون للإرشاد، ولا يبدو عليهم الحاف في طلب شيء من الهبات قط؛ فإن قدمت إليهم شيئاً تسلموه شاكرين، وإن لم يك من ذلك شيء انصرفوا باسمين غير ممتعضين. ومنطقهم عذب سائع موسيقي، وجميع الحروف تبدو ممطوظة ناعمة تشبه اللغة الطليانية، وكل حرف في الكلمة لا بد أن يُنْطَق في وضوح، وفي غير إدغام. وكنا نرى جل أسماء البلاد والجبال تحتفظ بأصولها الماوري، وتحاول الدولة الاحتفاظ بتلك الأسماء ما استطاعت. والمماوري فصيح ذلق اللسان خطيب بالفطرة، وهم يباهون بأدب لغتهم، ويفاخرون بعضهم ببلاغتهم في القول.

ُعدت من تلك القرية السحرية التي يعيش أهلها وسط أتون متقد مضطرب صباح مساءً وهم ناعمون راغدون، وقد اخترقت قنطرة على جانب من النهر الذي يجري فيه الماء الساخن، وكان الأطفال يَثْبُون من أعلى القنطرة إلى ذاك الماء ليلتقطوا الدربيهات التي يلقيها السائحون فيه. والماوري هؤلاء يختلطون بالبيض في إخاء ومساواة كاملة، مدارسهم واحدة، وحقوقهم متعادلة، ولهم أعضاؤهم في البرلمان، على أن الدولة تميل إلى منعهم من المصاورة مع البيض حتى لا يتفرض الماوري باندماجه في الجنس الأبيض وافر العدد، فمجموع سكان البلاد ١٥٥١٧٨٧ منهم ٧٣٧١٥ من الماوري.

وأيمانجو

قامت بنا السيارة إلى رحلة Waimangu؛ فسِرْنا في أرض بركانية تعلو وتهبط ويندر نبتها، ثم دخلنا في مجموعة مخاريط بركانية أعلاها Tarawera بِلَوْنِه الأسود المغبر، ثم أشرفنا على هوة تركنا عندها السيارات وأخذنا نسير على الأقدام فوق أرض مرتجفة خلال خوانق عميقة كلها تصعد أبخراً ومياهاً تغلي، ثم وقفنا بِهُوَّةً مستديرة مشرفة الصخور تملؤها المياه الزرقاء الصافية في حرارة مضطربة، وإلى يمينها أخرى أصغر منها وأعلى مستوى، وبها ماء درجته ساخنة لكنها دون الأولى حرارة، ثم هوينا إلى خانق يجري وسطه ماء يتلوى يستمد من فوارات الضفاف التي لا تخبو أبداً.

وأخيراً أشرفنا على بحيرة فسيحة ماؤها صافٍ، وركبنا الزورق البخاري، وما كدنا نخرج من الخجان الجانبية حتى بدت شواطئها في مداخل مستمرة إلى مد البحر، ويسمونها بحيرة Rotomahana أي المستعرة، ثم تسلقنا الرُّبُّي مشياً إلى بحيرة أعلى منها، وأعظم مساحة، وهي بحيرة Tarawera التي انفجر من حولها البركان في آخر ثوراته سنة ١٨٨٦ فَغَيَّرَ معالم المكان؛ إذ أباد بلاً وبحيرات، وملأ أخرى بـالمياه المُسْمَدة من فواراته، وقد أرونا بقايا القريتين اللتين طمرهما بالطين الحار وأهلك أهلها من الماوري، وقد كان هناك بعض مساكن للجنس الأبيض وبعض الفنادق الكبيرة فأتأتى عليها جميعاً.

اخترقنا جانباً من تلك البحيرة في زورق آخر، ثم ركبنا سيارة هناك مَرَّت بنا في غابات من الصنوبر الذي زرعته الدولة للمستقبل، ثم بدت أمامنا بحيرتان: الخضراء إلى اليسار، والزرقاء إلى اليمين، والمكان مُحاط كله بمخاريط البراكين التي لا تُحصى، ولا تكاد تغيب عن العين الأ الخبرة المتصاعدة.

جولة في ربوع أستراليا



شكل ١٢: يغسلن في مياه الفوارات الطبيعية.



شكل ١٣: الطبخ والتتسخين على حرارة الأرض في نيوزيلندا.

وأخيرًا ظهرت بحيرة رتوروا نفسها وعلى جوانبها مدينة رترووا وقرى الماوري التي زرناها من قبل: منطقة ساحرة أحاطت بمجموعة من روائع الطبيعة من بحيرات وجبال وغابات ووديان وأخداد، وزوّدت بتلك الفوارات والمياه المعدنية الحارة في شكل لم أعهد له

من قبل، اللهم إلّا في أيسلندة بشكل أصغر منه هنا، وهي تلي في ذلك فوارات يلوستون بارك في جبال الرُّكي من غرب الولايات المتحدة.

فيلوستون بارك، ورتوروا، وأيسلندة قد احتكرت منابع الفوارات في العالم تقريبياً، ويسمونها Gysers، وهي باللغة الأيسلنديّة تدل على النبع الفوار. تعجب إذ ترى الناس يعيشون مطمئنين إلى تلك المخاطر المُحْدِقة بهم، فإذا خاطبتهم في ذلك قالوا: ذلك خير وأجدى؛ لأن كثرة تلك الأُبخرة المتتسعة عندنا من بواطن الأرض هي خير ضمين بعدم حدوث انفجارات عنيفة، أو زلزال مدمرة، فكأنها صمام الأمان Safety Valve لبلاد نيوزيلند كلها.



شكل ١٤: تنتظر الغادة ريثما تشوّي سلة البطاطس في حرارة الفوارات.

حل المساء ودخلت غرفة الطعام، وإذا بُمُظاهرة ترحيب بي من ركن من أركانها، ولما أن ألهيت جمّعاً من السيدات الأميركيّات الالاتي كن معى على ظهر الباخرة نياجرا حبيتهم، وأخذنا نقُصُ ما راقنا من تلك الجهات، فقلن: هلا جئت معنا لتحضر Maori Concert؟ قلت: نعم، فذهبنا لحضور ذاك الحفل، فأخذ فتيات الماوري بجمالهن الساحر، وأرديتهم الجذابة، وإلى جوارهن الفتياين يعرضن علينا طرفاً من غنائمهن ورقسمهم Pois، فكانت الأنغام مشجية، وجلها محزنة من نغمة الصبا، وقربية شبه بأنغام هواي.

وكان الجميع يغنوون سوياً، ومنهم الصوت الرفيع والغلظ في انسجام بديع، ثم عرضوا رقصات مختلفة؛ فرقصة الزوارق وهن جلوس وراء بعضهن وأرجلهن ممدودة، وأذرعهن تلمس الأكتاف، ويحركن الأذرع والأرجل، **فيُحَيِّلُ إِلَيْكَ أَنْهَنْ جَمْعَ الْبَحَارِ** يجذفون ويرتلون. وتلك أحب الرقصات إليهم؛ لأنهم شهروا بقدرتهم على بناء الزوارق النحيلة وركوبها في عرض المحيط الهادئ المدید، ثم رقصة الفرح، ويقفن صفوأً متباude، وكل صف يبدي حركات تغاير الآخر بالأيدي والأرجل، وصفٌ واقف والتالي له راكع أو جالس.

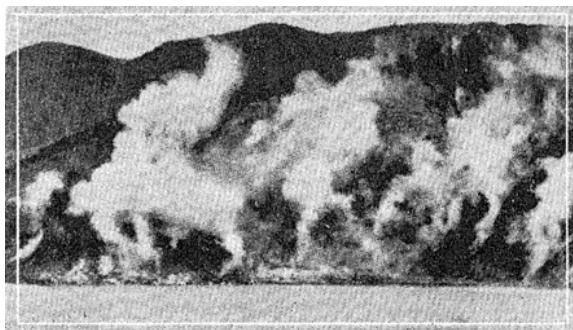
ولعل أغرب الكل ما يسمونه Haka، وفي ذلك تنتهي الرقصة أو الأغنية بتکشير السّحن، ولّي الجباء، وتعويج الخدو، وفتح الأبواق، وإخراج الألسن في شكل بشع، ويشفع ذلك بصيحة مزعجة، ويحاول كل رجل وسيدة أن يُظْهِرْ حركات غير التي يظهرها الثاني، إلى ذلك الرفس بالأرجل، وتلك يُقَصَّدُ بها تخويف العدو أو التهكم عليه، أو إدخال السرور على الإخوان، كل نوع بحسب المناسبة التي تتطلبها، وتلك من أقسى الدروس التي يُدَرِّبُ عليها أطفالهم، ولا يُحْتَرِمُ الواحد منهم إلا إذا أتقنها، مع أنها تبدو في ظني مظهراً وحشياً منفراً، وقد تُعرَفُ هذه برقصة الحرب أحياناً.

وكنت أرى الأطفال يتمرنون عليها في العابهم الخاصة وسط الطرق، وكلما تحدثت إلى أحدهم بدرني قائلاً: هل رأيت الهاكا Haka؟ كأنها أهم شيء في نظرهم، وثم رقص ديني، وكانت ديانتهم خليطاً من الخرافات وعبادة الجن، والوثوق في السحرة من القساوسة، ويشهد أن الماوي عبد الطبيعة إلى حد كبير؛ لأنك تراه يتخد من مظاهرها أسماء له ولذويه، ويميل إلى دفن جثته عند موته في مكان ناء منعزل وسط غابة، أو على برkan، أو فوق ذروة جبل، وعندئذ يُصبح المكان مقدساً يحرم أن يقتل الإنسان حول القبر طائراً أو حيواناً، وإن فعل عرض نفسه للقتل. وكنت أرى تلك القبور الفردية قائمة وسط الشجر في طريقنا، وهم في ذلك يشبّهون اليابانيين.

والماوري يُعدُّ من أكثر الشعوب الفطرية عقلًا ورزانةً، واحتراماً للنظام والقانون، واستعدادهم للرقي عظيم، وذوقهم الفني تلمسه أينما سرت في ملابسهم وشعورهم، وتنسيق بيوبتهم، وبخاصة صناعة نقر الخشب وترصيعه، وموسيقاهم مشجية. ومن فنونهم التي كانت شائعة: النقش على الوجوه في رسوم مختلفة، ولا يزال يُرى أثر ذلك في المسنين منهم، وبخاصة النساء، فكنت أراهن وقد خضبن ذقننهن بالوشم الأزرق في أشكال عدة، لكن تلك العادة آخذة في الزوال اليوم، إذ قلماً كنت أشاهدها في الجيل الناشئ.

وايتومو وملجأ اليراع

ثم عرجت على بُعدٍ مائة ميل إلى غرب رتوروا؛ لأزور مغاراتها ذاتعة الصيت، فدخلت مجموعةً من مغارات تفوق تلك التي حدثتك عنها في الجبال الزرقاء قرب سدني بأستراليا، لكنَّ أعموجية الجميع ملجمع ملجمع اليراع Glow worm Grotto، دخلناها وبعد أن قطعنا مفاوز ملتوية أشرفنا على بحيرة فوقها أقبية طبيعية، وهنارأينا عجباً:رأينا سماء تتلألأ بثريات تدها بالمالين، وهي تُبهر النظر بضوئها، وتحتها ماء البركة يعكس أضواؤها في مشهد عجيب.



شكل ١٥: شاطئ البحيرة الملتهبة روتوماهاتا في زيلندة.

ويتدلى من الأقبية خيوط رفيعة في طول بين الشبر والشبرين، وتلك مادة تفرزها اليراعة من فمها، وتتدلى بها هكذا لِقْنِص فريستها من البعوض والذباب والحشرات الصغيرة التي إذا ما رأت ضوء اليراع طارت إليه، ومتى لمست الخيوط التصقت بها فلا تستطيع الإفلات، وعندئذ تلتهم اليراعة الخيط أولاً حتى تقرب الفريسة منها فتمتصها، ثم تأكل ما بقي منها، وتلك الخيوط تبدو محببة بيضاء. واليراعة في ضعف حجم الذبابة العادمة، وهي لا تسمع ولا ترى، لكنها تحس تمواجات الأثير بسرعة عجيبة، وعندئذ تخفي ضوؤها لكيلا يراها أحد؛ لذلك نبهنا الدليل أن نسير على مهل، وألا نتكلم قط ولا نسعل أو نبدي صوتاً أو حركة عنيفة ونحن نركب زورقاً تحت تلك السماء المتلائمة.

و تلك اليراعة تمر على أطوار أربع: البيض، والدودة الصغيرة ثم الكبيرة – وهذا أكبر نشاطها وأقوى ضوئها – ثم طور الفراش. و تلك المغاربة هي الوحيدة من نوعها في العالم، و يعودونها إحدى عجائب الدنيا، فكيف سلك اليراع سبيله إليها؟ وكيف آوت طائفة من الحشرات في مأهوا الآسن؟ ذلك ما لا يعلمه إلا علام الغيوب.

(٦) الماوري

قمت أبراً رتربوا عائداً إلى أوكلاند مُؤَدِّغاً طوائف الماوري أول من عمر بلاد نيوزيلندا، فقد وفدو إليها جماعات متفرقة بدأت أولًا سنة ١١٥٠، وأكبر مجموعة منهم وصلت سنة ١٣٥٠، ويدركونهم باسم Tohungas أو القساوسة، ويفاخرون بالانتساب إليهم، وكلُّ منهم إلى اليوم يعرف الزورق الذي جاء عليه جده فيقول لك الواحد: أنا وفدت على Tokomaru، والأخر يقول: لا، بل على Aotea أو Tainui أو Arawa. ويخالونهم وفدو من تاهيتي المجاورة ويسموونها Ha wauki، ويقول مؤرخوهم: إن أول كاشف لنيوزيلندا الملاح Kupe من جزيرة Raiatea إحدى جزر سوسيتي، ورفيقه Mgake سنة ٩٢٥، وعادا يُقْصَان عن تلك الأرض الغنية غير المسكونة، وقد أسموها Ao-tea-roa أي الأرض المشمسة.

وقد مضى قرنان ونصف بعد ذلك ولم يذهب أحد منهم إليها، لكن زيلندة قد دخلها قوم من أخلاق الميلانيزيين والبولنزيين، وهؤلاء قد استعبدتهم الماوري، ولا تزال منهم بقية في جزائر شاتام، ويقول العالم الأنثropolوجيست الماوري Ti Rangi Hirowa: إن سبب هجرتهم الضغط عليهم بالحروب في جزائرهم الأولى وتکاثر عددهم في تلك المساحات الضيقة، ولا يُعرف منشؤهم بالبيتين؛ ففيهم الدم المغولي، وبعض أسماء أماكنهم، وكذلك هم قريبو شبه بالزنوج في ضخامة أنوفهم وشفاههم، ولكن المظهر الغالب الأبيض القوقازي، فهل كان أصلهم من هنود أمريكا وفدو إلى الجزائر، أو من مصر جاءوا عن طريق الهند واليابان؟

ذلك أمر لا يزال يفتقر إلى إثبات، ولقد حار العلماء في ذلك حتى أسموا الماوري لغز المحيط الهادئ Riddle of the Pacific، ولقد ظلوا أصحاب البلاد حتى جاء الجنس الأبيض، وأول من رأهم طسمان سنة ١٦٤٢، ثم تلاه كابتن كوك سنة ١٧٦٩، ولما بدأ وفود الأوروبيين خشي الماوري أن يُغلَّبُوا في بلادهم، فشنوا الحروب عليهم، خصوصاً



شكل ١٦ : رقصة ماورية.

وأن طبقة المهاجرين الأوائل لم تكن من خيرة الناس **حُلّاً**، بل من المنفيين وال مجرمين، فأساءوا إلى الماوري، واستبوا نسائهم.

ولقد دوخت تلك الحروب الأوروبيين وأدھشتهم بمهارة استعدادها، وخفة حركاتها، على أن عدداً لا يأس به ظل مواليًّا للإنجليز، وذلك هو الذي قَصَرْ أَمْدَ الحروب، وتخصصهم الدولة الآن بـ زهاء ستة ملايين من الأفدنـة هي **وَقْفٌ** عليهم وعلى ذويهم.

ولما رأهم كوك لم يكونوا يعرفون زراعة الحبوب، ولا صناعة الخزف والمعادن والجلود، ولم يمارسوا الرعاية، وجهلوا الكتابة والقراءة، لكنهم استطاعوا أن يعيشوا بين الهمج **مُسَوِّدين** ممتازين بفضل جدهم وذكائهم، ولقد كانوا موضع الاحترام، ومثار الفرع، بذثابيـتهم القاسـية، ووجوهـهم المنقوـشـة، وحروبـهم الشـعـواـء، وشجاعـتهم النـادـرة،



شكل ١٧: رقصة الپوي أحبها لديهم.

خصوصاً في الملاحة وجوب البحار، على أن ميلهم للمعاشرة، وف्रط أدبهم وحبهم للاستطلاع، واستعدادهم للتعليم والتجارة، ساعد على سرعة احتلالهم بالأجانب.

وكانت معيشتهم في نظام «كميوني» شيعي يسوده زعماء أشداء، ويدعمه سياج من تقاليد أسموها تابو Tapu. وكانت تقوم دياناتهم على عبادة الأصنام المتنوعة، وكان قساوستهم الملقبون Tohunga هم أطباؤهم ورواتهم، ولم يزد عددهم على ١٥٠ ألفاً، وقد نزل اليوم إلى ٨٠ ألفاً بسبب الحروب وفتكت الأمراض الصدرية بهم، ورداة الحال الصحية بينهم، ولاستخدام الطباق والخمور والملابس الأوروبيّة.

لكن ظهر منهم علماء خدموا جنسهم، وعنوا بثقافةبني جلدتهم، وبدأت دمائهم تختلط بالبيض، وأكثراهم ينزل حول منابع المياه الحارة لأنهم استخدموها في شئونهم، ولا يزالون يحافظون بالكثير من عاداتهم، من بينها: التحية بمسح الأنوف ووضع اليد في اليد، أما التقبيل فيحتقرونه ويمجّونه – وزهاء نصف سكان العالم كذلك: المغول والملايو والبولينيزيين – إلى ذلك ليس المعاطف من أهداب الكتان، والتزيين بالريش، وسماع الموسيقى، وممارسة الرقص، وهم ميالون إلى الرياضة، ورغم أنهم مهروا في

كرة القدم والجولف؛ فإنهم يحتفظون بألعابهم، وبخاصة السباحة، وقنصل الطيور، والمسابقة بالزوارق.



شكل ١٨: رقصة البحر عند الماوري.

أقلني القطار عائدًا إلى أوكلاند، وقد كثرت في الطريق مزارع الأغنام، وتعددت البلاد الصغيرة التي يشتغل أهلها بتصديرها هي ومنتجاتها، وكنا نرى كثيراً من مصانع الجبن والزيذ واللحوم، ويقولون: إن مقدار الفيتامين الذي بها يفوق نظائرها في البلاد الأخرى بفضل وفرة الشمس وجودة العشب. وقد استرعى نظري في الطريق أشجار يسمونها *Cabbage tree* كالنخيل الرفيع ينتهي بفروع على كل «شوشه» مسنته «كاللاتانيا»، وكذلك فاكهة مستديرة الشكل *Passion fruit* بغشاء قرنفل مُسْوَد سميك كالجلد، إذا

كسرته ظهرت به مادة كالطماطم شكلاً وطعمًا، وهم يحبونها جميعاً رغم أنني أفيتها منفحة المذاق جدًا.

وفي صباح السبت ٢٥ يوليو غادرت زيلندة الجديدة، تلك البلاد التي أحببتها الحب كله، فهي قارة أو عالم مصغر حوى بدائع الطبيعة جميعها من جبال وثلوج وغابات ووديان وبراكين وفوارات وسهول ومروج، كل ذلك تراه في الجزيرة الشمالية، ولقد فوّتنني قصر الزمن زيارة الجزيرة الجنوبية بمشاهد رائعة جبالها وثلاجاتها، وبخاصة حول قمة Cook وفيوردات شاطئها الجنوبي الغربي البري الذي لا يقطنه أحد، وسهول كانتربري الهائلة مقر مزارع الغلال؛ ففي تلك الجزائر مجال لكل زائر مهما اختلف نزعته، وحتى الحيوان الذي كان نادر الوجود بها أصحي اليوم وفيراً.

وتَعَجَّبْ إذ تعلم أنه عندما كشف كوك الجزيرة لم يكن بها أي حيوان من ذوات الأربع، وأقدم ما تراه اليوم هناك الحلوف، ولقد كان مع كوك في سفينته قليل منه يوم وصل البلاد، فأطلقها هناك فسارت في الأرض ونما عددها اليوم؛ لذلك لا تزال البلاد عديمة الوحش والأفاعي. وأهل البلاد بلغوا من المدنية والتحذيب حداً كبيراً يفوق كثيراً من بلاد أوروبا ولما يزد عمرهم هنا على مائة سنة؛ إذ أول استعمار منظم للبلاد بدأ سنة ١٨٤٠، ونحو ٧٥٪ من السكان اليوم ولدوا في زيلندة، و٢٠٪ في إنجلترا، أعني أن زهاء ٩٤٪ من السكان من أصل إنجليزي، و٥٪ من الماوي، وفوق نصف الناس من سكان المدن؛ لذلك قلّ عدد القرى التي كنا نصادفها في سفرنا هناك.

والدولة تشرف على الكثير من موارد الإنتاج، ولذلك كانوا موظفوها زهاء خمس مجموع السكان، وهم يؤثرون التوظيف في الحكومة؛ لأنها تدفع لهم أجوراً عالية. وليس للدولة دين خاص، وجو البلاد معتدل جميماً، وهو صحي إلى أكبر حد، فنسبة الوفيات عموماً ٨,٤٨ في الألف «أستراليا ٩,٢١، وإنجلترا ١٣,٧، وأمريكا ١٤,٥»، وبين الأطفال دون سن السنة ٣٢,١١ في الألف، وهي أصغر نسبة في الدنيا جميماً، وكذلك متوسط العمر فهو ٦٥ سنة للرجال و٦٨ للنساء، وتلك أعلى نسبة في الدنيا.

والسكان مرحون اجتماعيون مؤدون كرام يسارعون بالموافقة، ولا عجب فتلك صفات أكسبتهم إليها ركوب البحر، فهم ملاحون بفطرتهم، ومن كان يدير السفن لا بد أن يسرح المسافرين بظرفه وأدبه، والزيلندي أكثر سكان الأرض ركوبًا للبحر وقطعًا للمسافات البحرية الشاسعة. وأساس موارد البلاد مزارع الرعاية وما تنتج من ألبان ولحوم وأصوات، تلك التي يجزونها باليد والآلات. وقد بلغ من مهارتهم أن الرجل ينزلع

الصوف كله من الشاة قطعة واحدة فيبدو كأنه الفرو. ولا بد أن تُغمَر الخراف قبل الجز في سائل مُعَقّم.



شكل ١٩: تلك الرقصة قريبة شبه برقص الريف عندنا.

ويناهز عدد الأغنام بها أربعين مليوناً — لا يجاوز المرينيو المليون؛ لأن اللحم هو الأساس وليس الصوف كأستراليا — والماشية $\frac{1}{4}$ ملايين، أي أن كل فرد من السكان له بقرة حلوة، وتسعة عشر رأساً من الغنم، وال القوم أغنىاء لأن مجموع ثروة الأفراد قدّر بنحو ٦٤٥ مليون جنيه، أي ٤٣٥ جنيهاً لكل فرد. وتوزيع الثروة متوازن لا تكاد تحس فوارق الطبقات قط، ومستوى المعيشة مرتفع جداً، وحاجياتهم متعددة حتى بين أفقري الناس.

ويُعَدُّ الزيلندي من كبار أكلة اللحوم؛ فمتوسط استهلاك الفرد يقرب من رطل من اللحم يومياً، ونصف رطل من السكر، وبسبعة أرطال من الشاي في العام، فإذا استبعدت الأطفال والمرضى كان استهلاك الفرد الحقيقي أكبر من ذلك بكثير، وبعد الشاي في الشرب الجعة والويسكي، ويكان يشرب الشاي مع الأكلات جميعاً، ولا يحبه إلا قوياً أحمر اللون قاتماً. أما الألعاب وانهماكه في مختلف أنواعها، فذلك أمر يسترعى النظر؛ فهو لا يقل عن الأسترالي في ذلك، وأنت ترى حوانين بيع مهمات اللعب في كل شارع، وفوق نصف أوراق الجرائد نشر عن الألعاب المختلفة، وبيع تذاكر السباق والكرة والجولف وما إليها، يُعرض ويروج له بإعلانات كبيرة تعلق في كل مكان، وقد حضرت يوم لعب فريق منتخب زيلندا مع فريق إنجلترا، فهالني ما رأيته من تهافت على شراء التذاكر وزحام مدهش داخل الملعب وخارجـه.



شكل ٢٠: الرقص ضروب شتى عند الماوري.

قمت أودع تلك البلاد التي حباها الله في نطاقها الضيق الذي لا يزيد على مساحة إنجلترا إلا القليل بجميع محسناتها: جو بديع مشمس لا تبلغ حرارته في الصيف

حد المضايقة، ولا تنزل في الشتاء إلى ما دون ما تشهي النفس، وأرض وفيرة الخيرات من خصب في التربة، وملاءمة للحبوب والفاكهه والرعایة والغابات، إلى معادن في كنوز لا تزال ذخراً للمستقبل، وروائع للطبيعة لا تجتمع في مثل هذا الحيز من بلاد الأرض الأخرى، وأناس هم للظرف عنوان، وللأدب والكرم مورد، وحتى الماوري من الإنسان الفطري كان أجمل همج العالم خلقة، وأدنهم من الرقي ذوقاً، وأكثرهم ظرفاً وأدباً. ومن العجيب أنها آخر البلاد التي كشفها الجنس الأبيض، رغم أنها أنسبها لسكناه، وذلك لشديد بعدها عن العالم، فهي في معزل عن سائر القارات وحتى عن أستراليا نفسها، فهي تبعد عنها بنحو ١٢٠٠ ميل، وعلى الرغم من أن ذلك قد وقف في سبيل رقيها الاقتصادي والتجاري، فإنه أفادها من حيث مجموعة سكانها؛ لأن بعد الشقة قد نجاها من الفقراء والجهلة، ومن أقل الناس إقداماً وجرأة وكفاءة، فالمهاجرون إليها جاءوا عن طريق الحكومة البريطانية، أو من الأثرياء المقدرين على جوب تلك البحار الشاسعة؛ لذلك نشا بها شعب ذكي نشيط، انتشر على قلته في مساحتها التي تعادل مساحة إيطاليا، وتزيد قليلاً على مساحة الجزائر البريطانية نفسها.

أمريكا الشمالية

(١) عبر المحيط الهادئ إلى أمريكا

ركبت الباخرة الأمريكية Matson لشركة Monterey، وهي من أجمل بواخر هذا الخط وأكبرها، وكان في وداعي على البحر بعض الأصدقاء الذين تعرفت بهم في رحلاتي هناك، وقد أحضروا إلى بطاقة الزهور، وعندما آذنت الباخرة بالرحيل نزلوا إلى الرصيف، وأخذوا يقذفونني بكرات من أشرطة الورق الملون، أمسك بطرفٍ وهو بالطرف الآخر؛ لتظل صلة المودة متصلة بيننا إلى أبعد حد، وكلما تتحت الباخرة عن المرسى أطلوا الشريط. وكان جمهور المودعين الكثيف يسد الجو بتلك الأشرطة.

وأخيراً بدأت جوانب الميناء تتضاءل وتتقارب وينحصر جمالها حتى كنا في عرض البحر بعد ساعة من الزمن، ثم ظلت جبال زيلندة وجزائرها الصغيرة تبدو طوال النهار، وكان جل المسافرين من الأمريكيان والأستراليين والزيلنديين، وكلهم متقاربون في الخلق، وكان المحيط الهادئ رفيقاً بنا وديعاً، فلم يحرك من غضب موجه شيئاً مع أنّا كنا نقرأ أن زوابعه المجانية لشواطئ اليابان، وتسمى تيفون، تحتاج تلك البلاد وتدمر من قراها وتتلف من أرواحها الكثير، وظل على هدوئه هذا ثلاثة أيام إلا قليلاً حتى أقبلنا على جزائر فيجي.

جزائر فيجي

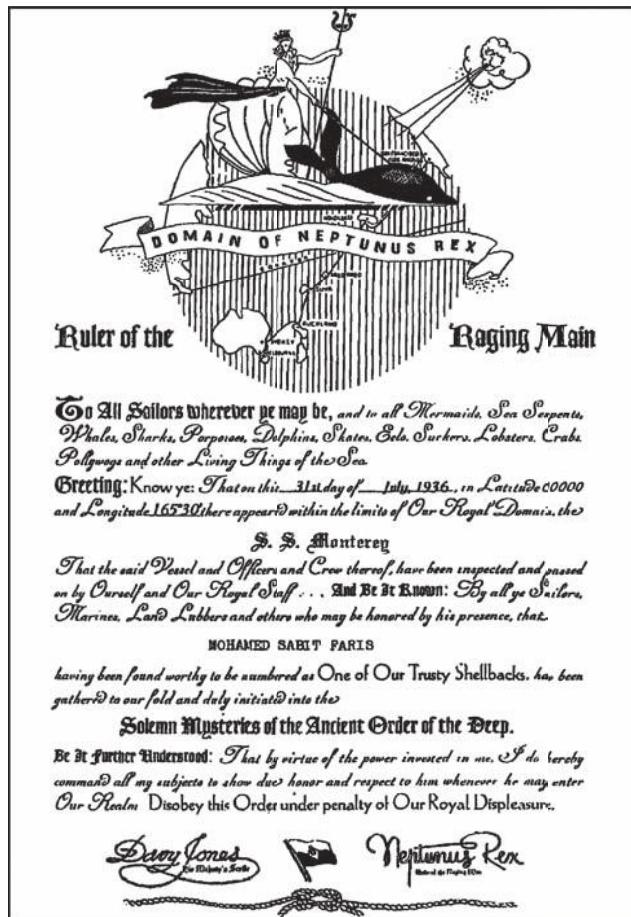
فانفسح أمامنا خليج مستطيل تَحْفُه جوانب جبلية تكسوها الخضراء الكثيفة، ويزين مدخله عقد من زبد البحر ورغاويه يبدو أبيض، ويقاد لا يترك من المدخل إلا شطراً ضيقاً، وذلك حاجز مرجاني Coral reef، كما نرى بعض نوافذ شعابه بارزة فوق الماء، وعليه تتكسر الموجات فترغى وتعطي ذاك اللون الأبيض الجميل.

رسينا على رصيف الميناء وكان الجو أغير ماطراً، لكنه ما لبث ينكشف، وما مضى الظهر حتى بدت الشمس ناصعة بين بقع السحاب المنثور. أخذنا سيارة طافت بنا زهاء ساعتين بين وهاد ونجد تسدّها الخضراء سداً، وهنا وهناك تبدو الأكواخ الخشبية في الأحياء الراقية، وأصحاب من الحشاش للأحياء الفقيرة، والناس جلهم من الفيجيين ذوي الوجوه المفلطحة العريضة، والأجسام المفتولة الطويلة، فهم من العاملة نساء ورجالاً.

وأعجب ما يسترعى النظر فيهم شعرهم؛ فهم جميعاً يتربكونه ينمو رأسياً في حالة قد تزيد على الشبر طولاً للنساء والرجال معاً، والشعر أجدع خشن أسود، وقليل منه مصفر، وهم يسيرون حفاة الأقدام عراة الرءوس دائماً، أما الملابس فتحكى لفائق الهنود أسفل الجسد في ألوان مزركشة، واللون الأحمر غالب عليها، وقد يُترك أعلى الجسد عارياً، وهم على جانب كبيرة من الرقة والوداعة، ينظرون إليك ويبتسمون، ثم يسارعون بالحديث والتودد إليك، ولا يهمهم من أمر الدنيا شيء، فهم قانعون أبداً ويشعرون بسعادة الحياة كاملة، أما سحنهم فمنفرة في الغالب، وإن كانت أجسادهم جميلة أميل إلى السمن.

ويختلط بهم الهنود في كثرة عجيبة في المدينة والقرى جميعاً، ويقومون بغالب الأعمال التجارية، وشتان بين أجسادهم الناحلة الضئيلة وجسوم الفيجيين كاملة النمو. زرنا بعض مدارسهم — وللفتيان مدارس معزولة عن مدارس البنات — وكان عدد المدرسة أربعين طالب منهم من يفوق العشرين عاماً في السن. وهي مدرسة ابتدائية تديرها جماعة المبشرين، ولا يقادون يتلقاون من المصارييف إلا النادر، ولا تزيد على خمسة شلنات في العام، وهم يضعون في كل حجرة طائفيين من الطلبة: قسم للهنود، وقسم للفيجيين. ويتعلمون الإنجليزية ثم لغتهم الخاصة. ولغة الفيجيين لم تكن تُكتب، لكنهم يكتبنها اليوم بحروف إنجليزية.

وبعض الفرق كانت تتدرب على فلاحه البساطين، وكانتوا يزرعون التابيو كاشتلا، وأخرى كانت في درس أشغال يدوية يصقلون قشور الترجيل وينقوشونها ليصنعوا منها



شكل ١: «نبتيون» إله البحار يشهد لنا باجتياز خط الاستواء، ويتهدد من يمسنا بسوء، وقد أسبغ علينا هذه الدبلوم المذيلة بإمضائه الكريم.

كتوس الشرب، وقد بدأ الفيجيون يحقدون على الهندود الذين كادوا يحتكرن كل شيء؛ فعددهم في الجزائر كلها زهاء ٧٥ ألفاً، مع أن عدد الفيجيين ٩٢ ألفاً، أما سكان مدينة سوغا فهم ١٤ ألفاً، وهي العاصمة، وتقع في الجزرية الرئيسية Viti Levu.

جزائر عديدة تفوق ٢٥٠ جزيرة، لكن المسكون منها زهاء ٨٠، ويخترقها خط طول ١٨٠°، فبعضها يقع غربه والبعض شرقه، والذي يسير من الغرب — كما نسير نحن في رحلتنا — يربحون يوماً، فلقد كان يومنا أمس الثلاثاء ٢٨ يوليوز، فأصبحنااليوم الثلاثاء الثاني أيضاً ٢٨ يوليوز، وكنا نعتقد أنه الأربعاء فَقِيلَ لنا: لا، بل الأربعاء غداً، أما إذا كنا وافدين من الشرق من أمريكا سائرين إلى الغرب، فإذا كان أمس الثلاثاء فالاليوم الخميس إذا اجترنا الخط ومررنا بالنصف الغربي بالجزائر، وبذلك نخسر يوماً يضيع علينا فلا نذكره، ولقد قابلنا ركاب بآخرى في سوقاً، وكان المسافرون معتقدين أنه يوم الأحد فأصبحوا هنا الثلاثاء، وبذلك «نطوا» الاثنين.



شكل ٢: رقصة الهاكا في مظهرها البشع.

وأنني لأعجب لسرعة تغير الجو، فقد أصبح الحر لا يُطاق هنا والشمس مُحرقة، والسير مُجهداً، مع أنه منذ ثلاثة أيام كانت تصطك أسناننا من أثر البرد القارس يوم برحنا زيلندة! وماذا عسى أن يكون الحر في الأيام القليلة الآتية ونحن مقبلون على خط الاستواء — وجزائر فيجي تقع على ١٦° جنوباً تقريباً — والشمس عمودية الآن على عروض الشمال ١٢°ش، والفيجيون شعب من الميلانيزيين الذين يتّمدون إلى الجنس النجمي، والجزائر مستمرة بريطانية منذ ١٨٧٤.

أخذنا نطوف سيراً على الأقدام بعد أن تركنا السيارة، ونسير من ربوة لأخرى وسط أراضٍ وفييرة الخصب، متعددة الشجر والشجر، وكنا ننصر بوفرة الأناناس والمانجو

والباباز والتاتبيوكا والتارو *taro*، وهو جذر شجيرة كالموز متنفسخ من أسفله — كالقلقاس — يُعِدُون منه مادة نشوية مغذية. أما النرجيل فَحَدَثْ عن كثترته، فأنت ترى شَجَرَة في كل مكان، خصوصاً إزاء الشاطئ، وعنه ترى الشجر منحنياً إلى الماء دائمًا رغم علوه الشاهق، وتلك من طرق النشر الطبيعي؛ لأن الثمر الكثيف إذا نضج سقط بعضه على الماء فحملته الأمواج بعيداً إلى الجزر الأخرى، فنما شجراً جديداً، وانتشر بذلك هذا النوع.

وكنا نرى القوم دائبين على أكله وشرب مائه اللذيد، وهم يجهزون دهنـه ويبـيعونـه ليدهـنـوا به جسـومـهم مقـاومـة للـحرـ، وتقـويـة للـشـعـرـ، وتجـميـلاً للـبـشـرـةـ كما يـقولـونـ، ولـذـلـكـ كانت رائحةـ الجـزـائـرـ كلـهاـ أـيـنـماـ سـرـتـ والنـاسـ جـمـيـعاًـ تـشـعـ هذاـ الدـسـمـ الذـيـ قدـ يـكـونـ زـنـخـاـ كـرـيـهـاـ. ومنـ الشـجـرـ الذـيـ أـلـفـتـ نـظـريـ بـجـمـالـهـ وـرـونـقـهـ شـجـرـ السـائـحـ *Travellers Tree* فيـ مـروـحةـ هـائـلـةـ، وـتـمـتدـ أـضـلاـعـهـ فـيـ أـعـلـىـ السـاقـ بـأـنـظـامـ هـندـسـيـ بـدـيـعـ، وـورـقـهـ يـحـكيـ وـرـقـ المـوزـ تـقـرـيـباـ.

سلـكـناـ سـيـلـنـاـ إـلـىـ الـبـاخـرـةـ، وهـنـاكـ فـيـ مـجاـوـرـةـ رـصـيفـ المـيـنـاءـ عـرـضـ الفـيـجيـونـ تـجـارـتـهـمـ مـنـ الأـصـدـافـ وـشـعـابـ الـمـرـجـانـ الـمـلـوـنـ بـدـيـعـةـ الـأـشـكـالـ إـلـىـ عـقـودـ الـمـرـجـانـ، إـلـىـ أـسـلـاحـ الـقـوـمـ مـنـ سـهـامـ وـقـسـيـ وـمـطـارـقـ وـزـوـارـقـ خـشـبـيـةـ صـغـيرـةـ، وأـعـجـبـهاـ الـمـزـدـوـجـ، فـتـرـىـ زـورـقـينـ بـيـنـهـمـ شـبـكـةـ عـرـيـضـةـ مـنـ شـرـائـحـ الـخـشـبـ الـمـزـرـكـشـ لـيـقـامـ عـلـيـهـاـ مـسـكـنـ فـوـقـ الـمـاءـ، وأـخـذـ كـلـ يـحـاـلـ اـجـتـذـابـ أـنـظـارـنـاـ إـلـىـ سـلـعـهـ فـيـ رـقـةـ، وـفـيـ غـيرـ ذـاكـ إـلـاحـافـ الـمـقـيـتـ الذـيـ نـلـاحـظـهـ فـيـ بـائـعـيـ الـهـنـدـ وـبـورـسـعـيدـ مـثـلـاـ.

وـفـيـ الـخـامـسـةـ مـسـاءـ آذـنـتـ الـبـاخـرـةـ بـالـرـحـيلـ وـعـزـفـتـ مـوـسـيـقاـهـاـ كـمـاـ هـيـ الـعادـةـ كـلـمـاـ أـقـبـلـنـاـ عـلـىـ مـكـانـ جـدـيدـ أوـ اـنـصـرـفـنـاـ عـنـهـ، فـأـخـذـتـ جـوـانـبـ الـمـيـنـاءـ تـتـقـارـبـ وـيـنـحـصـرـ جـمـالـهـ بـخـضـرـتـهـ النـاصـعـةـ وـبـبـوـتـهـ الـحـمـرـاءـ نـثـرـتـ عـلـىـ الـمـنـحـدـرـاتـ، وـجـمـاهـيرـ الـنـاسـ يـوـدـعـونـنـاـ بـهـزـ أـيـدـيـهـمـ وـمـنـادـيـلـهـمـ. وـالـفـيـجيـونـ يـشـهـوـنـ الـمـاـوـرـيـ فـيـ رـقـتـهـمـ وـأـجـسـامـهـمـ وـخـفـةـ روـحـهـمـ وـمـرـحـهـمـ الـدـائـمـ، لـكـ شـتـانـ بـيـنـ جـمـالـ الـمـاـوـرـيـ وـبـيـنـ وـجـوهـ هـؤـلـاءـ الـتـيـ يـنـدرـ أـنـ تـرـىـ بـهـاـ مـسـحةـ مـنـ جـمـالـ.

جزائر ساموا

برحنا الجزائر نشق المحيط الهادى في طريقنا إلى الشمال الشرقي، وبعد يومين كاملين أقبلنا على جزائر ساموا الأمريكية التي تُعد من أكبر القواعد البحرية في المحيط الهادى، فبدت الجزائر تكسوها الخضراء وتعلو جبالها علواً كبيراً. دخلنا خليجاً مستطيلًا منتظم الجوانب، وفي نهاية المرسى مدينة Pago Pago عاصمة الجزائر وينطقونها «پانجو پانجو»، وكان ذلك صباح الأربعاء ٢٩ يوليوز.



شكل ٣: هايريرا أو نظرة الوداع.

نزلنا إلى البر وركبنا سيارة مرت بنا مسافة بعيدة على حافة الماء فوق صخور جُلُّها بركانى عتيد، ومن ورائها الجبال الشاهقة كانت تعلو فوقنا علواً رأسياً شاهقاً، وكلها تُكسى بكثيف الغاب ونخيل النرجيل، ويقاد الشاطئ كله يُحَفُّ بسلسلة متصلة من هذا النخيل، وكنا نرى المباني الخشبية المنسقة تكتظ متقاربة عند المرسى، وهي للإدارات الحكومية والبنوك ومحال التجارة ومساكن البيض، ثم تبع ذلك أكواخ منثورة قد تكون فردية منعزلة للسكان الوطنيين، وفي نهاية المسافة انفسح الجبل وترك بسيطاً من الرمال أقيمت عليه القرية الرئيسية هناك، واسمها Nuuuli.

هنا استقبلنا الأهالي بوجوههم السمححة وسحنهم الجميلة نساء ورجالاً وأطفالاً، ودعونا إلى ساحة الرقص، فدخلناها وجلسنا، وإذا بثلاثة صفوف من فتيات لبسن حول

الخصر حزاماً عريضاً له ذؤابات تتدلى إلى القدمين، وتركت النصف الأعلى عارياً بلونه الأسمر الخمرى الجذاب، وأجسادهن الممتلئة صحة ونشاطاً، ووجوههن الجذابة، وأخذ قائدhen ينقر على صفيحة بعصاhe نقرات منتظمة وهن يرقصن وقوفاً وقعوداً، ويغنين ثم يختمن الأغنية والرقصة بضربة من الأقدام وصيحة عالية، وكان الرجل يعلن عن اسم كل رقصة، وتطفو علينا الفتيات بجوز الهند الطازج وقد شطفن ناحية لشرب ماءه اللذيد. وتلك تحية لقدمنا.



شكل ٤: ها إيريمياي أو نظرة الترحيب.

خرجنا نطوف البلدة، وإذا بها مجموعة أكواخ من قوائم خشبية يغطي ما بينها القش والعشب، وقد يكون البيت مستطيلاً متحدراً السقف أو دائرياً مخروطي الغطاء، وفي وسط البلدة دار فسيحة لعقد الاجتماعات، وللقرية أربعة رؤساء «زعماء»، وهم الذين يتكلمون ويخطبون في المجتمعات مدافعين عن «صوالح» ذويهم، وكنا نرى أطلال بيوت مهشمة قيل لنا: إن إعصار الهركين مرّ بها فاجتاحت منها الكثير. وقد استرعى نظرنا جمال السّحن وجاذبية اللون الخمرى خفيف السمرة، وهم قريبو شبه بالماوري في زيلندة الجديدة، ولكنهم بعيدون البعـد كله عن أهل فيجي

الزنج، وكثير منهم خصوصاً النساء يرسلون شعورهم السوداء البرّاقة الهادلة التي تزيدهم رونقاً وجمالاً، وليس بالجزيرة عدد كبير، بل هم قليلون، وهم من الجنس البولندي، ويبدو لنا من أشكالهم أثر الجنس الصيني واضحًا، وكم كان سرورهم بوفودنا كبيراً، فهم يشعرون بالأنس الكبير كلما وفدت عليهم باخرة، وكانوا يتطلعون جماعات لإرشادنا ولا يتبعون من وراء ذلك نفعاً، وكثير منهم كان يعرض علينا صداقته وعنوانه لنكتابه نساءً ورجالاً، وبعضهم كان يقدم عقود المرجان وبعض أشغال الخشب المنقوش هديةً لنا، ويرفض أن يتقاضى ثمنها.

وقد عرض الكثير منهم سلعهم علينا وجلّها من منقوش الخشب الملون في أسلحة وزوارق وعصيٌّ، ثم أشغال القش من سلال ملونة، ثم أرديةهن خصوصاً الحزام الذي تتدلى منه تلك الأهداب الطويلة، وقد نقشوا عليه اسم بلدتهم، ومن أجمل ما عرضوا قطع الأقمشة الملونة التي دقّوها وصقلوها من قشور الشجر bark cloth، تبدو كالورق أو القماش المُنسَّى، وهو متين جداً.



شكل ٥: ملابس أهل زيلندة بسيطة جذابة.

ومن أبدع المناظر عقود الزهور الضخمة الملونة الطويلة يلبسونها جمِيعاً رجالاً ونساءً، وكلما ذبل واحد أعضوه بغيره، وهم يُفْتَنُون في تنسيقه فيبدو رائعاً، ولا تكاد ترى واحداً يمشي بدون ذاك العقد يتدلّى على صدره، وقد ألبسونا تلك العقود لماً أن دخلنا دارهم. ولقد عزفت فرقة الموسيقى وغنِي معها جمع من الفتىَان على شاطئ البحر تجاه السفينة وداعاً لنا عند قيامنا. وعند الساعة الواحدة بعد الظهر ركبنا الزورق الصغير، فأقلَّنا إلى السفينة التي ترسو على بُعد من الشاطئ، وقامت بنا تتحنى عن ذاك الخليج البديع، ثم لبَّتنا نمر بمجمِيع من جزائر صغيرة يجملها ذاك التبات الكثيف الذي يكسو رباهَا الشاهقة، ونخيل النرجيل الأنثيق الذي يزيين شطآنها، حتى اختفت عن الأنظار، وعدنا منعزلين وسط مياه المحيط الهادئ الساكن الرهيب، ونحن نتحدث عن جمال تلك الجزائر وجاذبية أهلها.



شكل ٦: ميناء هونولولو في حجر الجبال البركانية.

وساموا مجموعة من جزائر أهمها ثلاثة: الائتنان الغربيتان تديرهما زيلندة الجديدة مُنتَدِبةً عن عصبة الأمم، وقد كانتا لألمانيا قبل الحرب، وأهلها زهاء ٤٥ ألفاً، والثالثة الشرقية لأمريكا، وسكنها ١٢ ألفاً.

هونولولو

جنة الباسفيك وجوهرة المحيط الهادئ



شكل ٧: لا يفتر ثغر فتيات هونولولو إلا عن ابتسamas دائمة.

ثم كان يوم الاثنين ٣ أغسطس حين بدت في باكورة الصباح الُّرَبَّى البركانية لجزائر هواي، وهي سلسلة من جزائر أكبرها اثنتا عشرة من بينها ثمانٌ مأهولة بالسكان، وأكبرها الجنوبية التي تُسَمَّى هواي، والتي بدا منها قبس بركان Kilauea التأثير مقر الآلهة في زعمهم. وأخيراً أشرفنا على جزيرة Oahu كثيرة الذرى، وأهمها موناكيا ١٣٧٨٤ قدم، ومونانوا ١٣٦٧٥، وفي جانب منها دخلنا ميناء هونولولو في قوس ضيق المدخل،

وكانت تقوم في تلك المياه مُظاهرة بحرية لقطع الأسطول الأمريكي؛ إذ الجماير تُعدُّ أمنع القواعد البحرية في المحيط، وهي تُسمى بحق جبل طارق الباسفيك.

استَعْرَضَنا الطبيب ثم تقدمت الباخرة من الرصيف، وكانت شرفاته وجوانبه تغص بمجموع المستقبلين تتوضّطهم الموسيقى الرسمية التي تعزف استقبالاً لكل باخرة ووداعاً لها. وتلك عادة اتّبَعَتْ منذ عهد مليكهم كاميامها الخامس سنة ١٨٧٢. وكان برج الميناء الشاهق الأنثيق يشرف علينا تعلوه ساعة كبيرة، وتزين جوانبه الأربع الكلمة ألوها Aloha — كُتِبَتْ بالخط الكبير ومعناها مرحباً أو وداعاً — وما كادت تقف الباخرة حتى هاجم المستقبلون أحبابهم، وبيَدَ كلٌّ منهم مجموعة من عقود من الزهر مختلف الألوانه في جمال لا يُحَدُّ، وأخذوا يحلون بتلك العقود أعناق أصحابهم.

وكان باعة هذه العقود، غالبيهم من الفتيات، ينتشرون في جميع الطرق المؤدية إلى الميناء في كثرة تلتف النظر، وتسمع نداءهن في كل مكان، وزهاء مائتي نفس مهنتهم إعداد تلك العقود ويسمونها Leis في هونولولو، ولا يقل ما يُبَايع منها سنويًا عن ٦٦ ألفاً، بسعر شلن لكل واحد، أي نحو ٣٣ ألف جنية، هذا خلاف ما يُبَايع في الجماير الأخرى، ولا يقل ما يُلْبِسُ هناك عن مليون عقد في السنة، وتلك من أجمل الظواهر التي تسترعى نظرك وأنت تسير بينهم، وبعضهم — رجالاً ونساءً — يلبس عشرة عقود كبيرة في ألوان مختلفة.

استأجرنا سيارة بخمسة عشر ريالاً — وكنا خمسة أشخاص — لتطوف بنا البلد، وتسوّعب الجزيرة كلها، وأخذنا نشق شوارع البلدة وكانتنا نسير في إحدى كبريات مدن أمريكا تماماً؛ فالمباني رشيقـة، ومعروضات الحوانيت جذابة، وحركة المرور وبخاصة السيارات تسد الطرق سداً، حتى صعب علينا استخدام آلة التصوير فيها، وجماهير المارة في الطرق كثيفة متعددة الأجناس؛ فإلى جانب الوطنين ذوي الشعر الأسود المرسل، والسعن المفلطحة، واللون الأسمـر، والعيون الكبيرة، والقامات الطويلة، رأينا عدداً غالباً من اليابانيـين في أرديتهم الفضفاضة، ثم الصينيين والفلبينيين بسـحنـهم العجيبة، وقليل من الهنـود في جسومـهم النـاحـلة، ثم الكوريـين في أكمـامـهم المـنـفـخـة.

هذا إلى الأميركيـين والغربيـاء من سائر سائحي العالم، فـكأنـها بلـدة عـالـمـية تـرى أـحدثـ أـزيـاءـ بـاريـسـ تـسـيرـ جـنـبـاـ لـجـنـبـاـ إـلـىـ جـوـارـ الأـرـدـيـةـ القـومـيـةـ ذاتـ الذـؤـبـاتـ منـ العـشـبـ، وـتـشـاهـدـ مـلاـعـبـ الـجـوـلـفـ وـالـبـولـوـ إـلـىـ جـوـارـ اللـعـبـ بـالـزوـارـقـ انـزلـاقـاـ عـلـىـ حـافـةـ الـأـمـواـجـ — وتـلـكـ أـحـبـ صـنـوفـ الـلـعـبـ عـنـ الـوـطـنـيـنـ — فـهـيـ بلـدـةـ پـوـلـيـنـيـزـيـةـ تـعـيـشـ فـيـ جـوـ أمـريـكيـ بـلـغـ



شكل ٨: التحية بين ماوري زيلندة بمسح الأنوف.

من المدنية شاؤً؛ فالحياة الپولينيزية الفطرية تظلها أحدث المدنيات وأرقاها، ومجموع ذاك الخلط في جزيرة Oahu – وتعني الكلمة مكان الاجتماع – هذه ٢٠١٦١٠، وفوق نصفهم في هونولولو وحدها، واليابانيون يفوقون ثمانين ألفاً، أما سكان الجزائر كلها فنحو ٣٨٠٢١١ نفساً.

ثم مررنا ببعض المعابد اليابانية والبوذية وكثير من الكنائس، ولعل أجملها كنيسة Kawaiahao التي بُنيت من صخور المرجان وشعابه لكثرة حول تلك الجزائر، ثم وصلنا بعد ميلين إلى أجمل شطوط الجزيرة ويُسمى Waikiki beach. هنا انفسحت مدرجات الرمال النقية إلى مد البصر، وأقيمت الفيلات الأنيقة، واكتظ الشاطئ بالمستحبين وبالمقاهي والنُّزل الفاخرة، ومن بينها نُزل Waikiki الذي بلغ من الوجاهة والامتداد حداً كبيراً.

جلسنا إلى الشاطئ لنرى أتعجبة الرياضة البحرية هناك ويُسمونها Surfing، ترى الفتيان والفتيات يمتهن كل منهم زورقاً نحيلأ أو لوحًا من خشب مدبب الأطراف، ثم يحركه برجليه وهو واقف عليه، فيجري الزورق ويعلو ويهبط وفق تكسر الموج على الشطوط هناك في سرعة وخفة حرفة لم أر لها نظيرًا، وهو خلال ذلك يميل ويجلس وينام ثم يعود واقفاً، والزورق يجري في اهتزاز مخيف، ويساعد على تعاقب الأمواج

الخفيفة كثرة شطوط المرجان، وتلك لعبة ملوكهم منذ القدم يتعلقون بها إلى حد المخاطرة.

أخذنا نسير بعيداً عن المدينة ونوغل في ريف الجزيرة، وكنا نمر ببيوت فاخرة ذات حدائق مُنسقة قيل لنا بأنها مصايف أكبر ممولٍ أمريكي «المليونير» وأشهر نجوم السينما في هوليوود، يفدون إليها لتمضية فصل الصيف كل عام. أما القرى فقليلة نادرة السكان، بيوتها خشبية صغيرة، أو أخصاص مجدهلة من العشب وألياف النرجيل. وكانت مخاريط البراكين الخامدة تحوطنا من كل جانب؛ فَحَوْلٌ هونولولو وحدها عشرون فوهة بركانية خامدة، وكانت الطرق المرصوفة تلتوي بنا حول تلك النجاد صعوداً وهبوطاً في وعورة مخيفة، ثم وقفنا إلى جوار صخرة Bali الشاهقة المدببة، فبدا منظر الوديان الخضراء من دونها رائعًا، ولم نستطع الوقوف بها طويلاً لشدة عصف الريح التي كانت تلقي بنا جميعاً. وتلك البقعة لا تهأّ عواصفها أبداً، وهي أشد بقاع الجزائر عُنْفًا في هواها. ومن جانب تلك الصخرة هاجم أحد ملوكهم Kamehameha عدوه Oahu وألقى به وبجنوده إلى أسفلها مسافة ٦٠٠ قدم فماتوا جميعاً.

أما عن ثروة الجزيرة بزهورها المختلفة؛ فذلك لم أشاهده في ناحية أخرى من الكره الأرضية، فيكاد يُرى الشجر والعشب كله مزهراً، وفي أشكال ساحرة، ورائحة عبقة، وألوان لا آخر لها. وأظهر تلك الزهور جميعاً الهبسكس، ويعدونه الزهر الرسمي، وهو رمز الجزيرة، ولا تقل أنواعه المختلفة للألوان عن ٢٥٠٠، وتکاد تجدها جميعاً في حديقة هاوٍ اسمه Kooper يدير فندقاً على بعد ٣٠ ميلًا من هونولولو. والنبات يُزهر طول العام، وتبقى الزهرة يوماً واحداً، لذلك تقطع كل مساء لتختلي مكانها لزهرة أخرى في الصباح.

ومن أعجب الزهور عباد القمر في كأس أصفر كبير تراه ذابلاً منكمشاً في النهار، فإذا ما غابت الشمس وحل الظلام أو انتشر ضوء القمر قام وتفتح، ويُسمّونه Cereus، فلا تکاد تقع العين على مكان يخلو من تلك الزهور المتوعة الجميلة؛ لذلك لم أعجب لانتشار عادة لبس عقود الزهر، حتى بين طبقة العمال وهم يفلحون الأرض أو يرصفون الطرق، حتى أضحي عقد الزهر شعاراً لتلك البلاد، ورمزاً للوداع والاستقبال.

ومن أجمل ما استهوى أنظارنا مشهد حقول الأناناس تنتشر إلى الأفق فوق أرض مموجة، وفي تحطيط هندي بديع، والنبات يبدو كالصبار يتوسطه كوز مصغر محبب من الثمر تزيين قمته ذؤابة مورقة، وقد تزن الواحدة ١٢ رطلاً. ومن تلك المزارع عشرون



شكل ٩: لا تزال لعادات الوشم فوق الوجوه بقية بين الماوري.

ألف فدان في تلك الجزيرة، وهو أجود أنواع العالم حلاوة وطراوة وحجمًا، ويطلب عناء كبيراً في زرעה؛ فبعد زرع البذور يُشتَّل ثم يُرْشُ بالسائل المطهر ثم يُلْفُ في ورق لحماته وهو صغير، على أنه لا يتطلب رِيًّا، بل ينمو على مياه الأمطار، وأول ثمره يظهر بعد ٢٤-١٨ شهراً، ثم تُقطَّفُ الثمرة الأولى فتختلفها الثانية بعد ١٢ شهراً، ثم الثالثة في السنة الرابعة، ثم يُنْزَعُ من جذوره وتُزرع الأرض خضراء، ثم يُعاد زرעה من جديد، وهو يزكي فوق المرتفعات الموجة، ويُعَدُ ثانوي حاصلات الجزيرة بعد قصب السكر.

وكنت أرى عربات سكة الحديد تجري وسط الحقول لتنقل الثمر إلى المصانع، وقد زرنا أكبر مصانع الدنيا للأناناس، وهو في هونولولو نفسها، فكان الثمر يُقْسَرُ بآلات ثم يجري على أشرطة ليمـر أمام الفتيات اللاتي كن يلتقطن ما تختلف فيه من زوايد

القشر، ثم يرتبن القطع حسب النوع والحجم، ثم تُساق القطع إلى المخرطة لقطعها، ثم تمر على فريق آخر من الفتيات لوضعها في العلب، ثم تُدفع العلب إلى معمل العصير والسكر لرشه بالشربات من عصيره مع قليل من السكر، ثم يُعَقَّم وتنقَّل العلب وتُشَحَّن. وهنولولو أكبر جهات العالم تصديرًا له.

ومن أطرف ما استرعى أنظارنا فوق المصنع شكل ثمرة أناناس هائلة تبلغ عشرات الأمتار طولاً في لونها البرتقالي المحبب وذو ابتها الخضراء، وتلك هي مستوى المياه الازمة للمصنع، أقيمت على علو شاهق لمدده بماء من جهة، ول تقوم إعلاناً على إنتاج المصنع من جهة أخرى، وهي أعلى شيء يراه المرء إذا حل المدينة. وكانت حقول قصب السكر تملأ المنخفضات إلى الأفق، وكانت أعمواده بالغة الطول، لكن عقده قصيرة.

وهو ينضج هناك في ١٨ شهراً، ويُحْصَد في كل شهر تقريباً، فترى القصب الناشئ الصغير في جانب، والناضج الكبير في الآخر، ولا يُجَدِّد زرعه إلا كل ١٤-٨ سنة، ومصانعه هائلة، وهناك فرع كيميائي تحليلي خاص به ملحق بالجامعة، والأبحاث تتقدم سراغاً؛ ففي كل عام يصلون إلى تحسين نوع القصب وعصيره واستئصال آفاته بنجاح ليس له نظير في أي جهة من الدنيا. ولقد اقترح أحد أساتذة الجامعة هناك إيفاد بعض الطلبة المصريين إلى هذا الفرع - كما يفعل الأميركيون - ما دام القصب والسكر يهم مصر اقتصادياً. ويغل فدان القصب سبعة أطنان من السكر غير المكرر.

وتُعدُّ هواي ثالثة بلاد العالم إنتاجاً للسكر - بعد كوبا التي تمتاز بخصب تربتها، وجاءة بخصوص الأجور فيها - وقد بلغ إنتاج الجزيرة من السكر والأناناس مائة مليون ريال في العام، والعامل في مزارع القصب يتتقاضى ريالاً كل يوم، ويزداد بالمسكن والطعام والأطباء فوق ذلك. وما عجبت له طريقة في إشعال النار مساء في حقول القصب إذا ما نضج، وفي باكورة صباح اليوم التالي ترى الأعمواد قائمة وقد احترق أطرافها وأوراقها، وبذلك يوفرون على أنفسهم عناء تقشيرها.

وفي جهات كثيرة كان نمر بمزارع هائلة للموز الذين يحصون من أنواعه هناك خمسين، وبعض العراجين يزن خمسين رطلًا، ويحيوي ٣٠٠ موزة، وهناك نحو عشرين نوعاً ينمو برياً ويفضلنه الأهالي لأنه لذيد الطعم، عطر الرائحة، ولا يزيد عمر الشجرة على سنة ونصف، ثم تُقطَّع وتُعرَس فسائلها من جديد، وقد يصل طول الشجرة اثنى عشر متراً.

ومن أغرب النباتات التارو Taro كان يبدو نبته كالقلقايس تُقلع جذوره وتُغْلَى ثم تُؤْكَل كالبطاطا، أو تُسْحَق في شكل معجون لإعداد طعامهم القومي المحبوب المسماً



شكل ١٠: شيخ ماوري يرتدي الفرو ويزين وجهه بالوشم والتجريح.

poi، وقد أكلته فألفيته منفراً كأنه الفالوذج الهزاز المرق، بنفسيجي اللون في شيء من السُّمرة، وفي غير حلاوة.

أما شجر البوبوز ففي كل مكان يحمل وسقه من أكواز خضراء كالشمام، وهو يثمر طوال العام، ويقدمونه في الإفطار، وهو حلو لذيد، وله أثر كبير في تنشيط الهضم. ليثنا ننتقل في تلك الجنة الساحرة، ونمر بشواطئ تلك الجزيرة البديعة، وكان القوم يصيدون السمك في كثير من تلك النواحي بحرابهم، فينسسل الشاب بين صخور الشاطئ، وما أسرع ما تراه يلقي بحربته الطويلة في الماء ويُخرج وقد علقت بها سمكة كبيرة! وكثير منهم يصيدون السمك ليلاً على المشاعل، فيمسك الواحد منهم بشعلة نار وراء ظهره ويسير وسط الماء، فتتجذب تلك الشعلة السمك، فيقرب منه، وعندئذ يُعمل فيه حرابة قنصاً وصيداً.

ومن السمك ما يزن ٣٠٠ رطل، ومن أغرب أنواعه sword fish بأنفه الذي يمتد متراً وكأنه الحرية ذات المنشارين. وفي مكان من الشاطئ رأينا شبه نافورات تنفجر من البحر، ويعلو ماؤها ورشاشها أمتاراً في الجو، وتلك ظاهرة يسمونها نافورة البحر blow holes، فإذا دفع الموج الماء تحت الصخر المثقب البركاني تفجّر الماء منه عالياً.

عدنا آخر النهار إلى المدينة وأخذنا نتجول في أحياها الغاصة بالناس سيراً على الأقدام، وكان الهوائيون أهل البلاد يسيرون في وجوههم التي تحكي وجوه الماوري إلا



شكل ١١: مغارة اليراع العجيبة في وايتومر.

أنهم أقل جمالاً، وأكثر سمرة، وأجسادهم ممتلئة، وتبعد عليهم علامات الصحة لجودة مناخ بلادهم، وبساطة معيشتهم في المأكل والملبس والمسكن، فأشخص طعامهم السمك وجذور التارو البوi poi، ثم الفاكهة الاستوائية.

ومن آدابهم في المائدة أنه لا يصح الحديث في موضوع مادي، وإلا عُذَ ذلك محراً منكراً tapu، ويجب قصر الحديث على ما يُدخل السرور على النفس، وعند الجلوس إلى المائدة تقدّم آنية البوi، وهي سلطانية يغمس كلّ منهم أصابعه فيها، ويتناول بعض بندق kukui مع الملح وبعض أعشاب البحر، ثم يأكل قطعة من قيد السمك، وكلما تناول الرجل أصبعاً من البوi تناول النساء اثنين. وعلى الضيف أن يقول بين آنِ وآخر أي ما أذن هذا!! he ono

وجل ملبيهم من قشور الشجر، خصوصاً شجرة tapa التي إذا ما بلغت بين ٣ و٤ أمتار قُطعت، ثم حاول النساء سلخ قشرها في قطعة واحدة، ثم يُضْقل ظاهرها بالأصداف، وتعطن في النهر وتُدقّ ثم تجفّ. وكثيراً ما ترى القطعة الواحدة تفوق

ملاءة السرير كبرًّا، وإذا دُهِنَ بزيت النرجيل أضحت «ووتر بروف»، وهو متين جدًا، لكنه غير قابل للغسيل، ولرداة رائحته يستخدمون مسحوق خشب الصندل.

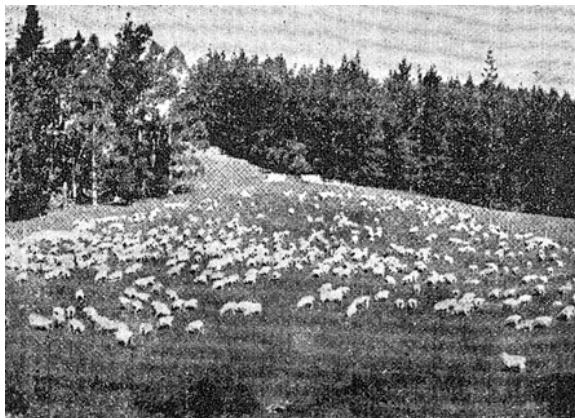
وشكل الملابس يحكي ملاءات الهنود، ويُسمُّونها Holuku. وهم يفضلون السير عراة الرءوس والأقدام، ويحبون التحلّي بالعقود والخواتيم نساءً ورجالًا. وأردية الملوك والوجهاء عباءة يكسوها الريش الثمين بشكل فني جميل، وفراشهم من الحصر، ووسائلهم من خشب أو حجر، وغطاوهم من لحاء الشجر شجرة Tapa، يبدو كالورق أو الجلد، وأوانيهم من القرع يصقلونه ثم يزين بالنقوش الجميلة فلا يفترق عن الفخار أو الخزف الثمين، ولا تزال ترى طريقتهم الأولى في إشعال النار بحـك قطعتين من خشب؛ إداهما غضة ناعمة بها حفرة، والأخرى صلبة، وبالاحتـاك العنيف يتفحـم تراب الخشب ثم يشتعل، وكانتوا يحفظونها زمناً طويلاً بإشعال طرف حـبـل من شجر tapa فلا يُطفأ أيامًا، وكـنا نـرى تلك الحـبـال تـعلـق على أبوابـ الحـوانـيـتـ يـشـعلـ القـومـ منـهـا سـجـائرـهـمـ.



ومن معتقداتهم أن الزعماء مبعوثون من عند الله؛ لذلك يجب تقديسهم، فلا يصح لأحد الوقوف إذا مر زعيم أو ذُكر اسمه، بل يجب الرکوع، ولا يجوز استخدام المجرى الذي يستقي منه الزعماء، ولا الطعام الذي يأكلونه. والزعماء هم مُلَّاك الأرض وصيـدـ

البحر ومجهود الناس وعملهم، والملك يُوزع ذلك على الزعماء، وهؤلاء على أتباعهم في
شبـه نظام إقطاعي.

وكان للنساء مركز منحط؛ فلم يُبْحَث لهن الأكل مع الرجال، ولا طبخ طعامهن في
إِناء واحد مع طعام الرجل، ولا تدخل المرأة المعبد، ولا تأكل الموز ولا الترجيل، فكل ذلك
كان محرماً tapu. وقد حدث مرة أنهم رأوا أميرتين تأكلان الموز فُحُكِّمَ على مرببيهن
بالقتل، وكان للقسس سلطان كبير عليهم.



شكل ١٢: إحدى مزارع الأغنام في زيلندة.

a e h i k l m n o ولغتهم عجيبة أيضًا فلا تزيد حروفها على اثنى عشر هي: w p، والحروف المتحركة تُنْطَق جميًعاً، ومن الكلمات الشائعة التي يستخدمها حتى
كبار سراة الأميركيين في وسط حديثهم ما يأتي: نعم ea - مرحبًا أو وداعًا al oha -
كلا aole - تعال هنا hele mai - غضبان كدر hulu - بحر kai - ميت make
موسيقى maikai - حسن mele - كيف حالك ipehea oe - أسرع wikiwiki
ومنطقهم عذب موسيقي، وعلى جانب كبير من البلاغة الشعرية، فهم يُشِّهِدون في
ذلك ماوري زيلندة، وهم مولعون بالموسيقى حتى أصبحت أنغامهم المشجية أحب ما
يسمعه الأميركي أنفسهم، وكنا نسمعها طول الطريق، وكانت أطرب لسماعها؛ لأن فيها

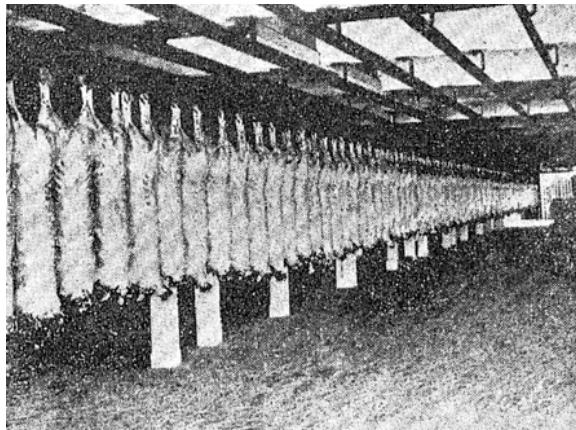
شيئاً كبيراً من الحنان والعاطفة الفطرية، وقد حضرنا رقصة hula وأغنية ukulele ونحن في فندق شط Waikiki، فكانت ساحرة، والراقصة بدت في تمويج الجسم في ثنيات عده، وتحريك الأيدي والذراع حركات ثعبانية لتحكي حركات الموج وأوراق النخيل إذا ما داعبتها الرياح.

بلاد يشعر المرء فيها بالسعادة الكاملة؛ إذ يستمتع بكل شيء، ويرى القوم فيها هائين يسرون مرحين وهم يغدون، ويرقصون، ويزينون أنفاسهم بعقود الزهر الجميل، وهم حفاة، وإذا جاء أحدهم أو عطش تسلق شجرة النرجيل وألقى بنمرها إلى الأرض، واستمد منه غذاء وشراباً، والجو حوله ممتع موحد طول العام، فستَّتهم شهر من شهور الربع مدار ٣٦٥ يوماً، والسماء مشمسة تلطفها الرياح التجارية البليلة، وترسل عليها مطرًا متقطعاً ينزل غالبه ليلاً، والهواء خالٍ من الأتربة والأوساخ؛ فلا تكاد تعرف الجزيرة الأمراض قط، ويزين سماءهم قوس قزح حتى في ضوء القمر.

وليس في لغتهم كلمة تعبر عن معنى الجو، وكثير منهم على جانب عظيم من الثقافة؛ فالتعليم هناك ذو مستوى عالي منذ زمن بعيد، فلقد بدأت المدارس هناك عملها قبل أن تبدأ في كاليفورنيا نفسها، وكان سارة كاليفورنيا يبعثون بأبنائهم لتلقي العلم فيها. وجامعة هونولولو عظيمة راقية، وكثير من طلاب أمريكا يحضورون دروس الصيف فيها؛ ليجمعوا بين العلم والاستمتاع بعطلة الصيف، وقد علمت أن عدد التلاميذ في الجزائر بلغ ٩٢ ألفاً في نحو ٢٥٠ مدرسة، ويقوم بالتدريس لهم ٣٢٠٠ مدرس، وفي الجامعة زهاء ٤٠٠٠ طالب، وهي تسير على نمط جامعات أمريكا.

هذه حال تلك الجزائر التي تهوي أعماق البحر حولها إلى ٦٠٠٠ متر، والتي كشفها الإسبان «سنة ١٥٥٥» وأخفوا خبراً حتى جاء كوك «١٧٧٨» وأسموها ساندروتش، على اسم صديق له، ولما رأه الأهالي خالوه إلهًا فسجدوا له، وقدموا له القرابين، لكن كثرة طلب الغذاء لإطعام رجال كوك، وسوء سلوكهم مع الأهالي، وعدم احترامهم لعقائد الناس أدى إلى نزاع؛ فتقدمن رئيس وطني وطعن كوك بأحد الخناجر التي قدمها كوك له هدية، فَخَرَّ قتيلاً. ويقوم نصب تذكاري له هناك، فقام بعد أحد ضباطه فنكوغر وبذل جهوداً كبيرة في مصادقة الناس، وأقنع الملك كامييهاما ببطلان الأصنام، وإلغاء المحظورات *tapus*؛ لأنها كانت مصدر مظالم تقع على أيدي القسسين.

ولقد طلب الأهالي حماية بريطانيا، لكن إنجلترا كانت إذ ذاك مشغولة عنهم بشؤونها، فتقدمن الأمريكيون نشروا التعليم والتبشير؛ فقام الناس بثورة سنة ١٨٩٢ خلعت على



شكل ١٣: مثالج اللحوم في نيوزيلندا.

أثراها آخر ملكاتهم Ihnokalani، فنادى الناس بأمريكا، ورفع العلم الأمريكي فأغلقت الجمهورية، وفي ١٨٩٨ طلبوا الانضمام للولايات المتحدة خشية أن تحتلها اليابان التي بدأت تحشر أبناءها هناك، وجعلتها لها قاعدة بحرية، وقد طمع الروس في تملكها.

وكانت تجارة خشب الصندل أهم الموارد هي وزيت الحوت الذي كان يُصاد بكثرة حولها، لكن تلك التجارة قد اضمحلت وحلت الزراعة محلها، خصوصاً لأن نشط استخراج الذهب من كاليفورنيا، واحتاج نزلاؤها إلى استيراد الغذاء من هواي من غلال وخضر، ثم شجع الصينيون زراعة قصب السكر والأرز، ثم تشعبت منتجاتها حتى أضحت على ما ترى اليوم.

عدنا إلى الباخرة فبدأ الرصيف مائجاً باللودعين وبائعات الزهور والعقود، وقد لبس كل من المسافرين واللودعين عشرات العقود البدعة، وقد ركب الباخرة في الدرجة الثانية من هونولولو ١٤٠ مسافراً يعودون إلى أمريكا بعد تمضية عطلة الصيف، وبدأت موسيقى الوداع تعزف، وأشرطة الورق الملون تتصل ما بين فريق المسافرين واللودعين، ثم أخذت الباخرة تتنحى عن الميناء تدريجياً حتى غابت تلك البلاد الممتعة عن الأنظار، وكان آخر ما يُرى برج الميناء وعليه كلمة aloha تودعنا.

وخرجنا إلى عرض المحيط ونحن آسفون أن برحنا جنة الباسفيك أو جوهرة المحيط كما يسمونها غالباً، عندئذ أخذ المسافرون والمسافرات يلقون بعقود الزهر الجميلة إلى المحيط حتى لم يخالفوا معهم منها شيئاً؛ لأن ذلك فأل حسن يؤكد لهم عودتهم لزيارة الجزيرة مرات أخرى، وكانت أليس من تلك العقود اثنين لم تُنسِغْ لي نفسي أن ألقى بهما إلى اليم، لكنني لم أنجُ من لومهم؛ فكلما مرت بي آنسة قالت: ألا تريد أن تعود إلى زيارة هونولولو ثانية؟ فأقول: بل، فتلك أمنيتي، فتقول: إذن سارع بـإلقاء عقودك إلى البحر، ولما أن غلبتني كثرتهن أقيمت بالعقدين على الرغم مني، ولعل الأمل الكبير في العودة إلى زيارة هونولولو يعوضني عما فقدت من تلك العقود البدية.



شكل ١٤: عربات توزيع اللبن تنتظر تعقيمه في ولنجتون.

وبسبب وفرة الزهور كثُر النحل جدًّا، حتى إنَّا كنا نسمع طنين النحل في كل مكان، ولقد علمنا أن النحل هناك يغلب مليونين من أرطال العسل سنويًّا، وقدروا أن كل عشرين ألف نحلة تحمل رطلًا من الرحيق، وهذا يصبح ربع رطل من العسل، وبذلك يكون مجموع النحل في الجزائر ١٦٠ ألف مليون نحلة، وشهر يونيو هو شهر العسل عندهم، والشمع الذي يُتَّخذ منه أحسن الأنواع العالمية وأكثرها مقاومة للانصهار.

لوز إنجليز

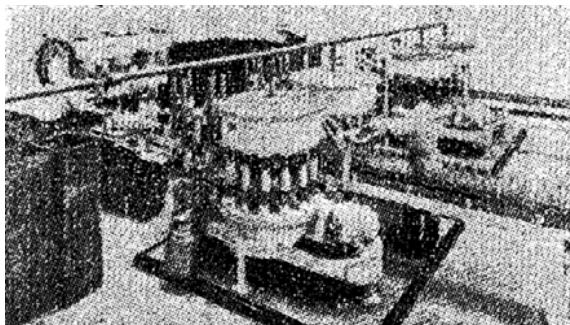
عدنا إلى المحيط الهادئ نشق مياهه الوديعة يومين، ثم أعقبهما آخرين بدا خلالهما البحر على غير ما عهديناه؛ إذ ظل مضطرباً حتى أعيى الكثير من المسافرين، وفي يوم السبت ٩ أغسطس دخلنا ميناء سان بيدرو، وهي ثغر لوز إنجليز، وكان شاطئ كالifornيا الصخرى قد بدا إزاءنا منذ المساء.

حلينا البلدة — وهي ضاحية صغيرة، مبناؤها لا يزال تحت التشييف والإنشاء — وركبنا الترام مسافة أربعين ميلاً إلى لوز إنجليز، ومعناها الملائكة باللغة الإسبانية، فهالنا ما رأينا من أمرها؛ فهي مدينة صاحبة مائجة بالناس والحركة إلى حد كبير، وتکاد تتبع في نظامها نيويورك لأن شوارعها مقاطعة ومتعمادة، غير أنها تعلو وتهبط حسب تمواج الأرض حولها، ولقد نمت نمواً عظيماً منذ أسسها الإسبان من ١٥٠ سنة، خصوصاً في السنوات الأخيرة، حتى بلغ سكانها مليوناً وربعاً، وأضحت خامسة مدن أمريكا، فهي أكبر من القاهرة.

أما مبانيها فجُلُّها من ناطحات السحاب التي تفوق أدوارها العشرين، ولعل أروع شوارعها برودواي نظير أخيه في نيويورك في وجاهته، والتألق الفائق في عرض متاجرها، والإسراف الكبير في تموين مبانيه بالمرمر الملون الذي يبدو وكأنه الخزف الفاخر تحده أسلاك النحاس الأصفر البديع إلى ذروته مهما علا. أما عن حياة الليل فيه وفيما جاوره من طرق، فذاك أمر يبهر النظر، ويستهوي الحكيم، فالمقاصف والملاهي تعددت أشكالها وبُولغ في تنسيقها، ودور الملاهي وبخاصة السينما فاقت كل وصف جمالاً، وحركة المرور في الشوارع تسد الآفاق سداً، فَسَيْلُ السيارات دافق كل آن، هذا إلى الترام متعدد الأنواع، وقُطْرٌ تحت الأرض، وسكة الحديد في كل جانب، وكذلك الأتوبوس، ولا يمكن لأحد أن يعبر مفارق الطرق إلا إذا أوقفت إشارة المرور.

والإشارات أتوماتيكية بالألوان، وذراع يُرْفع وعليه كلمة go فتمر السيارات ويتوقف المارة، ثم يدق الجرس ويسقط ذاك الذراع ويُرْفع غيره وعليه stop. زرت بعض حدائقها ومنتزهاتها الرائعة، ومنها حديقة الحيوان التي تمتاز بإظهار بيئه الحيوان الطبيعية حوله من غابات وجبال، ثم مزرعة السباع وبها زهاء ٢٠٠ أسد يروضونها على اللعب، فيركبها الرجل ويدربها على بعض الألعاب، وبعضها يُرسل إلى هوليود ليشاطر في إخراج الأفلام السينمائية، ثم مزرعة التمايسير لتربية تلك الطائفة

من الحيوان، ومنها ما يفوق عمره المائة عام، ثم مررنا على دار الألعاب الأُلمبية «الاستوديوم» الذي يبلغ ١٧ فداناً، وبه مقاعد لعدد ١٠٥٠٠٠.



شكل ١٥: زجاجات اللبن تُعَقِّم وتنقَّل في ولنجتون.

ثم مرت بنا السيارة خارج البلدة خلال بساتين الفاكهة، وبخاصة البرتقال الذي كانت صفوف أشجاره المنتظمة تمتد إلا الأفق — وهي جزء من إنتاج كالفورنيا الذي اشتهرت به حتى قدّر محصول البرتقال بعشرين مليون جنيه في كل عام — ثم كان ركوبنا الترام إلى هوليود.

(٢) هوليود

عاصمة السينما في العالم؛ إذ تُخرج وحدها زهاء ٨٥٪ من جميع أفلام الدنيا، تلك التي أصبحت مطمح أمال الكثير من أنسُوا في نفوسهم كفاءة في التمثيل والغناء والموسيقى والجمال، وبعض الألعاب كالصارعة والرقص والملاكمة وما إليها، حتى إن ثلث ركاب الباخرة كانوا منهم، وكلهم جاءوا يطبوون الغنى والمال في عاصمة الخلعة والجمال. دخلنا البلد بعد مسيرة نصف ساعة بال ترام، فبدت تقوم في حضن جبل منخفض تتوجه رُبَّي تكسوها الخضراء، وقد بدا بناء مرصد «جرفت» مشرقاً بقبابه، وقد زرناه، وبه من المناظير ما يُعدُّ من أكبر مناظير الدنيا بعد منظار جبل ولسون — وهو قريب من ذاك الموضع، لكن لم تُتح لنا فرصة زيارته لنرى منظاره البالغ قطره ١٠٠

بوصة «وهم اليوم يصيرون عدسات منظار آخر قطره ٢٠٠ بوصة» — ثم موضع للفلك «پلاتنوريوم» شبيه ذاك الذي زرناه في برلين.

أما عن جمال بلدة هوليود والإسراف في إقامة مبانيها وتسقيق حدائقتها، فذاك أمر لا يجدي فيه القلم، بل عليك أن تشاهده بنفسك كي تدرك رونقه، وتحس جماله، وترى بريق المبني، وفاخر فرشها، ورائع هندستها، وبديع معروضاتها؛ مما يشعر بالغنى المفرط والجاه الكبير، وبخاصة دور الملاهي التي لا تدخل تحت حصر. وقد راقني منها الملهى الصيني Chinese Theatre أقيم على نمط پاجودا الصين، وبُولوغ في تجميله من الداخل، وزُوّد بالفراش الوثير، ويسمونه Premier؛ لأن كل فلم جديد يعرض فيه أولاً، وفي بهو مدخله الفسيح ترى كل رخامة رُصفَت بها الأرض تحمل طابع يدي إحدى نجوم السينما، وبعض تمنياتها للملهي وإيماءاتها والتاريخ. كل ذلك محفور في صميم الصخر.

ومن الدور الشهيرة: الملهى المصري، سُمي كذلك لأنه أقيم في هندسة المعابد المصرية القديمة، وأينما سرت تلقيك الاستديوهات ذاتعة الصيت، تلك التي تؤخذ داخلها أفلام العالم أجمع، ومن بينها استوديو شاري شابلن الذي قصر تمثيلهاليوم على فلم أو اثنين في العام؛ حتى يتשוק الناس إليه ولا يزهدوا في أفلامه إن كثرت عدداً، وكان لي حظ لقاء هناك.

طفقت أسيير في جنبات تلك الضاحية السحرية أشاهد سيول المارة تسد الطرق وأرصفتها سداً، وبحر السيارات زاخر بحيث تقاد تُفرَش الطرق بها فرشاً، فلا يكاد يخرج الواحد إلا في سيارته. وكانت أعجب للحياة كيف تسير في تلك الناحية؛ أرى النساء قد ظهرن في أزياء الرجال من سراويل وجاكتات وأربطة رقبة وشعر مقصوص، بحيث يصعب التعرف إليهن بين الذكور، ومن الرجال من دهن وجهه، وحمر شفاهه، وأرخي شعره، ولع أظافره، وسار يتبختر ويتيه عجبًا كأنه الآنسة الحسناء.

أما عن جمال السحن ودلال المشية وفاخر الهدم، فذلك لم أره في مكان قبل هذا، وكثير من أولئك من سراة العالم أجمع، وببعضهم من نجوم السينما الذين طبقت الآفاق سمعتهم، ومنهم من وفده طامغاً في الغنى، راغباً في الوجاهة، ساعياً بجماله وخففة حركاته، ورشاقة قدمه، وشجي صوته أن يصبح في عداد تلك النجوم. ولا عجب أن تصبح هوليود بغية الناس من أقصى الأرض، وهل يُتاح لهم من المجون ووسائل اللهو والإسراف ما يلقونه هنا؟ وهل في الدنيا سوى هوليود واحدة؟! وما أبدع ما يُرى شارع

هوليود بوليفار قلب المدينة النابض، وشارع هوليود أفنيو الذي يليه فخاراً ويقطعه متعاماً عليه! ما أبدعهما ليلاً حين تكاد الأضواء فيها تبهر النظر، وتستهوي الرزين! وقديماً عُرفَ الأميركيون بالإسراف في سبل الإعلان، ومن أخصها الإضاءة الملونة المتحركة ليلاً.



شكل ١٦: بين فريق من أهل جزائر ساموا.

ولم أكد أوغل في أطراف المدينة حتى بدت المساكن الأنيقة بحدائقها المنسقة التي تشعر بفني أصحابها المفرط، وحسن ذوقهم، وجميل اختيارهم، وبخاصة فوق تل يسمونه بيفريلي Beverly؛ حيث رأينا جُلّ منازل النجوم في إبداع يفوق الوصف، وكانت تسترعي نظري ليلاً أشعة من الضوء القوي تُرسّل كالسهام إلى السماء في اتجاهات مختلفة، وتتحرك عبر تلك السماوات وهي تتقطّع وتقوى ثم تخبو، وقد تبدو كوابِل من الشهب والنيازك الضخمة، وتلك من مميزات كالifornيا عموماً في الإعلان، وبخاصة هوليود؛ لذلك تراها على شاشة السينما دائماً تنبئ وكأنها أشعة الشمس القوية. وكانت أرى تلك المصايبح تسير على عجل في الشوارع، وإلى جوار كل منها «دينامو» كبير يولد لها الكهرباء، ويحرك الرجل المصباح فيتمايل شعاع الضوء في كل اتجاه. وعدت في اليوم التالي أزور هوليود لأنني لم أشف من جمالها غلة، وتزودت منه طوال اليوم، وقد لاحظت أن الحياة فيها أغلى منها فيسائر البلاد، فلا أكاد أخرج الريال

حتى لا أرى له بقية، وأنت لا تزال تنفق الريال تلو أخيه حتى يصبح وفاض خلواً من المال، وعندئذ تفيق لنفسك ولا تنندم على ما أنفقت في سبيل الوقوف على حال هوليود وأهلها. ولقد استوقفني في أحد شوارعها منظر جماعة من العمال ينقلون بيته برمته من قطعة أرض إلى أخرى، وقد حفروا حول الأسس، وأوقفوا قاعدة البيت على أعمدة من كتل خشبية تحتها بكر كبير، وسيزمعون جره على تلك البكر إلى بيته الجديدة.

وقفت مبهوتاً لأنني كنت إخال ذلك لـأأن سمعته أول مرة منذ عامين ضرباً من الخيال، أو نوعاً من التهم على مبالغة الأميركيين و«فسرهم»، لكنني أفيته حققة! وقد دهش صديق لي أمريكي لأنني لم أعرف أنهم ينقلون البيوت الضخمة مسافات بعيدة منذ زمان بعيد.

مالت الشمس، وأذن ميعاد العودة إلى الباخرة، فأخذت أودع ذاك البلد الساحر، وكان آخر ما وقع نظري عليه منزل النجمة Ann Harding فوق حجارة تحكي الجبال الطبيعية، من دونها بركة الاستحمام الفسيحة، ثم منزل النجمة الجميلة Marion Davies بدين الهندسة، فاخر الحدائق، وقد فتح للقاء من أراد من الزائرين، وقد استمتعت بزيارته ولقاء صاحبته، ثم مررنا بمدرج Hollywood Bowl الذي نُصرح به الهائل في صخر الجبل، وزُوِّد بمقاعد في أنصاف دوائر تتسع كلما بعدت وعلت، وهذا يُعرض التمثيل وتُؤخذ بعض الأفلام صيفاً في الهواء الطلق.

وقد زرت جامعة هوليود، وعلمت أن بها طالباً مصرياً اسمه غنيم، حاولت مقابلته لكنني لم أوفق، وهي غنية بأقسام الفنون والتمثيل والموسيقى والغناء. سار الترام وسط ضواحي هوليود في طرق تحدها أنواع من النخيل مختلف الشكل، ثم عرج بنا على لوز إنجلiz، وقد تزودنا من جمالها وروعة شوارعها، ثم قرب ميعاد العشاء فافترا أن نتناوله في مطعم قبل العودة إلى الباخرة، فدخلنا أحد المطاعم الفاخرة وقد كتب عليه: الوجبة ثمنها ٣٥ سنتيماء، أي ٧ قروش.

ولما أن وصلنا المقاعد جلسنا ننتظر الخادم طويلاً فلم يحضر، والناس من حولنا يأكلون، فصفقنا فاسترعى ذلك نظر الجميع، وجاءتنا آنسة تقول: ماذا جرى؟ قلنا: نريد عشاءنا، قالت: قوموا تناولوه بأنفسكم. فبدأنا نمر صفوياً على عدة فتيات: الأولى ناولتنا صينية وفوطة وسكيناً وملعقة وشوكة، فحملناها إلى قسم الشربة، فملأت الأخرى لنا سلطانية وضعتها على الصينية، ثم رحينا بمتاعنا إلى قسم اللحوم والسمك ننتقي ما نحب، ثم إلى قسم الخضر، ثم إلى قسم السلطات، ثم قسم الحلوى، وأخيراً قسم المشروبات.



شكل ١٧: آنسات هونولولو الرشيقات.

عندئذ ألفيت صينيتي قد ملئت وثقل علي حملها، وشعرت بغضاضة في نفسي أن أعمل عمل الخدم، لكن لم أر بُدًّا من ذلك والناس هناك كلهم سواء، وحملتها في جهد إلى المناضد المجانية، ثم أخذنا نتناول طعامنا بشهية كبيرة، وأخيراً تناولنا ورقة بالثمن ٣٥ «ستنيما» ثم دفعناه عند الخروج. وذاك النوع من الطعام هو الشائع في كل بلادهم، ويرى فيه القوم أداة سهلة لك أن تخтар ما يروقك من الطعام المرصوص أمام عينيك، إلى ذلك فإن تلك الطعام رخيصة جدًا، حتى إنك تستطيع أن تتغدى بثلاثة قروش. ومن الطعام ما تدخلها وتقف إلى جوار البنك وتطلب ما تريد وتأكله واقفاً، وهو أكثرها انتشاراً؛ إذ ترى منها عشرات في كل شارع. وقد شجع على كثرتها تزاحم الناس

عليها؛ لأن جل حياتهم خارج المنازل، فلا يكادون يعدون من الطعام في المنازل شيئاً، بل تخرج العائلة كلها عند كل وجبة ويأكلون ما يرغبون.

ركبنا الترام السريع عائدين إلى سان بيدرو، وكنا نمر بقرى كبيرة، وفي جانب منها على مقربة من البحر أبصرنا بشبه غابات كثيفة من شباك الحديد العالية، فقيل لنا: هي آبار البترول التي جعلت كالifornيا من أولى جهات العالم إنتاجاً لهذا المعدن، وكانت خزانات البترول Tanks الأسطوانية الغليظة تضيء بلونها الفضي على بعد أميال.



شكل ١٨: أجسام فتيات هونولولو مماثلة متناسبة.

قامت بنا الباخرة تبرح لوز إنجلترا وضواحيها بعد أن أقمنا فيها يومين كاملين، ولم يبق في السفينة من المستمأة مسافر سوى مائة، والباقيون أسرعوا إلى المقام في هوليوود، ولقد أقفرت الباخرة من أنفسهم وخفة روحهم؛ فجذبهم ممن ألفوا حياة الجنون واللهو في غير قيد لدرجة كانت تهولني؛ فالآنسات يختلفن إلى الفتيان، ويفغازلن بعضهم البعض جهاراً، ثم يكون التقبيل والزغزعة والاحتضان وما فوق ذلك مما كنت أستنكره كثيراً.

والعجب أن ذلك لم يكن يسُترعي من أنظار الآخرين أو يثير سخطهم، بل على النقيسن من ذلك كانوا يساهمون فيه، وحتى الأمهات أو الآباء كانوا يساعدون بناتهم على ذاك اللهو، وكثير من الفتيات كن يسرن عرايا في غير حياء، وكانوا يسخرون مني إذا ما غضبت الطرف عنهن وعما يأتين، ولم أشهد من الإباحة في أسفاري السالفة ما شهدته هذه المرة، ولا عجب؛ فَجُلُّ القوم من الأميركيين الهوليووديين والنيوزيلنديين والأستراليين، وكلهم سواسية في الأخذ بأكبر نصيب من الإباحة في كل شيء.

أوى جُلُّ المسافرين هذه الليلة إلى مقارهم على خلاف العادة ليعدوا نفوسهم، ويحزموا متابعهم؛ لأنها آخر أيامنا على ظهر الباخرة التي ستصل فرسکو ظهر الغد، وكان الكل يأسفون على مبارحة السفينية، والحرمان من متع الحياة فيها. والحياة على ظهر الباخرة مترفة نشيطة، ففي باكورة الصباح يمُرُّ الغلام بجرس يعطي أنغاماً كالبيانو ليوقظ القوم عند السادسة، ثم يطوف آخر بالجريدة اليومية الصغيرة من ست عشرة صفحة على ورق صقيل جميل، كما نقرأ فيها أخبار الباخرة واللاسلكي الخارجي، ثم مقالات قيمة عن البلدان التي ستقف عليها الباخرة مزودة بالصور البدعة.

ثم تمر الآتسة بكأس الشاي وبعض الفاكهة، وفي السابعة صباحاً يطوف الجرس الثاني ويصيح الغلام: «إن الإفطار سيُقدَّم بعد نصف ساعة.» عندئذ نتوجه إلى المطعم ونأكل ما راقنا من طعام شهي: فاكهة متاجة وطازجة ومطبوخة، وبعض البوردرج «العصيدة باللبن»، أو مخصوص الرقاق اليابس Corn flakes، أو الكنافة Shreaded Wheat، وبعض اللحوم والكبش والسمك، وبعض البيض «عجة أو مقلي إلخ»، وفطائر ومربي وعسل ولبن وزبد وشاي أو قهوة أو كاكاو.

وإذا ما فرغنا من الإفطار قصدنا بهو المطالعة نقرأ بعض الجرائد والكتب التي نفترضها من مكتبة الباخرة، ثم نخرج إلى سطوح السفينية لنساهم في الألعاب المختلفة: تنس، وبنج بنج، وbull board، ورمي الحلق، ودفع الأقراس Shuffle board، والاستحمام في البركة المallaة وما إلى ذلك، وفي بعض الأيام يقام سباق الخيل، وبين محطة وأخرى تُقام مباريات عمومية يساهم فيها الجميع، وتُعطى الجوائز للفائزين.

وفي العاشرة صباحاً يطوف الغلام بكؤوس المثلجات، وإذا أقبل الظهر دق جرس الغاء فذهب القوم إلى المطعم في غير تكلف في الهندام، فترى الكل نصف عرايا وقد تحرروا من كل قيد. بعد ذلك تعزف الموسيقى فنستمع لها، وبعضاً يؤثر القراءة، والبعض يعكف على الضامة check أو الشطرنج check أو النرد أو الورق.



شكل ١٩: تحلی عقود الود جيد الناس في هونولولو.

وفي الساعة الرابعة تعزف الموسيقى ويُقدم الشاي، ثم تنشط حركة الألعاب الخارجية، وفي السادسة يدق جرس العشاء، وبصبح الغلام منهاً بأن الطعام سيُقدم بعد نصف ساعة. هنا يسرع القوم جميعاً رجالاً ونساءً إلى غرفهم ليتزينوا ويلبسوا فاخر ثيابهم، حتى الأطفال منهم، وهم يرون اللبس قبل العشاء لازماً، فكنت أستعرض من الأزياء صنوفاً وألواناً، فإذا كانت السفينة ستصل ثغراً في الصباح كانت حفلة العشاء كبيرة للوداع Farewell dinner، ندخل المطعم فنرى الأعلام الصغيرة وملابس للرؤس من ورق ملون مضحك fancy dress. وقد يلبس الجميع أرديّة مضحكة، أو أزياء تمثل همج الإنسان، أو بعض الأمم الغريبة، فيكون عشاء جميلاً.

ولا تلبث بالونات الجلد الرقيق الملؤن ترفرف على الرءوس وتطير، ثم يضربها الخام بدبوس فتنفجر في صوت كصوت المدافع، بعد ذلك نحضر حفلة السينما. وفي منتصف العاشرة يبدأ الرقص والشرب إلى ساعات متأخرة من الليل، وهنا يطوف الغلام علينا بصواني الساندوتش المنوع، وقد تُعَدُّ الألعاب للمقامرة وسط كل أولئك.

ذلك مثل من سحابة اليوم الذي نمضي على ظهر الباخرة، ولا عجب أن بدأ الجميع يشعر بالأسف لمغادرة البحر رغم ما قد يصادفنا فيه من منفصالات موجهة ومرضه. وفي الحق أن حياة البحر لتعشق إن أخلتها المرء من المغالاة في الجنون واللهو، ولعل أجمل ما فيها جميـعاً الإخوان الذين نصطحب بهم مهما كثر عدد المسافرين، تراهم يختلطون ويتجاوزـون أطراف الحديث ويصيرون أصدقاء، فحياة البحر خير عنون على تربية النفس على حب المعاشرة والتهدـيب والدـعة.

ولقد صرفت نصف يوم الاثنين كله في عبارات الوداع، وتبادل بطاقات الأسماء والعناوين، وكلنا آسف جـدـاً لـلـأـسـفـ على فـرـاقـ حـبـيـهـ الـذـيـ لمـ يـزـ عـهـ صـدـاقـتـهـ عـلـىـ أـسـبـوعـيـنـ. دقـ جـرسـ الطـبـيـبـ ظـهـرـاـ وـقـدـ وـفـدـ مـعـ رـجـالـ الـمـاهـاجـرـةـ، فـتـقـدـمـناـ وـكـانـ قـلـبـيـ يـرـتـجـفـ خـشـيـةـ أـنـ يـكـونـ الـكـشـفـ الطـبـيـ قـاسـيـاـ، لـكـنـيـ مـرـرـتـ عـلـيـهـ وـتـسـلـمـتـ أـورـاقـ نـزـوليـ إـلـىـ أـرـضـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ دـوـنـ قـيـدـ، فـاغـتـبـطـتـ بـذـكـ الغـبـطـةـ كـلـهـاـ، وـيـظـهـرـ أـنـهـ قدـ تـغـاضـواـ الـيـوـمـ عـنـ التـرـاكـومـاـ رـغـبـةـ مـنـهـ فـيـ الـإـنـتـفـاعـ بـأـمـوـالـ السـائـحـينـ.

خرجنا إلى سطح السفينة نشرف على رُبَّيْ كلفورنيا، ونستقبل خليج سان فرنسيسكو، فبـدا في مدخل ضيق يـسـمـونـهـ الـبـابـ الـذـهـبـيـ The Golden gate يـفـصلـ ماـ بـيـنـ فـرـسـكـوـ إـلـىـ يـمـيـنـاـ، وـأـوـكـلـندـ وـبـرـكـلـيـ إـلـىـ الـيـسـارـ، وـقـدـ بـدـأـ الـقـوـمـ يـصـلـوـنـ طـرـفـيهـ بـقـنـطـرـةـ شـاهـقـةـ سـتـكـونـ أـكـبـرـ قـنـاطـرـ الـعـالـمـ طـرـاـ وـأـعـلاـهـ، وـقـدـ رـأـيـنـاـ الـقـوـائـمـ شـدـدـتـ عـلـيـهـ الـجـنـازـيرـ الـضـخـمـةـ الـمـقـوـسـةـ الـتـيـ سـتـحـمـلـ الـقـنـطـرـةـ عـنـ تـامـاـهـاـ.

(٣) سان فرنسيسكو

بدا خليج فرسـكـوـ مـغـضـنـاـ فـيـ شـعـابـ عـدـةـ تـتوـسـطـهـ جـزـرـ صـغـيرـةـ، رـأـيـنـاـ عـلـىـ إـحـدـاهـاـ أـكـبـرـ سـجـنـ هـنـاكـ يـضـمـ بـيـنـ جـارـانـهـ الـمـحـصـنـةـ كـبـارـ مجرـمـيـ أمـريـكاـ كـلـهـمـ، وـبـخـاصـةـ عـصـابـاتـ شـيكـاغـوـ gangstersـ، وـعـلـىـ جـوـانـبـ تـلـكـ الـأـجـوـانـ تـقـوـمـ الـدـيـنـةـ وـضـواـحـيـهـ عـلـىـ مـدـرـجـاتـ جـبـالـ مـغـضـنـةـ. وـأـبـصـرـنـاـ بـقـنـطـرـةـ أـخـرـىـ بـالـغـةـ الطـوـلـ تـسـمـيـ «ـفـرـسـكـوـ وـبـرـكـلـيـ»ـ؛ لـأـنـهـاـ تـصـلـ ماـ بـيـنـ الـبـلـدـيـنـ، وـبـيـلـغـ اـمـتـادـهـ ٨٧٠٠٠٠٠ـ، وـقـدـ كـلـفـتـ ٧٧٢٠٠٠٠ـ، أـيـ فـوـقـ ١٥ـ



شكل ٢٠: الصحافة في عرض البحر «مثل من الجرائد اليومية التي تُطبع على ظهر الباخرة وتُوزع على المسافرين مجاناً».

مليون جنيه، وهي أطول قنطرة الدنيا، وسطحها من دورين: الأعلى للسيارات الخفيفة، وسيمر عليها يومياً إذا ما تم بناؤها ٦٥ ألف سيارة، والدور الأسفل لمرور العربات الثقيلة والترام، ويحتازها من الركاب ١٢٧ ألفاً في اليوم.

ولقد كان مشهد المרפא ساحراً بديعاً، والملياء تنافس سدني وريودجانيرو جمالاً، وتعُد أكبر «المين» الطبيعية المغلقة الآمنة في الدنيا. نزلنا البلد ونقلتنا السيارة إلى نُزُل Stewart في شارع Geary، وأجره ريال ونصف في اليوم، والفندق فاخر جداً، ويغص بالمسافرين إلى حد لم أعهد من قبل.

خرجت أجوب الجهات القريبة من الفندق، وإذا بشوارعها عظيمة الامتداد، شامخة البناء، فاخرة المتاجر والمعروضات، خاصة بالحركة جدًا؛ لأنها قلب المدينة، وبخاصة Market Str. أعظم شوارع المدينة وأشدتها حركة، يجري به أربعة أشرطة للtram متباورة لشركاتين مختلفتين، وبعض الشوارع تتعامد عليه، والبعض تتوازى معه، وأخرى تميل خارجة عنه، ثم تقابلها غيرها متعامدة عليها أيضًا، والكل يسير على نظام الكتل blocks كما هي الحال في نيويورك.



شكل ٢١: زهرة عباد القمر في هونولولو.

وفي تلك الأحياء الفاخرة كثير من ناطحات السحاب التي تبلغ أدوارها بين الخمسة عشر والخمسة والعشرين، وقد صعدنا أعلىها؛ وهي ناطحة شركة التليفون، إلى سطح الدور الثلاثين، فكان مشهد المدينة منه جميلاً ساحراً، ويشتغل بها في ساعات العمل من الموظفين ١٦٠٠ موظف.

ومن المباني الرائعة دار البلدية City Hall بقبتها الأنique، تزيين ميدانها النافورات والحدائق البدية، وهي تغص بالحمام يطعمه الناس فيرفف على أكتافهم وهو أليف

وديع. أما عن حياة الليل في تلك الشوارع فصاخبة مائجة تزيينها الأضواء الملونة التي ألقنها في هوليود ولوز إنجلiz في إسراف كبير، ودور الملاهي لا تُحصى، والمطاعم والفنادق تُعد بالمئات، ففي سان فرنسيسكو ١٥٠٠ فندق، وفوق ٣٠٠ مطعم، مع أن سكانها لا يزيدون على سبعمائة ألف.

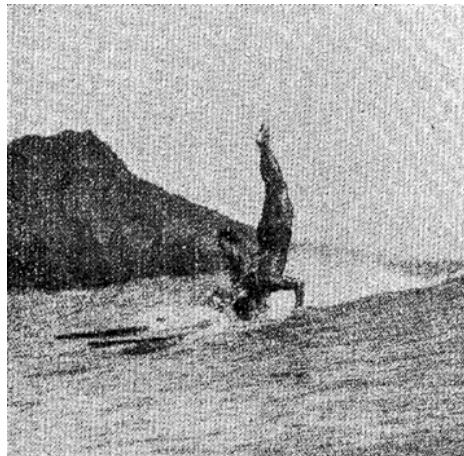
وقد عجبت كيف تجد تلك الفنادق والمطاعم من الزائرين ما يكفيها، لكنني علمت أن نحو ٥٥٪ من سكان المدينة من رواد تلك التُّرُّز والمطاعم، مما أفقد البيوت رونقها، وكاد يقضي على نظام العائلة البديع؛ فلا يكاد أحدهم يأكل في بيته قط، وكثير منهم ينام في الفنادق، وإذا أضافك أحدهم على طعام أو شراب، دعاك إلى أحد تلك المطاعم. أما البيت وما له من حرمة مقدسة، وجميل أثر في تربية النساء، فذاك ما لا تراه هناك قط، وكثير من تلك الأماكن باهظة التكاليف؛ إذ أجر المبيت فيها يفوق ستة ريالات في الليلة الواحدة، على أنك تجد الكثير بين نصف الريال والريال.

وجل المطاعم على النظام «الوقافي» تخدم نفسك وتدفع ما بين خمسة قروش وعشرة في العادة. ركينا سيارة النزهة sightseeing في رحلة مدتها فوق ثلاثة ميلاً في ثلاثة ساعات، وأجرها ريالان، وطفنا بِجُلٍ نواحي المدينة وأطرافها، وزرنا بعض كنائسها القديمة، وبالمدينة زهاء ٣٠٠ كنيسة جلها للمذهب الكاثوليكي، ثم دخلنا الأكواريوم الذي حوى مجموعة قيمة جدًا من السمك، خصوصاً الملون البديع، ولعل أعجبه Turkey fish، وهو ملون، وتحكي أجنبته الديك الرومي.

ثم دخلنا متحف التاريخ الطبيعي، ولا بأس بمحتوياته خصوصاً المعدنية، ثم وقفنا بشواطئ الاستحمام الرملية المدينة، وقد أقيمت حولها الملاهي ودور السينما واللونابارك والمطاعم، وفي ناحية منها جزء صخري من الشاطئ به بعض الجزرillas التي تغص مياهها بسباع البحر، تنفر في الماء، وتلعب مرحة آمنة. وقد اخترقنا أكبر متنزهات البلدة، ويُسمى متنزه القرن الذهبي، ومساحته ١٠١٣ فدان، وتكثر المتنزهات خارج البلدة، لكنها تندر جدًا في وسطها، ثم اعتلينا بعض التلال المحيطة بها، فكان منظر المدينة وبحارها وقنطرتها، وبخاصة القرن الذهبي، رائعاً.

عادت بنا السيارة الكبيرة الفاخرة، ومنها ما يسافر إلى أقصى بلاد الولايات المتحدة، ويفضلها الكثير على سكة الحديد؛ لأنها مريحة جدًا من جهة، ولأن أجرها أرخص بكثير من سكة الحديد، فأجر السفر بها من سان فرنسيسكو إلى نيويورك مثلًا ثمانية جنيهات ونصف، مع أن الأجر في القطار ضعف ذلك. ثم كانت زيارتني للمدينة الصينية China

Town تلك الناحية تُؤوي أكبر مجموعة من الصينيين خارج الصين، وتقع على تلٌّ تنحدر منه الشوارع في ميل مخيف قد ينزل فجأة ٤٥°.



شكل ٢٢: ركوب الأمواج الهاشجة بزوارق نحيلة من أحب وسائل الرياضة في هونولولو.

أخذنا نسير وسط تلك الشوارع فأذكرتني برحلتي في الصين نفسها؛ فالمباني أقيمت على النمط الصيني ذي السقوف الخشبية المقوسة الأطراف، والمسابح من حديد أو ورق ملون، وعنوانات المتاجر في شرائح طولية تزيينها بقع الخط الصيني الجذاب، والحركة هناك ناشطة مائجة بالماركة من الصينيين بعيونهم المائلة المنتفخة، وقاماتهم القصيرة، وأرديتهم العجيبة. وجل ما يُعرض في متاجرهم من الأنسجة واللعب الصينية، ولهم هناك مطاعمهم ومكاتبهم وجرائدتهم التي تُطبع بلغتهم.

وقد تناولت العشاء في إحدى تلك المطاعم، وراقتني منها الأرز ومزيج من نثر اللحم والسمك والسردين وصنوف أخرى لم أعرفها، واستمتعت بالشاي الصيني الأخضر الذي، ثم دخلت دار التمثيل الصيني، فمثلاً أمامنا رواية بالملابس الصينية، على أنني ألفيت التمثيل جامداً تعوزه الحركات الخفيفة، فلا تقاد الممثلة تتحرك قط، وصوتهم في

الحديث والغناء منفر جدًا، والنساء يتكلفن القول في تماوت سقيم، وأدهى ما في الأمر موسيقاهم، وهي عبارة عن طبول كأنها الرعد، أو صوت مجموعة من صفائح تقرع عاليًا، ويصبح معها مزمار مُملُّ النغمات، ويبلغ من علو تلك الجلبة أنها لم نك نسمع من قولهم في التمثيل شيئاً، وقد تصدعت رءوسنا على أن الصينيين كانوا منصتين مأخوذين، وهم معروفون بتقديرهم للبلاغة في القول، والتعمق في الفلسفة، ثم كان التمثيل المثاقل، وأمثال تلك الدور كثير في تلك البلدة.

أويت إلى النزل وطفقت أربعة أيام كاملة أتزود من ظرف سان فرنسيسكو، وخفة روحها، وأنس أهلها، ولن أنس مشيتي خلال تلك الشوارع الأنثقة الخاصة بالجماهير ليلاً ونهاراً، وكانت تستوقفني بين آن وأخر تلك المباني الشامخة التي بُولَغَ في تنسيقها وتجميل مواضعها، وكثير منها يبدو جديداً. وهذا القسم من البلدة هو الذي دمره الزلزال سنة ١٩٠٦، واشتعلت به النار فلم تُبْقِ منه شيئاً؛ لذلك أنشأه القوم من جديد على نظام هو خير من سالفه، وهو القسم الشمالي الشرقي الذي يتوسطه شارع Market.

ولقد رغبت في زيارة الجامعة فركبت لها الفرسى في ضاحية بركلي Berkly، وهناك في بنايتها الفاخر كان يتلقى دروس الصيف زهاء ١٦٠٠ طالب من مختلف الجهات، أما أثناء الشتاء فعدد طلبها ٢٢ ألفاً، وهي من أكبر جامعات أمريكا. ثم عرجت في عودتي على حديقة الحيوان الجميلة، وشاطئ الاستحمام وما حوى من صنوف الألعاب الأمريكية على نمط ما رأينا في مدينة الملاهي في معرض العام الفائت، إلا إنه ثابت وعظيم الامتداد، ومتنوع الألعاب، وتدesh للأموال التي ينفقها الناس هناك، وحتى الأطفال كانوا ينفقون ريالات متعاقبة بدون اكتراش.

ثم عدت مخترقاً بعض ضواحي السكنى، وجل بيوتها من دورين أو ثلاثة، وغالبها بالخشب الذي يُطلى فِيرَى وكأنه البناء الأصم، وذلك خشية آثار الزلزال كثيرة الحدوث في تلك الجهات. ولقد أعددت تجولي ليلتي الأخيرة أستمتع بأنوار المدينة الخاطفة، وحركتها المستمرة، ومتاجرها المعروضة، وحتى بعض البنوك، وبخاصة بنك أمريكا، كانت الأضواء تشرق في بنايتها الفاخر، وكانت الحركة المالية فيه مستمرة، وقد كُتبَ عليه: البنك مفتوح آناء الليل وأثناء النهار.

على أنني لاحظت رغم كثرة الأموال عدداً كبيراً من العاطلين، ومنهم من كان يعترضني ويطلب عوناً مالياً ويقول بأنه معوز لا يجد عملاً، وقيل لي: إن عددهم يناهز عشرة ملايين في البلاد كلها، ومنهم من تدفع له الدولة إعانة مالية حتى يجد مرتزقاً.



شكل ٢٢: همج المحيط الهادئ يصيدون السمك بالحراب.

وكلت أحس بالألم المفعج لأمثال هؤلاء؛ إذ يبصرون بعيونهم مبلغ المتع الذي ينغمسم فيه أقرانهم، والريالات التي تبرد بسخاء هنا وهناك، وهو صفر اليدين لا يستطيع سد حاجة مما اعتاد من صنوف المترفات ومطالب الحياة الأمريكية التي لا تُحدّ. وكان كثير من أبناء السبيل حفاة وفي ثياب مرقعة، لكنهم رغم ذلك المظهر البائس يسيرون مرحين، فإذا سألك أحدهم عوناً ولم تجبه إلى سؤله لم يلحف في الطلب، بل ابتسم وسار إلى سبيله.

وفي صباح الجمعة ١٣ أغسطس قمتُ أودع سان فرنسيسكو التي أَسَسَها الإسبان سنة ١٧٦٩ بوساطة بعض بعوثهم الدينية St Francis، وفي سنة ١٨٢٨ لم يزد سكانها على ٨٠٠، وعندما كشف «مارشال» الذهب حول مجرى ساكارمنتو، هاجر الناس إليها من كل فج، وبلغ التزاحم حدّاً كان الفراش يُستأجر بجنيه في الليلة، وكانت البيضة تُبايع بريال، وبلغت أجور العمال ٢٠ ريالاً في اليوم، وفي عامين بلغ أهلها ٣٠ ألفاً.

ركبت السابحة إلى أوكленد حيث محطة سكة الحديد، وأقلني القطار سائراً صوب الشمال إلى بلاد كندا مخترقاً جبال الركي الشامخة، وكان الجو خلال إقامتي في فرسکو جميلاً أقرب إلى شتاء مصر منه إلى صيفها، بعكس ما قاسيته في هوليود ولوذ إنجليز من الهجير اللافح الذي يفوق في نظري صيف مصر، وذلك كان من ضمن العوائق التي

صرفتني عن زيارة «خانق كلارادو» بعد أن كنت قد اعتزمت زيارته. دخل بنا القطار في سهول مبسوطة قد اصْفَرَ أديمها ببقايا الغلال المحسودة، ومنها متسعات هائلة زُرِعَت بأشجار الفاكهة، وبخاصة البرتقال، ثم أخذت الخضراء الطبيعية تزداد بعد أن سرنا زهاء ثمانية ساعات، وكثير الشجر البري.



شكل ٢٤: في جزائر ساموا ذات الطبيعة الساحرة.

ثم أخذنا نوغل في الربى ونترك السهول والقطار يتلوى صاعداً في جهد كبير رغم ضخامة قاطرته، ثم عمت الغابات النجاد كلها، وهي في القمم من شجر الصنوبر، لكن الأغلبية من الأشجار المورقة، وبخاصة red wood، وكانت وديان الماء الغائرة المترعة

جولة في ربع أستراليا

تبعد في رواء يستهوي القلوب، وفي بعضها شلالات كبيرة. وكانت القرى نادرة تقوم ببيوتها الصغيرة كلها من خشب.

وفي مجاورة المجرى المائي كما نرى كثيراً من منابر الخشب، وهو من أكبر صادرات تلك الجهات، وفي بعض تلك المجرى كانت كتل الخشب الغفل تُوصل بعضها بعوارض خشبية تكون عوامة سابحة هائلة، ومقدمها يُرْصَد في شكل مقدم السفينة في مثلث كي يسهل عليه شق الماء. ومن الشجر الذي كان يقطعه القوم ما بلغ ضخامة هائلة، بحيث كما نرى جزءاً صغيراً من شجرة واحدة يملأ فراغ عربة نقل كبيرة.



شكل ٢٥: قد يزيد الفراش على قامة الرجل في هونولولو.

وكالifornيا وأرجون من أشهر بلاد العالم بذلك النوع من الشجر الضخم شاهق العلو، وهو Red Wood، وكثير من المناشر تقوم إلى جوارها مصانع عجينة الورق من الخشب. وأخذ ذاك الجمال الطبيعي الذي لم تك تمسسه يد الإنسان يزداد حتى قارينا البحر عند بلدة سياتل.

(٤) سياق

وبينها وبين فرسكو ٥٧١ ميلًا، وتقع على جون غائز في الأرض بألسن لا حصر لها، والبلدة مقامة على مدرج فوق الجبال التي تكسوها الغابات في مشهد جميل، وتبدأ الشوارع متوازية من AV 1st إلى 2nd إلى 3rd إلخ، وكل واحد يعلو أخيه بنحو عشرة أمتار أوزيد، وتقع بها متعمدة عليها شوارع أخرى، وأهمها جميعاً شارع Pike مقر الماجر الكبيرة والحركة الصالحة.

ولقد جُبْتُ جلًّا تلك الشوارع، وهي على نمط المدن السابقة، ولعل أجمل ما استرعى نظري السوق العام Public Market، تُعرَض فيه جميع السلع بمختلف أنواعها، وخصوصاً المأكولات، في تنسيق كبير، ونظافة تامة، والباعة يحاولون استمالتك بصياغهم بالثمن، وتحسين بضائعهم، في تزاحم لم أره في سائر المدن الأمريكية الأخرى، مما أذكرني بأسواق الشرق عندي. وكثير من الباعة من الصينيين الذين لهم حيهم في السكنى على مثال فرسكو.

وفي ركن من البلدة ميدان فيه متنزه صغير أقيم وسطه نصب هندي يسمونه Totem Pole، وهو يمثل شجرة العائلة لأهل الأسكن من الهنود الحمر. ويظهر أن الحالة المالية في البلدة كاسدة لكثره ما شاهدت من العاطلين والمتسلعين، وكثير منهم يقف على نواصي الطرق ويستجدي المارة.

(٥) فكتوريا

غادرت سياتل صباحاً إلى كندا، فركبت الباخرة الفاخرة وكانت غاصة بجماهير المسافرين، فسارت بنا فوق أربع ساعات ٨١ ميلًا كلها وسط أجوان وجزر تحدها الربى التي تتوجهها الغابات الكثيفة في مناظر ساحرة، ولا أن رsons على فكتوريا في جزيرة قنكور مررنا برجال المهاجرة فختموا جواز السفر في غير تعطيل، ثم انتقلت إلى نزل جميل فاخر هو Dominion Hotel بريال ونصف في الليلة.

وفكتوريا عاصمة مقاطعة كلمبيا البريطانية مع أنها أصغر من قنكور؛ فسكانها ٦١ ألفاً، وقد أسستها شركة خليج هدسون التجارية منذ أن أقامت قلعتها سنة ١٨٤٣. أقيمت بحائطي في النزل ثم سارعت بأخذ مکاني من سيارة السياحة، فطافت بنا فوق ساعتين بريال خلال المدينة وخارجها، فبدت البلدة هادئة إلى حد موحش؛ لأنها

يوم الأحد من جهة، ولأن بلاد كندا بعيدة كل البعد عن تلك الجلبة وسرعة الحركة التي نشاهدها في جميع مدن الولايات المتحدة. والشوارع هنا أفسح بكثير من الشوارع الأمريكية، لكن مبانيها واطئة لا تُرى من بينها تلك الناطحات التي أُغرِّم بها أهل الولايات المتحدة، وأكثر تلك الطرق حركة ووجاهة Douglas Government وDouglas الذي يوازيه ثم Yates وFort اللذان يقطعنهم، ومن أجمل أحيايئها: البلدة الصينية، وهي شبيهة بتلك التي في فرسکو، لكنها أصغر منها.



شكل ٢٦: نخيل الترجيل على شاطئ وايككى في هونولولو.

ومن المباني التي تجذب النظر دار الحكومة يتقدمها تمثال فكتوريا، وتشرف على جناح من البحر ثم أوتيل Empress الهائل، الذي كُسِيَ من خارجه بالنبات المتسلق الأخضر البديع، وهو مزود بأيات الزخرف والإسراف في التأثيث من داخله، وإلى جواره المتحف الصغير والزورق الشراعي الذي طاف به شاب سنة ١٩٣٠ «٤٠ ألف ميل» حول العالم.

ولقد خرجت بنا السيارة مختقة الغابات خارج البلدة، وهي غاصة بالنبات الطفيلي خصوصًا Ferns. وفي كثير من جهاتها كانت كثيفة الشجر جدًا، وكنا نمر بالبيوت الخشبية الصغيرة منثورة وحولها بعض مزارع الغلال والفاكهه، خصوصًا في

المنخفضات، وأخيراً دخلنا حديقة Butchart، وهو أحد السراة أصحاب الملائين، زود بيته بحدائق بالغ في تنسيقها وتنوع شجرها وزهورها التي أعد لها بيوناً زجاجية، ثم أ美的ها بمقاعد في مختلف الأشكال، وفي عدد لا حصر له، وفي جناح منها حديقة للحيوان والطيور، وفي كثير من المتسعات قد أعد ملاعب للأطفال وأراجيح، ثم فتح أبوابها للجماهير تؤمها للنزة واللعب متى شاءت.

وفي عودتنا زرنا المرصد فوق ربوة شاهقة، وبه منظار يُعد من أكبر ما صُنِع، صُبَّت عدساته في بلجيكا وصُدِّرت إليه قبل احتلال الألمان لمدينة Liege بثلاثة أيام فقط، والمرصد ثاني مراصد الإمبراطورية البريطانية. والمدينة بدت آية في النظافة؛ ولذلك لم أعجب لما علمت أن نسبة وفيات الأطفال أصغرها في العالم إذا قورنت بالبلاد التي تساويها عدداً في السكان، ويطلقون عليها اسم «باب كندا» لأنها نقطة الاتصال بجميع البلاد الخارجية؛ ولذلك يرمزون لها بفتح ذهبي تراه معلقاً على صدور بعضهم، ومحروضاً للبيع في كثير من متاجرهم.

وما كان أجمل دار الحكومة وقد أُضيء صدرها كله بالثريات ليلاً، وكانت تواجهها في البحر سفينة صُنِعت في شكل مسرح هائل زُوَّد بالنقوش والأصوات القوية، وأقيمت مدرج كبير أمامه على الشاطئ جلس فيه الجماهير يستمعون لفرقة الموسيقى الكبيرة، ولغناء بعض المتطوعين من النساء والرجال. أما أصوات الشوارع وملاهيها فقليلة بالنسبة لما تراه في المدن الأمريكية. والبلد يبدو عليه الطابع السكسوني الإنجليزي في بروده وجمود حركته، على أنه خفيف الروح في جملته.

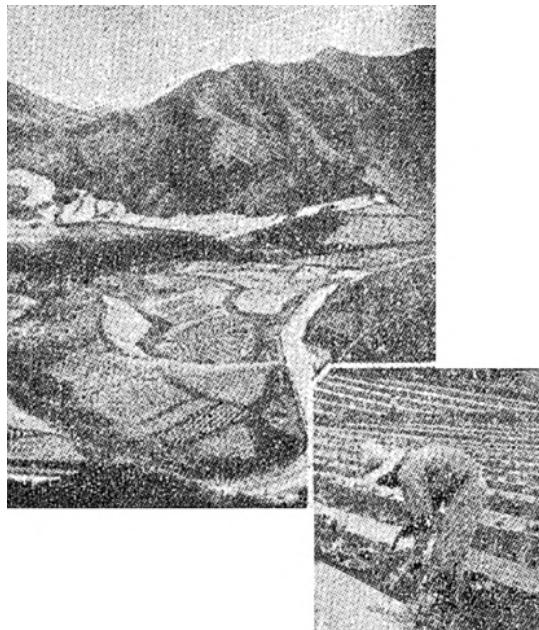
ولا يبدو على الناس هنا مظهر الغنى وتبذيد المال كما كانا نشاهد في البلاد الأمريكية، وكثير من الناس فقراء ويستجدون غيرهم، ويبدو على هندام بعضهم العوز الشديد، وحتى أطفالهم قد اعتاد الكثير منهم ذاك التسول. قمنا الساعة الثانية مساء نستقل الساقية إلى مدينة ثنکوثر.

(٦) ثنکوثر

وكان التزاحم فوق الباخرة كبيراً حتى كانت أكتافنا تتساند، ولم يكن في الباخرة مكان للحركة؛ ذلك لأن هذا الميعاد صادف اليوبيل الذهبي للمدينة؛ ولذلك أقاموا فيها عدة مهرجانات وزينوها، وخفضوا أجور النقل شهرین كاملین، هذا إلى أن القوم يحبون

جولة في ربوع أستراليا

الانتقال، فكلما ستحت لهم فرصة سافروا في نزهة بحرية، وهل أجمل من السير بين أجوان جزيرة فنكوفر ومناظرها الساحرة.



شكل ٢٧: العناية بأرض الزرع في هونولولو.

لبثنا نسير أربع ساعات وسط صخور وجزيرات تكسوها الغابات، وتتلوي بينها الأجوان في مناظر خلابة، وقد كانت الفنادق مكتظة حتى إنّي بعد جهد وجدت غرفة لي في نُزل Dunsmuir، ولا بأس بها، وأجرها $\frac{1}{2}$ ريال. أخذت أجوب أكثر نواحيها حركة في شوارع فسيحة، وأبنية لا بأس بوجاهتها، ومنها ما يعلو عشرين دوراً، وقد زُيّنت بالأعلام والثيريات، وكُتب على الأعمدة: مرحباً بكم، وذلك بمناسبة الاحتفال الذهبي. وأكبر شوارعها التجارية جرانفل Granville يمتد خمسة عشر كيلومتراً، وفي أحد طرفيه نهر فريزر، ومن أجمل المباني عليه فندق فنكوفر الذي تديره سكة حديد كندا الباسيفيكية، وبها فوق ٥٠٠ غرفة. وفي الصباح أخذت مكانني من سيارة السياحة وطفنا

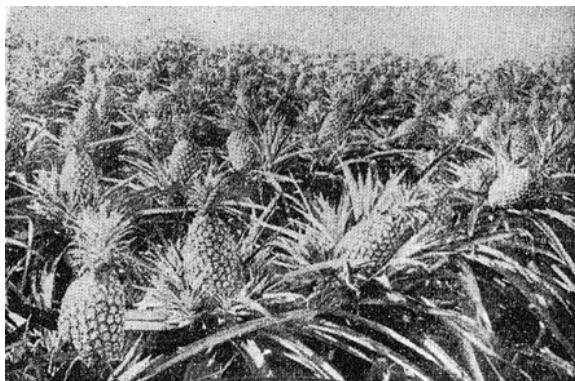
بنواحي البلدة، ومما راقني كثيراً المدينة الصينية، وبها ١٤ ألف صيني يقطنون في بيوت صينية الهندسة، ولهم معابدهم وإعلاناتهم بخطهم العجيب. ودخلنا معرضهم وفيه بوابة فاخرة أقرضتها الحكومة الصينية حتى تنتهي حفلات اليوبيبل، وإلى جوارها المدينة اليابانية وبها سبعة آلاف. وأخيراً وصلنا Dtanley Park في مساحة ١٠٨٤ فدان جلها من الغابات التي أدهشنا مختلف الشجر فيها وضخامته، ومن الشجر ما يزيد محيطه على ٦٠ قدماً ويسمخ عالياً في الجو،خصوصاً Red cedar، وتبدو جذوعه وكأنها حزمة منأشجار التوت على بعضها، ومنها ما ينمو من وسط جذع لشجرة أخرى قُطِّعت من قديم، وهناك شجرة ملتوية نما القسم الأكبر من جذعها أفقياً، وقد نمت عليه شجرتان رأسيتان من نوع آخر.

وأقسام الزهور هناك كبيرة، وتحوي مجاميع بد菊花، وخصوصاً القسم المسمى Shakespeare's house، وفيه تنمو كل الزهور التي ورد ذكرها في مؤلفات شاكسبير. والعجيب أنهم يضعون وسط كل حوض للزهور مصابيح الكهرباء لتنقى ليلاً وتُظهر الزهور في شكل بديع. وقد زُوِّدَ المنتزه باللاعب المختلفة والحمامات وحظائر الحيوان، وبه قسم مخصص للهنود الحمر، وقد أقيمت به قرية هندية نموذجية تتقدمها أنصافهم المخيفة من نقر الخشب، وتبلغ علوها شاهقاً، وهي تمثل الآلهة ذات أجنة تنذر بالرعد والمطر، وعيون محدقة تنذر بوميض البرق المخيف.

وهناك أثر حجري للهنود قُدر عمره بنحو ١٨٠٠ سنة، وفي جانب من المنتزه جزيرة صخرية يسمونها Dead man's island. كان الهنود يدفنون فيها موتاهم، وطريقتهم في الدفن أن تُوضع الجثة في زورق يُعلق بين الأشجار، وتحرسه تلك الأشباح والأنصاب البشعة. والمنتزه يشرف على أجنوان الميناء من عدة مواضع، وكانت تبدو الجزرات والرسي التي تكسوها الغابات في جمال رائع، فالطبيعة في تلك الجهات غنية بجمالها الذي يستهوي المرء أن يقيم في تلك البقاع طويلاً.

أما البلدة نفسها فليست في روعة البلاد الأمريكية، ويبدو على مبانيها القدم، فهي تظهر قائمة غباء، وأهلها أبعد عن وجاهة الأمريكيين في هندامهم ومرحهم، وكثير منهم رقيق الحال معوز محتاج.

ومن المتاجر التي زرناها Stanley من ستة أدوار، وفي أعلىها حديقة سماوية معلقة يصعد إليها من شاء التريض والاستمتاع بمنظر المدينة من السماء. وقد راقني في الدور السادس معروضات الموبيليات تفرش الحجرات فرشاً تماماً؛ فـيُخَيِّلُ إليك أنها في



شكل ٢٨: هونولولو تنتج خير أنواع الأناناس وأوفره محسولاً.

بيت عامر بالسكان. وقد استرعى نظري كثرة الكنائس في قنوكوفر وفكторيا، فقد تجد خمساً منها في شارع واحد، إلى ذلك جماعة المبشرين الذين كنت أراهم في نواصي الطرق يخطبون الناس حاثين على التمسك بـJesus، ومعهم الموسيقى تعزف لهم، وهم يغنوون بين آونة وأخرى، وكانت أرى نسخاً من الإنجيل في كل غرفة من الفنادق هناك. قمت مساء بقطار Canadian National السابعة إلا ربماً أخترق جبال الركي.

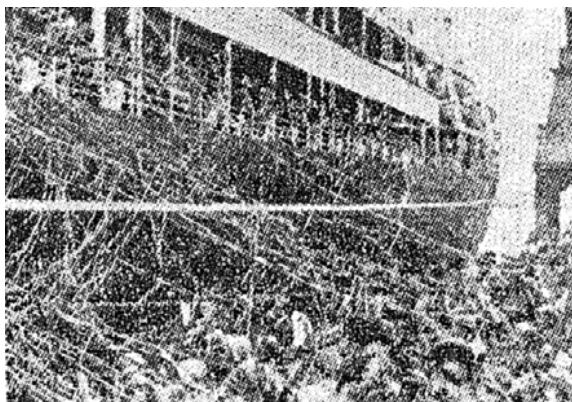
(٧) جبال الركي وجاسپر

فسرنا في متسعات من السهول تغص بالغلال والفاكهه، ثم بدأنا نتسليق جبلاً وطيبة نصف مجده، وما فتئت الأشجار تتزايد والجبال تعلو والقطار يجذُّ صاعداً في جهد كبير، وقاطرته تُعدُّ من أضخم قاطرات العالم وأحدثها. وفي شفق الصباح بدأنا نوغل في تيه من الربي والغابات تطوقها مسالِّ المياه تنقبض تارة وتنبسط أخرى، ودوي المياه فيها كأنه الرعد.

وكم مررنا بشلالات رائعة أفحمنها مكاناً «شلال الأهرام» الذي تتفجر مياهه وهي هاوية إلى الأغوار في شكل مثلث! وكانت بعض الدببة السوداء قيمة الفراء والتياط والموس والألك تُرى هناك على قلة، وقد شعرت أنها آمنة؛ إذ هي في الحرم الذي يُمنع فيه الصيد، وحتى المتواش لا يضربه البوليس إلا بإذن من الحكومة. وقد فاجأتنا مجموعة

من بحيرات فضية آسنة تتعكس ذرى الجبال المحيطة بأشجارها الكثيفة على صفة مائتها في مشهد رائع، وبين آونة وأخرى كنا نرى بعض الثاج الناصع البياض يكسو الربى النائية، ولعل أروعها جميماً Mt. Robson، وعلوه ١٢٩٧٢.

ومن أشهر الأنهر التي مررنا بها: فريزر، الذي كان يتسع في بعض جهاته إلى ثلاثة أمثال نيل مصر، وكانت سابحات الخشب تعوم في سلاسل متعاقبة تجرها اللنشات إلى حيث تُنشر. وكان يهولني النمو الأسفل للنبات الطفيلي، وبخاصة السرخس ferns الذي كثر كثرة عجيبة، وظللت تلك المناظر الخلابة تتزايد سحرًا كلما أوغلنا في تلك الجبال، ومررنا بالقرى النادرة ببيوتها الخشبية الصغيرة حتى كانت الساعة الواحدة والنصف من يوم الأربعاء حين وصلنا: جاسبر، أي بعد زهاء ١٨ ساعة من فنكوفر.



شكل ٢٩: جماهير المودعين يمسكون بأشرطة الورق الملون.

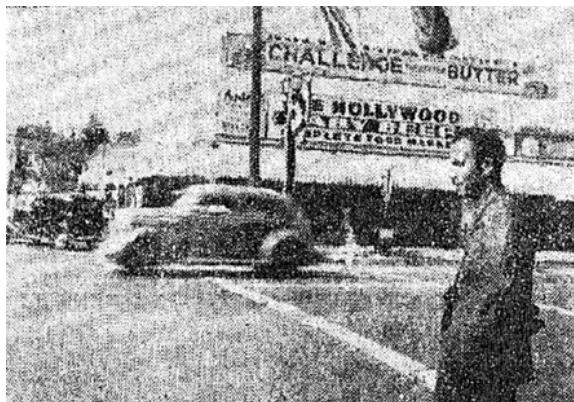
هنا تركت القطار ووَدَعْتُ من حولي من رجال ونساء التقوا بي وعكفوا على التحدث إلى وتمنوا لي رحلة سعيدة، ثم أويت إلى فندق الأهرام الصغير الجميل، وقد آثرته على غيره بمجرد أن رأيته يحمل اسمًا مصريًّا. والبلدة كلها صغيرة تتتألف من مجموعة من الفيلات الخشبية البديعة نُثرت وسط المزارع الطبيعية، وقامت من حولها مخاريط الجبال من كل جانب تُكسى بالخضرة والشجر الصنوبرى، ويُغطى بعضها بالثلوج الوضاءة. وهي هادئة لا تكاد تسمع فيها حركة فتخلالها خلوًّا من الأهلين، ولا يزيد سكانها على ١٥٠٠

وقد اختيرت وسط Gasper National Park الذي أوقفته الدولة متعاملاً للناس جميعاً في مساحة ٤٢٠٠ فدان، وحرمت فيه صيد الحيوان وقطع الشجر وامتلاك الأرض. ولقد عنيت شركة سكة الحديد C. National بتنسيقها في بعض جهاته، وتزويدها بالطرق والفنادق، وبخاصة في مدينة جاسپر؛ لتجذب السائحين إليها، ولقد زرت فندقها الفاخر Lodge الذي أقيم من كتل الخشب الأسطوانية في عدة أبنية منفصلة، ونُسّقت حوله الحدائق أيماء تنسيق، وزُوِّدَ بِبرُكَةٍ صافية الماء للاستحمام، لكن أجره باهظ هو سبعة ريالات في اليوم للنوم فقط. وقد حفظت مكانني في سيارة السياحة برياليين فطافت بنا بعض الجبال المجاورة، ثم خانق Maligne الذي سرنا على جوانبه خمسة أميال وهو يتلوي وتتعقد صخوره وتهوي روائع شلالاته في مناظر نادرة المثال، وعذنا بعد ساعتين ونصف.

ومن أروع الجبال المشرفة على البلدة «كافل» في هرم مدرج تكسوه الثلوج الخفيفة، ومن دونه بحيرة ينعكس عليها في صفاء ناصع، ثم نهر أتاباسكا المختنق الذي يتلوي إلى جانب البلدة ليَّاتٍ شديدة، وتکاد تسده الغابات على جانبيه. وبمجرد نزولنا من القطار استرعى نظرنا عمود Totem Pole الذي يذهب عهده إلى ١٨٠٠ سنة قديماً، وهو رمز سيادة الأسرة عند الهنود الحمر، يحتفظون به ليدل على أنهم من أصل عريق شريف. وكنا نرى قليلاً من الهنود بوجوههم القبيحة، ولو نهم الأغرب الكدر، وقاماتهم القصيرة، وأكتافهم المقوسة.

وعجيب أنهم بعيدون عن أي استعداد للتقدم، فمستواهم العقلي منحط، بطئٌ في الفهم، رغم محاولة الدولتين الأمريكية والكندية تحسين حالهم. وهم لا شك آخذون في الانقراض، وشتان بين عقليةهم الراکدة وسخنتهم المنفرة، وبين الماوي مثلاً بذكائهم المفرط وجمالهم الجذاب. والهنود الحمر قريبو شبه بالصينيين؛ لذلك رُجحَ أنهم وفدوا من الصين عن طريق سيبيريا وألاسكا وانتشروا في الأمريكتين، ولا يزيد عددهم في كندا على مائة ألف.

وكثير منهم يستغلون بصيد السمك وحيوان الفراء وقطع الخشب، ويسود الأسكيمو بلاد الجليدية الشمالية. وقبائل الهنود الحمر عديدة لا تُحصى، وأهمها: الأسكيمو والمكماك Micmac والمنتانيا والتشيبوا والأتاوا والكري Cree والبلاكفيت والهورن إيروكوا. وفي البلدة مدرسة جميلة تحوي السنوات الابتدائية والثانوية معًا، وبعض فصولها يزيد عدده على الأربعين. طفت يومين أجوب نواحيها وأرتقي جبالها وأغالب غاباتها،



شكل ٣٠: في هوليوود بوليفار.

والهدوء من حولي شامل أشعرني بشيء من الوحشة والحزن إلى ضوضاء المدن التي أفتتها في رحلتي هذا العام؛ إذ جلّها كان في البلاد العامرة الصاخبة.

وجاسپر خير مكان لطلاب الراحة والسكون، ولطائفة الكتاب والشعراء والfilosophes. أما الجو في تلك الأحياء فبارد منشط تنتشر سماوئه بالغيوم التي تسُحُّ جفونها أحياناً، ثم تتكشف عن أصوات جذابة من وراء حجب الجبال والغابات القاتمة، والنهار هناك طويل جدًّا؛ إذ كنت أقرأ الجرائد أمام النزل الساعة التاسعة مساء على ضوء الشفق؛ ذلك لأن المكان على خط عرض مرتفع جدًّا هو ٥٤° شماليًا، ولما أن وصلنا جاسپر كانت ساعتنا الواحدة والنصف، لكنَّا أُفيناها هناك الثانية والنصف، فقدمنا ساعاتها واحدة.

وببلاد كندا عريضة جدًّا بها أربع مناطق زمنية، فكلما سرنا إلى الشرق خمس عشرة درجة دفعنا بعقارب ساعاتها خطوة إلى الأمام. أما حياة الليل هناك فمحوشة مظلمة عديمة الحركة، ووسائل التسلية نادرة، فليس ثمت إلا سينما واحدة صغيرة ومقصّفًا أو اثنين، وأذكر أنني كنت أتناول الشاي في أحدهما وإذا برجل متقدم السن دخل في زمرة من الأطفال، يفوقون العشرة عدًّا، وهم مرحون، وقد هجموا على البائع يطلب كلُّ ما يرغب من شراب أو مرطب، ودفع عنهم الرجل جميعاً، ولما أن سأله: أهؤلاء بنوك؟ قال: كلا، بل إنني أحب أن أجمع الأطفال الفقراء وأزورُهم بشيء مما نستمتع به آنًا بعد

آن. فأكبرت فيه هذا الشعور الجميل، وعلمت أن الكثير من هؤلاء الناس خيرون، طيبو القلب، شفيقون بالغير. والمدهش أن الرجل لم يترفع عن الجلوس معهم ومسامرتهم رغم هندامهم الرث، وحالتهم المزرية.



شكل ٣١: في ناحية من هوليوود.

هنا لُمْتُ نفسي وشعرت بشيء كبير من الخجل والخزي؛ لأنني لم أفعل ذلك مرة واحدة مع شريدي الشوارع في مصر، وهم لا يُحصونَ عدًّا، وألّيت على نفسي أن أشرك بعض هؤلاء معي فيما مَنَ الله به علَيَّ من نعيم ومتاع.

(٨) ونبيچ والپریری

قمت بقطار الخميس صوب ونبيچ وأرض الپریری الشاسعة، فكانت المنطقة حبلى غنية بمناظرها وغاباتها وبحيراتها ومجاريها، وبخاصة نهر أثابasca، ثم أخذت الأشجار في القلة والصغر، وأضحت البيئة بستانية كما يسمونها Park، وندرت الجبال، ثم أصبحنا وسط سهول متامية لا تكاد ترى في أرضها تموًجاً ولا حزوناً، وذاك لما أن بلغنا أدمونتون من كبريات مدن مقاطعة Alberta، وظهرت منابت القمح وقد كسا الأرض ببقاياه الصفراء الذهبية. وكان القوم جادين في حصده ودَرْسه بآلات كبيرة غالباً يُدار بالبنزين، والقليل بالخيل. والمدينة مركز هام للغلال وللتعدين.

وقد مررنا بمطارها الهائل الذي لا يزال يخدم وتطير منه الطائرات ألف ميل إلى مناطق التعدين شمالاً، وبها كنوز الذهب والراديوم، ويخلالونها من أغني بلاد العالم. والطائرات خير وسائل النقل إلى تلك الأصقاع النائية الباردة، إلى ذلك فهي مركز لتجارة الفراء وصيد حيوانه إلى شمالها. عدنا إلى الشرق زهاء ٩٠٠ ميل كلها سهول مبسوطة أخْضَرَ أديمها بعشب لا يكاد يستقيم عوده، وظهرت منابت القمح الصفراء خلاله، وكلما قربنا من جدول أو وادي نهر الشجر القصير وحاكي الإقليم الغابات القصيرة المغلقة. والأرض هناك مقسمة إلى مزارع يُسُورُها ذروها ويقيمون وسطها بيتهم الصغير من كوخ أو اثنين، وإلى حافة المزرعة رافعة الغلال Elevator كالبرج المربع تعلوه شبه قبة، وهنا تُخَزَّنُ الغلال حفظاً لها من التسويس أو خطر الفيران. وليس بالمزارع أشجار ولا آبار ولا مضخات هوائية كذلك التي تميز أرض بامباس بأمريكا الجنوبية.



شكل ٣٢: بعض مسارح هوليود في الهواء الطلق يسع ٢٢٠٠٠ نفس.

والمزارع ميل مربع في المتوسط — زهاء ٦٠٠ فدان — وأصغرها ربع ذلك، والحكومة تساعده القوم بإعطاء من أراد ١٦٠ فداناً يخدمها ثلاثة سنين، فإن أفلح تُرِكَت له بقييم زهيدة تتراوح بين ٤-٦ جنيهات للفردان. والغلال تُزرع على المطر ليس غير، فيُبَدَّرُ القمح في مايو ويُحْصَدُ في أغسطس، والمطر يسقط في تلك المدة عادة، وإذا ما فرغ الفلاح من الحصاد وت تخزين قمحه حرث أرضه من جديد وتركها للعام المقبل، وينزل عليها

الثلج شتاء إلى علو ياردة تقريباً، وإذا ما ذاب في الربيع روى الأرض، وبذر الفلاح قمحه الجديد، ولا يتطلب المحصول خدمة، بل ينمو بعد ذلك وحده حتى ينضج. وقمح كندا أحسن أنواع العالم قاطبة ويسمونه Grade 1، ولا يزال يحتفظ في الأسواق بأعلى ثمن، وقد بلغ هذا العام ٨٥ سنتيماً للبوشل، وقدر محصوله بنحو ٢٥٠ مليون بوشل - أي نحو ٥٠ مليون أردب - ولم يكن محصول هذا العام وفيراً بسبب الجفاف الذي حل بالأراضي وندرة المطر، لكن الله عوضهم خيراً فرفع قيمة الثمن عما كان عليه من قبل، وقدروا متوسط المحصول للفدان بنحو ١٠ بوشل، مع أن العادة كان بين ٣٠ - ٢٠ بوشل.

لبثنا اليوم كله نشق تلك البريرى الميسوطة المملة، وكان ترابها يخترق كل شيء مما ذكرني بتراب صعيد مصر، وقد اشتد الحر وسط النهار جداً، ونزل في الليل إلى ما يقرب من برد شتاء مصر. وقد كان الحر منذ شهر بالغ الشدة هنا حتى مات بسببه الكثير؛ إذ زادت الحرارة في الظل على ١١٠° ف. والعجيب أن الشتاء الماضي كان قاسياً أيضاً؛ إذ نزلت الحرارة ٥٠° تحت الصفر، وكلما قاربنا وننبع زاد انبساط الأرض، واسودَ أديمها، وجاد نوعها، فهي خير أراضي البريرى خصباً، وتمتد شمالاً زهاء ٣٠٠ ميل، وجنوباً إلى مساحات بعيدة في الولايات المتحدة.

وكان يُخيّلُ إلى أن المزارع خالية من السكان تماماً؛ إذ قلماً كنا نبصر بالناس فيها، ذلك لأنها لا تتطلب عملاً كثيراً، على أن العمال قد يُوظفون هناك في مواسم الحصاد، وأجرهم نصف جنيه في اليوم، ويرُوّدون بالمسكن مجاناً، ومع ذلك فهم غير قانعين ويرغبون في المزيد. والقوم هنا ظرفاء، ويهملون إلى العشرة وإكرام الغريب جداً، وفيهم شيء كبير من صفات البدو والرعاة.

ومما كان يدهشني جداً مستوى أطفالهم من الذكاء والرجولة، يتحدث إلى الطفل وهو عليم بكل ما أحاط به من ظروف الأرض والجو والإنتاج، اعتاد السفر بعيداً عن بلده، واعتمد على نفسه في كثير من الأمر ولما تبلغ سنه العاشرة، فكانت أغبط القوم على تلك التربية الاستقلالية، وأسف لنصيب أبنائنا منها. والمدارس هنا تبدأ بالروضة، ثم بالفرق الائتمي عشرة، وبعدها يدخل الطالب الجامعة، ولا يتعلم لغة أجنبية إلا في الفرقة الثامنة فقط، وهي هنا إما الفرنسية أو الألمانية أو اللاتينية.

أخيراً بعد ثمان وعشرين ساعة دخلنا وننبع بعد أن اخترقنا مديرية ساسكاشوان، ووقفنا ببلدة ساسكاتون الكبيرة، ثم أوغلنا في مديرية مانيتوبا وقدمنا ساعاتنا واحدة،



شكل ٣٣: هوليود أثناء الليل.

وفي ونيج حلت نُزل ونيج الجميل مقابل ريال لليلة. والمدينة مقامة وسط تلك السهول في شوارع فسيحة يزين أغلبها الشجر المزدوج، وأكبر شوارعها Main وPortage، وبها غالب المتاجر ودور السينما والمقاهي والمطاعم.

وخير ما يُزار بها City Park، وهو خارج المدينة، هو حديقة حيوان صغيرة ومجموعة غنية من الظهرور البديعة، ثم بعض البحيرات للسباحة وملعب الرياضة المختلفة. والبلد تقع عند تلاقي نهري Red وIssinaboin، وهي وإن كانت من البلدان الكبرى إلا أن المظهر الريفي يسودها، فهي أقل وجاهة من البلدان الساحلية، وأهلها أبسط هنداً وأرق حلاً، وهم على جانب كبير من كرم الطبع والظرف.

(٩) ميناپلس وسنت وبول

قمت التاسعة صباحاً صوب الجنوب إلى ميناپلس مسافة ٥٠٠ ميل قطعناها في ١٤ ساعة، فأخذنا نشق السهول ذات التربة السوداء، والسطح المنبسط، والخصب الظاهر في كثرة العشب في كل مكان. والحق أن أرض البريري لا يعوزها إلا الماء والأيدي العاملة الرخيصة القانعة حتى تغل من الإنتاج النباتي أضعاف ما هي عليه اليوم؛ إذ إنها لا تستطيع إلا زرع الغلال والعشب شهوراً قليلة، وتترك بوراً باقي العام.

وحيث كانت تبدو البحيرات أو الجداول كان النبت يزداد، والشجر يتکاثف، فيصبح المكان أشبه بغابة مغلقة. وبعد ساعتين ونصف وصلنا حدود الولايات المتحدة، وتقديم رجال الجمارك وقتلوا أمتعتنا في رفق، ثم من ضابط المهاجرة وختم الجواز. وكلما تقدمنا جنوباً كثر الشجر وسط تلك البيريري المتداة، وزادت الآلات الزراعية في الحقول، وتضخمت مخازن الغلال وروافعه Elevators.

ولقد كان هجير الحر شديداً لافحاً طيلة اليوم، مما فاق أرداً أيام الصيف في مصر شدة، وذلك رغم المراوح التي زُوِّدَ بها القطار، وصنابير الماء المتأوج في طرفي كل عربة نحتسيه في أكواب من ورق صُنِعَتْ في أسطوانات فوق الصنبور. والمقاعد في هذا القطار استرعت نظري بوثير فرشها من القطيفة الثقيلة، والمقاعد فردية كبيرة «فوتيل» تدور على محور، فيحركها الجالس في أي اتجاه شاء، ومنها صف في كل جانب من العربية، أما وسطها فترتك فسيحاً وقد زُوِّدَ بالبسط الثمينة ومطاقي السجائر الأنيقة، بحيث تشعر وكأنك تجلس في صالون أو مقهى فاخر، وعربة الطعام والمرطبات متصلة بالقطار نشتري منها ما نريد.

رغم كل ذلك نَفَصَ الْحَرُّ علينا عيشنا، فكاد القوم يخلعون كل ثيابهم وبيدون عرايا، وقد ابتلت ملابسي كلها عرقاً. وأظرف شيء في قطارات الولايات المتحدة وكذا أنها كلها ذات درجة واحدة، لا فرق فيها بين غني وفقير، تنتهي من المقاعد ما راقي، على أنني لاحظت في المسافرين من طبقة الفقراء حسن الذوق، فإذا كان من العمال من يرتدي ملابس العمل الرثة لا يتقدم وسط الجلوس، بل ينتهي جانباً من العربية هو وإخوانه، على أنك قلما ترى أحدهم في قذارة تنفر منها.

أخيراً أقبلنا على طلائع بلادة كبيرة بأضوائها الخطاطفة، وهي ميناپلس، ثم قام القطار إلى شقيقتها سانت پول التي وصلناها الحادية عشرة مساء. حللت نُزُل Ryan الكبير الفاخر بريال ونصف، ونمط ليالي نوماً عميقاً، وفي الصباح أقلتني سيارة السياحة مقابل ٢,٥ ريال لنطوف المدينتين الشقيقتين Twin Cities، وهما تقعان على نهر مسسيبي العظيم، وكنا نخال النهر هو الفاصل بينهما، والحقيقة غير ذلك؛ إذ النهر هناك يلتوي في شكل S.

في الطرف الشمالي تقع ميناپلس على جانبي النهر، وفي الطرف الجنوبي تقع سانت پول، والمسافة بينهما تفوق عشرة أميال؛ فهما ليستا متقابلتين. وعند منتصف هذا الالتواء قنطرتان يخترقهما الترامُ فيصلُ ما بين البلدين، ولكن منهما عدة قناطر تصل بين نواحيهما المختلفة؛ ففي ميناپلس وحدها عشرون قنطرة.



شكل ٣٤: وسط المناظر الساحرة فوق ذرى جبال الركي «جاسبر بارك كندا».

وأكبر البلدين ميناپلس، وسكانها دون نصف المليون بقليل، وهي مشتقة من كلمتين: ميني هندية معناها المياه، پوليس الإغريقية معناها مدينة. وقد حملت اسم مدينة المياه؛ لأن بها إحدى عشرة بحيرة، مررنا بخمس منها، وقد رُصِفت جوانبها وحَفَّها الشجر الكثيف، وفي بعضها جزائر كثيفة الغابات، وفيها تقام ألعاب الماء من سباحة وزوارق Yakhting ومزالق للجليد شتاءً. وقد علمت أن المنطقة المجاورة لميناپلس بها عشرة آلاف بحيرة وسط غابات الصنوبر.

أما مجموعة المتنزهات التي حول البلدة فذاك ما لم أره في بلد آخر، وقد تُرَك غالباً في حالته الطبيعية من غابات وجداول وأحراش يأوي إليها المتربيضون، ويقيمون فيها خيامهم، ويستمتعون بمناظر طبيعية جذابة. ولقد قررَ لكل مائة نفس هناك فدان من المتنزهات، وتلك لا شك نسبة لا نراها في بلد آخر. وتدهش إذ تعلم أن غالباً تلك المتنزهات هبات من بعض الخيرين هناك.

وعلى جانب كثيرة من تلك المتنزهات والبحيرات تقوم مساكن الأثرياء في قيلات خشبية بدعة تُطْلَى بالجص الملون في أشكال الرخام والأجر والحجارة، ولا تكاد تجد اثننتين متشاربين في الهندسة؛ لذلك لم أعجب لما علمت أن ميناپلس تُسمى: مدينة البحيرات والمتنزهات والبيوت الفاخرة. وجل المسافة بين البلدين متنزهات على هذا النمط،



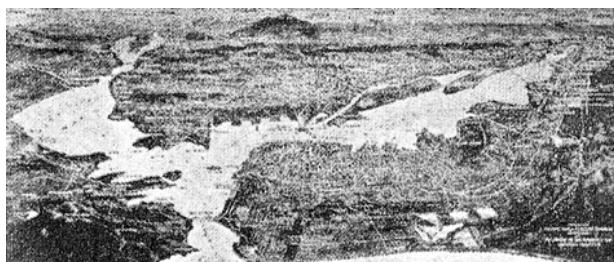
شكل ٣٥: مروض السباع في هوليوود.

وبعضاً يحمل أسماء هندية مثل بحيرة كتشي كومو، وعلى جوانبها رأينا مجموعة من أكواخ مخروطية من الثرى منثورة إلى مسافات بعيدة، وفيها كان يدفن الهندود متواهم، ويقيمون نصبًا صغيرًا على ذروة كل منها، والبيض لم يحلوا تلك الجهة إلا منذ ٦٥ عامًا، وهو عمر تلك المدينة الحقيقي.

أما ليات مسسيبي وكثافة الشجر على جانبيه، فذلك قد أكسبه جمالاً فائقاً، وإن كنت إحال النهر أعظم من ذلك ماءً وأفسح مجرى، إذ ألفيته صغيراً لا يبلغ نصف نيلنا اتساعاً، ومائه شحيحة آسن، وهو هناك أشبه بخانق صخري مشرف الجوانب، في جزء منه شلال صغير يُسمى Minnihaha و Hiawatha. ومن أروع المباني التي مررنا بها جامعة منسوتا في امتداد يفوق الوصف، ويلتحق بها ٢٧ ألف طالب، وتُعدُّ ثالثة جامعات

الولايات المتحدة، ورابعة جامعات العالم بعد فرنسا، وكلمبيا بنويورك، وبركلي في سان فرنسيسكو، وبها مدرج المحاضرات أَعِدَّ بنحو ٦٥ ألف مقعد، ثم الكلية الحربية، وهي فرض على كل طالب أن يجتاز دراستها لِيُلْمَ بالشئون الحربية الأمريكية كلها.

ثم زرنا أحد مصانع فورد التي تُخرج ٥٢٥ سيارة في اليوم، وقد أقيمت على جانب المسيبي، وهنا حُسِّنَ كل مائه في خزان يُسْتَمد من دفعه قوة الكهرباء اللازمة للمصنع. ووقفنا بأكابر مطحنة للغلال في العالم يشرف على النهر بمداخنه الهائلة، ويُخْرِج كل يوم ٩٠ ألف برميل من الدقيق.



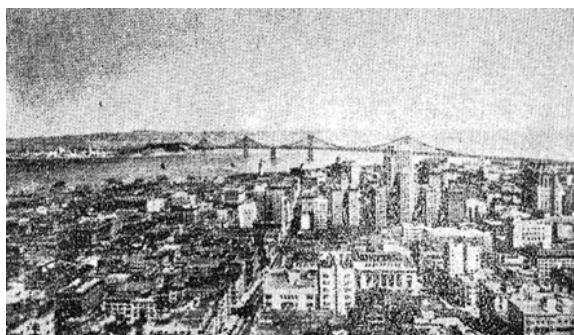
شكل ٣٦: ميناء سان فرنسيسكو بشعابها العديدة.

ومينapolis تفاخر بأنها مدينة الدقيق Flour City، وفي مخازنها وروافعها يُطحَن ٦٠٠ مليون بوشنل في كل عام.

وجو المدينتين صناعي بكثرة الماخن وغبرة الجو الذي كسا برماده المبني بلون قاتم، والصناعة التالية للغلال هناك بذر الكتان Linseed. أما مباني المدينتين فعظيمة شأن سائر البلاد الأمريكية التي تميل إلى نظام البلوك والنواطح، وأعلاها ناطحة تعلو ٣٢ دوراً وكأنها البرج، ودورها الأرضي ذو مساحة عظيمة وحدائق منسقة، والناطحة تقوم وسطه كأنها مئذنة المسجد، وهي رمز لوشطن، والمدينتان متتشابهتان إلا أن سان بول يبدو عليها القدم في ضيق شوارعها، وقصر مبانيها، واغبار لونها، وهي أصغر امتداداً، فسكانها نحو ربع المليون. وفي حديقة من مينapolis لوحه وضعَت على خط ٤٥° شمالاً، وهو منتصف المسافة بين خط الاستواء والقطب الشمالي؛ مما جعل البلد قلب نصف الكرة الشمالي.

وكثر من الناس هنا يبدو عليهم مظهر الغنى، وحتى العامل في ثيابه المغبرة يضع يده في جيبه ويخرجها قابضة على مجموعة من أوراق الريالات يدفع منها ثمن ما اشتري في غير اكتراش، ونحو ٥٦٪ من السكان يملكون البيوت التي يقطنون فيها، وجلهم يحرزون سيارات هي مطبيتهم في الانتقال. ولقد أدهشني حشد السيارات خارج مصنع فورد، وهي كلها ملك للعمال الذين يستغلون داخل المصنع، فإذا ما فرغا من العمل استقلُّ كُلُّ منهم مطبيته، إلا أنني إلى جانب أولئك كنت أرى من الفقراء والمتسللين الكثير، وبخاصة في سانت بول. والحي الفقير هناك قذر، وأهله يبدو عليهم البؤس مجسماً، وأمريكا بلد المتناقضات ترى الغني المفرط إلى جوار البائس المسكين.

قمت صباح الثلاثاء إلى شيكاغو وركبت القطار السريع المفتخر الذي يسمونه Fephyr، وهو عبارة عن عربة واحدة ممطوطة جدًا في شكل الحوت، وفي طول خمس عربات كاملة، وهو من خارجه من الألミニوم الفضي البراق في ثنيات طولية متعرجة، ويجري بسرعة ٧٠ ميلًا في الساعة بقوة الكهرباء، وقد قطع المسافة بين البلدين في ست ساعات ونصف. أما فرشه من داخله ففاخر إلى درجة كبيرة، وإذا حل ميعاد الطعام تقدم الخادم وثبت منضدة صغيرة أمام كل مقعد، وقدم الطعام والشراب المطلوب، ونحن خلال ذلك نسمع الراديو البديع الواضح، وبه أمكنة فخمة للغسيل والتواالت وصنابير الماء البارد والساخن.



شكل ٣٧: سان فرنسيسكو بناطحاتها العديدة.

أما ماء الشرب فمثلاً في أكواب من ورق، فدهشت وقتلت إلى أي حد سينبغ الترف بهؤلاء القوم المتعمدين الذين لا يدخلون وسعاً في توفير وسائل النعيم والراحة للجمهور كله! أما الطريق فقد بدأ سهولاً كثيرة المناقع والمسايل المائية. ولقد لبثنا زهاء ثلاثة ساعات بجانب نهر المسيسيبي، وقد ظهر هنا باتساع عظيم، ضفافه بربة مهملة كثيفة الشجر والعشب، أما اختناقه عند سانت بول فذاك لأنه يدخل في خانق حجري يبدأ من شلال سنت أنتوني المجاور لمينيابولس؛ ولذلك لا يصلح للملاحة شمال ذاك الشلال.

ثم أخذت منابت الذرة تبدو في متسعات إلى الأفق، وكانت أكdas الأسمدة البيضاء منتورة في الحقول، وإلى جوار ذلك بعض المراعي من البقر والخنازير، وقليل من الغنم في مزارع مسورة، ثم بدت التلال الجيرية المتعددة، مما أكسب الأرض مظهراً غير مظهر البيرري؛ إذ كثر شجرها وترُكَ مهملًا في مساحات كبيرة، وزاد تموج الأرض بحيث لا يصح تسميتها سهولاً، وكانت مضخات الهواء تظهر عالية في الحقول، مما أذكرني بسهول بامباس أمريكا الجنوبية، إلا أن الأرض هنا كثيرة الشجر غير مملة المنظر كما هي حال البارباس، والبيوت مبعثرة وسط الحقول، وجلها من الخشب الكثير هناك.

(١٠) شيكاغو

ولما أن قارينا شيكاغو كثرت القرى المكتظة، فذاك أمر هالني إلى أقصى حد؛ فلقد كانت تفرش الأرض إلى الأفق، وتقوم المصانع وسطها، والقضبان تجري عليها بعضها فوق بعض، وقد نرى ثلاثة قطارات الواحد تحت أخية، ولما لم يبق على المدينة سوى ستة أميال أغير الجو، وساده الدخان الذي كسا المباني لوناً قاتماً منفرًا رغم ضخامتها، وأخيراً ظهرت وسط ذاك الظلام الصناعي ناطحات السحاب في كثرة هائلة، حتى خُلِّيَ إلى أنها فاقت تلك التي في نيويورك، ثم أوغل القطار في سلسلة من قناطر ملتوية حتى دخل سراديب لا حصر لها جُلُّها تحت الأرض، وهي محطة شيكاغو الهائلة. ومن تلك الناطحات ما أعدَ في كل دور جرارات للسيارات، فإذا أردت الصعود إلى بيتك رُفِعتَ بسيارتك مهما علا الدور الذي أنت فيه.

حللت فندق Midland Club Hotel الرائع الفخم، وأجره نصف جنيه في الليلة. وشيكاغو تُعدُّ من أغلى البلاد على الغريب، وما كدت أنزل لأجوب بعض نواحي البلدة حتى قصف الرعد، وأبرق الجو، وسَحَّ المطر وابلاً عاق حركة المرور، لكنني رغم ذلك

نزلت أخوض بعض تلك الأرجاء، فكان أثر البلدة ونواطحها المرصوصة الشاهقة بالغاً حتى إني نسيت إلى جوارها نيويورك وعظمتها.

أنظر إلى البناء فأجده يعلو بأسقاً إلى السماء في مرمر براق، وقد زُود بالآبواب الحاسية الثقيلة الرائعة، وثمن باب واحد في ظني يقيم بيته من بيوتنا. والعجيب أنهم ينيرون تلك النواطح بإسراف شديد، ثم يسلطون عليها أشعة بيضاء تجعل منظرها للوافدين رائعاً، وترى الطابق الأسفل لها عبارة عن شوارع نُسقت بها المتاجر ومعرضاتها أيمًا تنسيق، وفي أركانها الرواق نُمرَّت، وبعضها بلغ الأربعين. والحق أن ذاك المشهد الهائل لا يُؤْلَم ما يأخذ على الوافد لُبَّه، ويُكَاد يُذهله فلا ينسى ما خلفه ذاك في مخيلته من عظمة وفخامة لا يداريها أي بلد في العالم سوى نيويورك.



شكل ٣٨: إحدى قنطرتي سان فرنسيسكو.

فمن تلك الناطحات التي راعتنى Field، بها ٤٢ دوراً، والبرج يعلو فوق ذلك ١٩ دوراً، وهو أحدث الأبنية، ولقد اعْتَلَتْ قمته فكان مشهد المدينة رائعاً، ثم بناء Board of Trade وأدواره ٤٤، والدور المخصوص للبورصة مزود بأحدث النظم العالمية، ويعُدُّ أحسن من سائر نظائره في الدنيا، ويشرف عليه تمثال Ceres إلهة القمح.

وأروع ما ترى تلك الناطحات في مشجان أفنيو؛ حيث تبدو في صف مستقيم تمتد إلى الأفق، وتناطح ذراها السحاب، وتشرف كلها على البحيرة. والشارع قد زُودَ

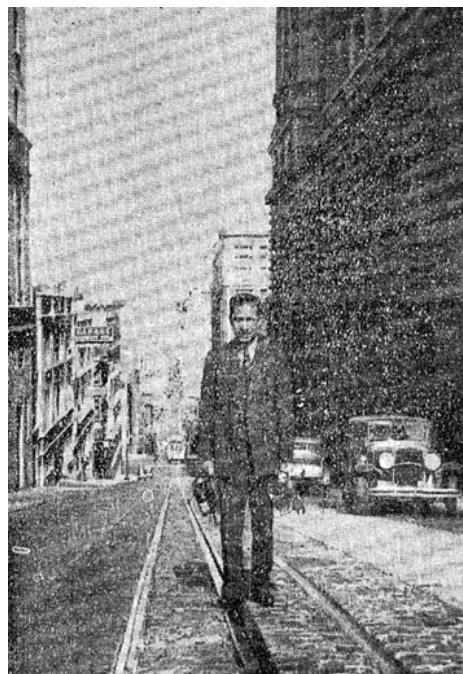
بالمتنزهات البدية، والأرض رُصِفت بالسلح، ورُسِمت الخطوط التي تحدد للسيارات سيرها، ونظام السير يكفل أربع سيارات تسير متباورة إلى اليمين وأخرى مثلاً إلى اليسار، وإذا أُعطيت إشارة المرور تحركت سيارات جانب واحد فقط، ثم يُوقف هذا ويتحرك الآخر، وذلك ليُمْكِن المارة من اختراق الشارع على دفعتين، ولو لا ذلك لاستحال على الناس المرور لكثرة السيارات التي تسد الطريق سداً في كل دقيقة.

ولشدَّ ما كانت دهشتني لـما أن علمت أنَّ أجر غسل البيت الواحد من تلك الناطحات ٦٠٠٠ ريال، وهو يحرصون على غسلها ليزيلاً عنها تلك الطبقات السوداء التي يخلفها فوقها دخان المصانع التي تغص بها شيكاغو. ومن الأبنية الفاخرة «لوكاندة استيفنز» أكبر فنادق الدنيا؛ إذ بها ٣٠٠٠ غرفة، وفي كل غرفة حمام وتوابعه، ثم «أثر الحرب» الذي كلفهم ٣ ملايين ريال، وبُولُغ في نقهته وتأثيثه إلى حد لم أر نظيره في مكان آخر، ثم بناء «متحف التاريخ الطبيعي»، وهو على نمط متحف ميونخ في ألمانيا، وإلى جواره دار الاستديوم الذي يسع ١٥٠ ألف نفس، وقد كلفهم ٥ ملايين ريال، ثم معهد الفلك Planetorium الذي يحكى معهد برلين، وتُعْطَى المحاضرات الفلكية للجمهور كل يوم. ومن أخر شوارعهم مشجان أفينو على البحيرة، وشارع ate الذي يشق قلب البلد ويوازي مشجان، وهو مقر المتأجر الفاخرة، ودور الملاهي، ومستراض المحبين طوال الليل. وكثير من شوارع البلدة منمرة على نمط نيويورك، ويقسمها شارع مادلين إلى East وWest town. ويشق المدينة نهرٌ صغير، هو نهر شيكاغو، يصب في البحيرة، وقد أُقيمت عليه عشرات القناطر الثقيلة، وقامت على ضفافه الناطحات.

أما عن المتنزهات المنسقة الفسيحة فذاك قد فاق كل حدٍ، ففي شيكاغو ١٦٩ متنزهاً، ومن أخرها Lincoln، ومساحته ٦٠٠ فدان، وفي قسم منه حديقة الحيوان، وبها مجموعة غنية جدًا، وبخاصة السباع، ثم حديقة النبات وتربيبة الزهور في جانب آخر.

وعلى جانب من تلك المتنزهات تطل بيوت السكنى، وجُلُّها فاخر لا يجاوز أربعة أدوار، وبخاصة في القسم من شاطئ البحيرة المسمى جولد كوست، وسُمِّي كذلك لأنَّه مأوى الأثرياء «المليونيرز»، وهناك ناطحة يسمونها بيت المليونيرز بها ١٤ دوراً، وفي كل دور منها مسكن لليونير.

أما البحيرة نفسها فهائلة كأنها البحر الراخر مرتفع الموج كثير التعرجات، وقد أُقيمت عليها حواجز الأمواج والرافع، ونسَّقت الطرق والحدائق، ولا عجب فهي رابعة



شكل ٣٩: أغلب شوارع سان فرنسيسكو منحدرة هكذا.

بحيرات العالم العذبة، ولا يزالون يزيدون مساحة الأرض على حسابها، ويمدون الطرق إلى جوارها حتى بلغت ٢٦ ميلًا، وكنا نرى وسط الماء بعيدًا منا أربع محطات لرفع الماء وسقي المدينة. وكثير من الشواطئ مدرجة رملية تقوم عليها المسابح التي يؤمها خلق كثير.

ثم كانت جولتي في الحي الزنجي، وكثير من أبنيته فاخر، ومنهم كثير من المليونيرز المثقفين. وفي البلد ٢٣٤ ألف زنجي أسود جلُّهم يقطنون بجهة واحدة «حي كولنزا»، وقد مررت بأكبر فنادقهم Ritz، وهو أجمل فنادق الزنوج في الدنيا، وفي هذا الحي كثير من الكنائس؛ لأن السود متغصبون للدين جدًّا، ويؤمنون الكنائس دائمًا.

ثم كانت زورتي للجامعة وأبنيتها المرصوصة إلى مدار البصر، والمكتبة العامة، ولها ٥٢ فرعاً منثورة في عرض المدينة، وكذلك معرض الفن الجميل، وبه قسم مصرى حوى بعض التماشيل والجثث والحلبي والتوابيت الذهبية البدعية. بلد هائل ما كنت إخاله بلغ هذا الحد الذي فاق سائر بلاد الدنيا اللهم إلا نيويورك، فأنا تلمس آيات الثراء والغنى بمجرد النظر إلى مبانيهم وفنادقهم، وبخاصة حول المنطقة التي يسمونها The Loop، وهيسمى كذلك لأن القطار المرتفع Elevator يطوقها.

وذاك القطار من الأعاجيب؛ فهو يسير إزاء الدور الثاني أو الثالث من البيوت، ويشق أمهات الطرق وهو مرفوع على شباك ثقيلة من الحديد نمر نحن والسيارات وترام الأرض من تحتها، وليس له نظير في العالم إلا في نيويورك. إلى ذلك فقد زُوِّدت البلدة بمجموعة من خطوط حديدية تحت الأرض، وكم كنت أقف مبهوتاً عند مفارق بعض الطرق حينما كنت أرى ثلاثة مجتمعين من قطارات يسير الواحد فوق الآخر، والسيارات تسد الطريق سداً، ولا ينقطع سيلها ثانية واحدة، والمارة على الأرصفة العريضة جماهير متلاصقة الأكتاف! وليس ذلك بعجب إذا علمت أن سكان شيكاغو قاربوا الأربعة الملايين.



شكل ٤٠: سان فرنسيسكو وأضواؤها ليلاً.

أما الجلبة التي تسمعها أينما كنت في صوت كالرعد، فتنغص على المرء نومه إلا إذا اعتادها. وحياة الليل خصوصاً حول اللوب تسترعى النظر، وبخاصة كثرة الجماهير الذين يسرون في الطرق الليل كلها، وخصوصاً السيدات، حتى كان يُخيَّل إلى أن ليس للقوم بيوت يأوون إليها سوى المطاعم والمقاهي ودور السينما وأرصفة الشوارع.

وغرامهم بالسينما بالغ الحد؛ فأجر الدخول زهاء ٣ ريال، ومع ذلك لا تكاد تشق لك مكاناً وسط الجماهير الدافقة عليها، رغم أن السينما متواصل نهاراً وليلاً، وكلما انتهت الرواية بدأت من جديد. ولقد دخلت أكبر تلك الدور Palace Theatre، وشررت التذكرة وزاحمت وسط الجماهير الغفيرة، ولبثنا وقوفاً في ردهات الملهى نحو ساعة حتى جاء دوري في الدخول؛ ذلك لأن الأماكن كلها مشغولة، وكلما خرج فريق من المتفرجين استُعيض بغيره من المنظرين.

ولا أدرى من أين لهم تلك الأموال البالغة التي ينفقها الواحد منهم حتى العمال والأجيرات؛ إذ ينفقون الريالات المتتابعة، على أني لما مررت بأحيائهم الفقيرة تألفت جداً لأن جل قاطنيها من الحفاة والمتسولين يأowون إلى بيوت قذرة مهملة متهدمة، وقلما يرى الغريب تلك الأحياء، بل تأخذه عظمة القسم المستحدث الرائع من المدينة، فیُشغَل به عن غيره، والمدينة تفاخر بأنها أجمل المدن وأكثرها تقدماً.

أما مستوى الثقافة فهو مرتفع جداً، ويُحِيل إلى أن الفضل فيه راجع إلى الصحافة أولاً، وإلى دور السينما ثانياً، فالأولى تزود كل الطبقات ببدائع المصورات والمقالات والعلومات التي تناسب عقليتهم، والثانية تجذبهم من سائر الطبقات وتتبئهم عن العالم الخارجي؛ فتوسيع بذلك مداركهم. ولا تكاد ترى طفلاً أو رجلاً أو امرأة يسير بدون مجموعة من المجالس والجرائد، فالكل قراء لها بشكل يستلفت النظر.

أقمت في البلدة ثلاثة أيام، ولم يسعفي في تفقد الكثير من أحيايئها سوى سيارة السياحة، التي لبست تجوب بنا خمس ساعات حتى استوعبنا جل ما يهم السائحين أمره من المدينة. ولما أن عدت عصراً ركبنا الترام المرتفع إلى منطقة عرض حيوان المرعى وشرائه، ثم مصانع نبجه وإعداد اللحوم، وهي التي كانت عظمة شيكاغو المالية، ويسمونها Union Stock Yards، وتقع في جنوب البلد ما بين شارعي ٤٢-٣٩ مساحة قدرها ٤٠٠ فدان، فظلّ القطار طويلاً يسير ومن دونه إلى الآفاق مربعات من حواجز خشبية ملأى بالحيوان «أبقار وخراف وخنازير».

وإليها تقد ألف سيارة كبيرة من أنحاء الولايات المتحدة كلها محملة بالحيوان الذي يُعرض هناك، فيفيد تجار الجملة مع الخبراء، ويشترون ما قيمته مليونان من الريالات، أي أربعمائة ألف جنيه في كل يوم، وفي وسط المنطقة تنتشر مصانع اللحوم الهائلة، وأكبرها «سوفت وشركاه، وأرمي وشركاه»، وهما يبيحان للناس زيارة المصنع تحت إشراف دليل خبير يقودهم شارحاً كل شيء.

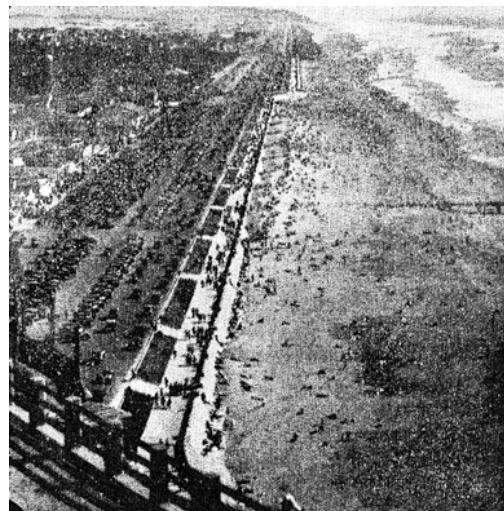
مجازر شيكاغو

على أنني وصلت هناك بعد الميعاد؛ إذ توقف الزيارة بعد الثالثة مساء، فاضطررت أن أرجئ سفري يوماً، وعدت في الصباح ودخلت مصنع سوفت الهائل الذي يقع في «الميل المربع» المعروف بأنه أكثر بقاع العالم حركة تجارية، ومساحة المصنع وحده ٥٨ فداناً، ويبتاع في كل يوم من الحيوان بمليون وربع ريال. استقبلنا الدليل وأقعدنا في غرفة الانتظار، وقدم لكل منا كتيباً مصوّراً عن المصنع، وعرض علينا مجموعة من كرتات مصورة عن المصنع أعدّت لكتابه البريد على المكاتب المرصوصة هناك.

ولما تجمهر عدد كبير من الزائرين تقدمنا الدليل وسار بنا إلى قسم الخنازير — والمصنع أكبر جهات العالم إنتاجاً للحوم الخنازير Ham & Bacon — فبدأ بقسم الذبح. وهنا رأينا منظراً مفزعاً: عجلات حديدية كالتروس الهائلة تتسلق من جوانبها سلاسل غليظة، وتلك العجلات تدور فيساق قطع من الحلاليف السمان في سرداد، وبمجرد ملامسة الحيوان للسلسلة تقبض على يده وترفعه معلقاً وهو يصيح صياحاً منكراً، وتدفع به إلى سلسلة متحركة تقويه إلى قصّاب بيده آلة مدببة يغمدها في مكان من حلق الحيوان، فينفجر الدم ويسيّر إلى مغار تحت الأرض ليتجمع وتُصنَع منه الأسمدة وبعض أغذية الطيور والعلف.

تصور مئات من العجلات والصفوف والقصابين يقتلون جماهير الحيوان في ذاك المشهد البشع، ووسط صياح ووعيل من الخنازير يصم الآذان ويلقي الرعب في القلوب، وإخالك تدهش دهشتـي إذا علمت أن عدد ما يُقتل من الحلاليف في الساعة الواحدة ٧٥٠، فإذا كانت ساعات الأسبوع ٤٢-٤٥، فتصور العدد الهائل الذي يُقتل في العام في أحد مصانع شيكاغو «فوق مليون وستمائة ألف».

ولما أن صُفيَّ دم الحيوان جرته السلسلة إلى المحارق، فيمر على لهيب يأكل الشعر، وما تختلف ينظفه العمال، وهو يمر تباعاً الواحد بعد الآخر. وهنا يمر كل حيوان على مفترش الصحة الذي يختبر غدد الحلق والرأس والكبش والطحال، وإذا بدا فيها عيب أتلف لحم الحيوان على الفور، ثم تمر الجثث على رجال يرشونها بالماء، فآخرن يسوقونها إلى المخرطة مثل الجيلوتين تماماً، فتُقطع الجثة أنصافاً أو أرباعاً، وقسم منها يمر على فتيات يحزنن القطع دون أن يمسسن اللحم بأيديهن، ثم تُترك هذه في الغرف المثلجة، ويخرجن زهاء مائتي حزمة في الدقيقة.

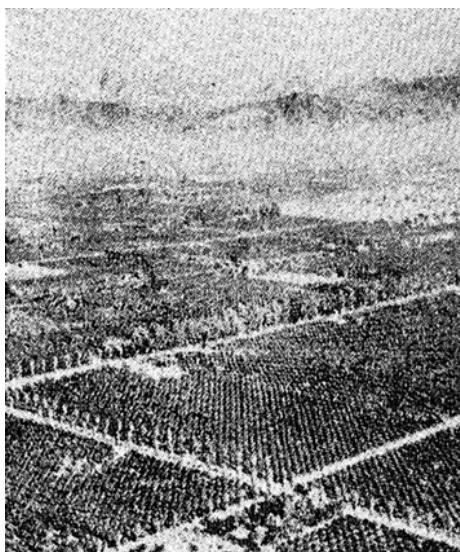


شكل ٤: شاطئ الاستحمام في سان فرنسيسكو.

وبعضها يُوضع في الغرفة المثلجة ما بين ٢٤-٤٨ ساعة، وبعض القطع تمر على رجال بأيديهم مشارط ومفارم يشذبون بها زوائد اللحم، ويستبعدون الشحم الذي كانت شظاياه تتطاير أمامنا هنا وهناك، ثم تمر القطع بين أسطوانات فتصبح رقائق مسطحة، ثم تُساق القطع إلى أفران التبخير والتدخين، وهنا تبقى بين ٣٦-٢٤ ساعة فوق نار من خشب شديد الصلابة، ثم تسير إلى قسم الصناديق والشحن، وهناك زهاء ٦٠٠ عربة من عربات سكة الحديد ذات المثاليج يُشحن فيها اللحم؛ لأنها لا بد أن تبقى في درجة التجميد دائمًا.

خلفنا الخنازير بصياحها وعفوناتها ودهنها منفر الرائحة وسرنا إلى قسم الغنم؛ حيث يُقتل بالطريقة عينها ٨٠٠ رأس في الساعة، أي ١٣ مليوناً في السنة، ثم تمر على الرجال الذين يسلخونها في عجلة مدهشة، وجلهم من الزنوج، ثم إلى التقطيع فالضغط فالتلبيح والحرزم، وكل ذلك في أقل من ٢٦ دقيقة، ثم سرنا إلى قسم الماشية والبقر، beef، وشاهدنا عملية الذبح، وهي هناك نوعان؛ الأول: بضرب الحيوان بمطرقة حادة في مخه

فيimoto لساعته، ثم يُعمَد في زوره خنجر حادٌ فيُصْبِي الدم، والثاني: بالذبح بجَرَّة واحدة من سكين حاد، وذلك تحت إشراف رجال من اليهود؛ لكيلا يحرموا أكل ذاك الحيوان.



شكل ٤٢: حقول الفاكهة تمتد إلى الأفق في كاليفورنيا.

وبعد مشاهدة العملية يُختَم اللحم، وإلا امتنع اليهود عن شرائه، ثم تمر على الغسيل ثم شق الصدر وإخراج الأحشاء العليا، ثم شق البطن لإخراج الأحشاء السفلية، وفي ٢٥ دقيقة يُعَدُّ الحيوان للتصدير. وعدد ما يُذَبَح من البقر ١٨٠ في الساعة، أي نحو ٤٠٠ ألف في العام، وصالات التثليج التي تبقى درجتها ٣٤° ف دائمًا تسع ٣٠٠٠ نصف من البقر المشقوق بطوله، ولقد شعرنا ببرودة البرد وقوسورة التجمد ونحن نمشي داخل تلك الغرفة.

ويزن الحيوان المتوسط ألف رطل، وإذا أُعِدَّ نزل الصافي منه إلى ٥٥٠، ومما يبقي تُسْتَخْرَج مواد أخرى تزن ١٥٠ رطلاً. وللصناعة فروع أهمها: الأسمدة، وأغذية الكلاب والقطط، والبصطرمة، والصابون، والمرجرين، وهو خليط من دهن الحيوان والزيوت

النباتية. أخيراً بعد ثلات ساعات كاملة خرجنا إلى غرفة قدمت لنا فيها بعض الحلوي، وودعنا رجال swift وصرحوا بأن المصنع يرب بآية زيارة أخرى مهما بلغ عدد الزيارات والزائرين. وعدد من يشتغلون من العمال هناك ٥٥ ألفاً.

ذلك مجهد مصنع واحد من مئات المصانع المرصوصة في تلك الجهة. هنا فهمنا حقاً مبلغ أهمية تلك الصناعة وفروعها لشيكاغو وأهلها؛ فهي التي جعلت شيكاغو في مقدمة بلاد العالم غنىًّا ومالاً. عدنا إلى «الإلفتير» نشع من رائحة اللحوم، وبخاصة شحم الخنازير التي ظلت رائحته في أنفي تتغصنـي اليوم كلـه، وزاد الطين بلـة رائحة «الزرابي» المجاورة Stock Yards، على أناً لبـثـنا نتحدث عن تلك العظمة الصناعية وذاك المجهود المالي الجبار الذي يقوم به أولئك القوم فيـدرـ عليهم مـلاـ وـفـيراـ.

قمـتـ أـودـعـ شـيكـاغـوـ —ـ وـمـعـنـاهـاـ بـالـهـنـديـةـ الرـائـحةـ القـوـيـةـ؛ـ لأنـهاـ كـانـتـ تـخـصـ فيـ زـرـاعـةـ الـبـصـلـ قـدـيـمـاـ،ـ وـالـيـوـمـ تـشـعـ لـحـمـاـ وـشـحـمـاـ —ـ وـلـبـثـ سـائـرـاـ صـوبـ نـيـاـجـراـ مـسـافـةـ عـشـرـ سـاعـاتـ بـالـقـطـارـ،ـ وـكـانـ أـولـهـاـ سـهـوـلـاـ مـبـسوـطـةـ كـثـيـرـةـ الـرـعـىـ وـالـذـرـةـ،ـ مـنـشـورـةـ بـالـشـجـرـ،ـ وـكـنـاـ نـجـانـبـ حـافـةـ بـحـيـةـ مـتـشـجـنـ،ـ وـعـنـدـمـاـ بـلـغـنـاـ حدـودـ كـنـداـ طـافـ بـنـاـ رـجـالـ الجـمارـكـ،ـ وـكـنـاـ نـجـانـبـ حـافـةـ بـحـيـةـ مـتـشـجـنـ،ـ وـعـنـدـمـاـ بـلـغـنـاـ حدـودـ كـنـداـ طـافـ بـنـاـ رـجـالـ الجـمارـكـ،ـ وـلـهـاـ مـهـاجـرـةـ،ـ ثـمـ أـوـغـلـنـاـ فـيـ أـرـضـ كـنـداـ دـوـنـ أـنـ نـلـاحـظـ تـغـيـرـاـ فـيـ الـمـاـنـاظـرـ،ـ وـعـنـدـمـاـ تـقـدـمـنـاـ بـعـيـداـ فـيـ شـبـهـ جـزـيـرـةـ الـبـحـيرـاتـ تـمـوجـ سـطـحـ الـأـرـضـ،ـ وـكـثـرـتـ غـابـاتـهـ وـمـسـاـيـلـ مـائـهـ الـبـدـيـعـةـ،ـ وـزـادـ حـيـانـ الـمـرـعـىـ،ـ وـبـخـاصـةـ الـبـقـرـ فـيـ الـحـقولـ.

ثم فوجـئـنـاـ عـنـدـ بـلـدـ هـمـلـتونـ بـمـازـارـعـ هـاـثـةـ مـنـ الـكـرـوـمـ وـالـفـاكـهـةـ،ـ وـبـخـاصـةـ التـفـاحـ،ـ وـكـانـ تـسـدـ الـأـرـضـ كـلـهـاـ إـلـىـ الـأـفـقـ،ـ وـكـانـ الـمـحـاطـ الصـغـيرـةـ هـنـاكـ تـشـحـنـ صـنـادـيقـ لـأـدـدـ لـهـاـ مـنـ التـفـاحـ،ـ وـالـصـبـيـةـ يـسـيـرـونـ وـبـأـيـدـيـهـمـ تـلـكـ الـفـاكـهـةـ يـسـرـفـونـ فـيـ أـكـلـهـاـ وـالـلـعـبـ بـهـاـ،ـ وـلـقـدـ غـيـرـتـ الـقـطـارـ إـلـىـ نـيـاـجـراـ الـتـيـ وـصـلـتـهـاـ عـصـرـاـ.

(١١) نـيـاـجـراـ

ثم شـاءـتـ الـمـقـادـيرـ أـنـ أـزـوـرـ نـيـاـجـراـ وـاسـتـمـتـعـ بـمـشـهـدـهـاـ الرـائـعـ لـلـمـرـةـ الثـانـيـةـ؛ـ كـيـ أـشـفـيـ فـيـ النـفـسـ غـلـةـ،ـ وـأـطـفـئـ ظـمـأـ لـمـاـ يـمـكـنـيـ سـحـابـ نـيـاـجـراـ وـمـطـرـهـاـ الـعـامـ الـفـائـتـ مـنـ تـحـقيـقـهـ.ـ دـخـلـنـاـ وـالـسـمـاءـ تـقـطـرـ وـابـلـاـ،ـ وـالـسـحـابـ أـدـكـنـ قـاتـمـ منـفـرـ،ـ فـكـانـتـ مـنـيـ خـيـبةـ أـمـلـ،ـ وـكـدـتـ أـوـاصـلـ سـيـرـيـ إـلـىـ تـورـنـتوـ،ـ لـكـنـ الـقـلـبـ حـدـثـنـيـ أـلـاـ يـأـيـسـ مـنـ رـحـمـةـ الـلـهـ،ـ فـلـعـلـ اللـهـ يـفـعـلـ بـعـدـ ذـلـكـ أـمـرـاـ فـتـقـلـعـ السـمـاءـ وـيـصـفـوـ الـجـوـ،ـ نـزـلـتـ فـنـدقـ Fox Head Inn الـجـمـيلـ بـرـيـالـيـنـ،ـ وـهـوـ يـطـلـ عـلـىـ الشـلـالـ بـمـشـهـدـهـ الـذـيـ يـأـخـذـ بـمـجـامـعـ الـقـلـوبـ.



شكل ٤٣: البرتقال كبير الحجم وفي الثمر في سان فرنسيسكو.

ألقيت بحقائبى ونزلت أشق طريقي وسط سيل المطر وقرّ البرد وعصف الريح. بدا الشلال ببروعته يشرف على خانق نياجرا الفاتر بشرفاته الرأسية الشاهقة، ويهدى قدمًا في زبد أبيض ناصع، وإذا ما وصل ماؤه الهوّة أسفله أرغى وفار وصعد برذاذ يصل إلى عنان السماء، ويدرك المرء أينما سار على مرأى منه، وهو يُرى وكأنه بخار ناصع أو دخان أبيض. وينقسم ذاك الشلال الرائع شطرين بجزيرة Goat بغاباتها المستملحة، فتركت الجانب الأيمن قوسًا كبيرًا يحكي حدوة الفرس، ومن ثم سُمي Horse Shoe، وهو يناهز ثلثي الشلال كله، والقسم الأيسر، وهو الأصغر، داخل في الحدود الأمريكية، وتتنزل مياهه في جداول تختلف سُمكًا، ولا تثبت لفائف مائه الهاوي تندعى ثم تتبعثر إذا ما صادمتها ركام الصخور السفلي، ثم تذوب ماء يتفجر خلال الصخر ويندفع إلى قرار

الخانق، وهو يلتوي في دوامات مخيفة. وأروع ما ترى تلك الدوامات من فوق القنطرة الحديدية المعلقة التي تعبر النهر أسفل الشلال، وتصل ما بين الجانب الأمريكي أمامنا، والكندي الذي كنا نحل أرضه؛ لذلك وقف على طرف القنطرة رجال الجمارك والمهاجرة ليطلعوا على متاع العابرين وجوازاتهم.

أعياني السير وسط ذاك الجو المنفر، فأوتيت إلى النزل أتناول طعام العشاء، ثم عدت إلى الشلال وكان رذاذ المطر قد خف أو كاد ينقطع. هنا أذهلني جمال ما رأيت، أطلقت الأضواء القوية الملونة من مصابيح لا حصر لها، فوقعت أشعتها على مياه الشلال وحافته في ألوان مختلفة كانت تتغير بين دقيقة وأخرى فتُكبس الشلال روعة سحرية لن يستطيع القلم تصويرها، فليس إلا القلب وكامن الإحساس بمدرِّكٍ مبلغُ ثُرْها في النفس، وقد مددَت الطرق المرصوفة تتلوى على طول الخانق في مواجهة الشلال، وبين فترة وأخرى تخرج شرفة ناتئة فوق الماء زُودَت بالمناظير التي تقرب الشلال وتزيد منظره روعة.

أخذت أجوب تلك المناظر الساحرة، ومما زاد المنظر روعة وسحرًا بتصيص القمر من بين أكdas السحب وقد أحاطت به حالة بيضاء بدعة، ثم جلس على ناصية من هاتيك متسلول ضرير يعزف على قيثارته الأندرسية بيديه، وفي فمه موسيقى الفم الصغيرة تتبع القيثارة في أنغام جذابة.

بكرت في الصباح وأنا أوجس خيفة الجو الأغبر المطير، وإذا بالشمس ناصعة بين منتشر السحاب والهواء بليل منعش، فكان اغتباطي لا يُحدُّ، وأخذت أعيد الكرَّة أستجي روائع الشلال وما أحاطه من جمال، وزحام الزائرين من مختلف بقاع الدنيا كثيف هائل، ثم ركبت الباخرة الصغيرة التي كُتِبَ عليها Maid of the Mist، ووصلت بنا هوة الشلال الأمريكي، واعتنينا بعض صخوره بقنطر صغيرة بعد أن كسونا أجسادنا ورءوسنا بمعاطف رقيقة لا يؤثر فيها بلل الماء، ثم دخلنا مغارة وراء الماء، فكانت كتلته الهاوية تنزل أمامنا وكأنها الستار الكثيف في إرغاء شديد، وهزيم كأنه صوت الرعد أو فرقعة المدافع الثقيلة، ثم نقلتنا الباخرة إلى الشلال الكندي، ولم نستطيع أن ندنو من هوته لشدة تيارة وغزاره مائه.

وبلدة نيagara فولز صغيرة قامت على شئون السائحين فأسرفت في الفنادق الفاخرة والمطاعم الكبيرة، ونسقت من المنتزهات في كل ناحية، ولا يكاد ينقطع عنها سيل السائحين ليلاً ولا نهاراً، وهي لا شك خير مستراض للنفس التي أرهقتها كد العمل، أو



شكل ٤٤: الأشجار الضخمة في غابات كاليفورنيا.

أضناها مضض الوجد والهوى، فهي أكبر عن النفس أن تستعيد نشاطها الكامل في أيام قليلة، إلى ذلك فهي ملتقى المحبين، حتى آثرها كل حديثي عهد بالزواج، أو كل أليفين على أهبة الاقتران؛ لذلك أطلقوا عليها أرض شهر العسل.

(١٢) تورنتو

قمت أودع نياجرا بقطار الثانية بعد الظهر صوب تورنتو، ولبتنا نشق أرض الفاكهة المحدودة، ثم عبرنا قناة «ولاند» التي زُوّدت بالأهوسنة لتصل الملاحة بين بحيرتي أيري وأنطاريو، وتجنبت شلال نياجرا. وبعد ثلاث ساعات دخلت المدينة واخترقت محطتها الرائعة، وأويت إلى نُزُل Carls Rite بريال ونصف، ثم نزلت أجوب بعض أرجائها، فبدت مدينة عظيمة تمتاز باتساع طرقها، وشدة نظافتها، وحسن نظام المرور بها، فعلى جميع

النواصي تقوم الأضواء المثلثة اللون: الأخضر لفتح الطرق، والأصفر للاستعداد، والأحمر لإيقاف المرور، يُوقدُ ويُطفأً من تلقاء نفسه في جميع الشوارع في فترات ثابتة. والناس يخضعون لتلك الإشارات، ولا يتعدون القانون مطلقاً على الرغم من عدم وجود رقيب من البوليس، وحتى المارة ينتظرون وقوفاً – ولو لم تكن حركة المرور مزدحمة – حتى تفتح الإشارة الخضراء، وعندئذ فقط يعبرون الطريق. ومن أجمل الطرق Yong مقر المتأجر الرئيسية، وهو يقسم البلد شطرين: شرقي وغربي. على أني ألميت الحركة هادئة في سائر أنحاء البلد؛ وذلك لأنّه يوم السبت حين يتأنب الجميع للراحة.

أما في اليوم الثاني، وهو الأحد، فقد خُيلَ إلىَّ أن ليس بالمدينة أحد؛ لأنّي كنت أسيء في الطرق وحدي. وهم شديدو التعصب لذاك اليوم فلا يبيحون العمل فيه مطلقاً، ويجب أن تغلق جميع المتاجر سوى الصيدليات والمطاعم، دهشت لما أن سرت ليلاً أتقى دور الملاهي، فإذا بها مغلقة؛ ذلك لأنّه يوم الأحد، ولا يُباح فتحها إلا بعد منتصف الليل، وعندئذ تموج بالناس، وجلهم من المتذمرين الناقمين على تلك الشعوذة وذاك التعصب. وقد راقي ليلاً موقف الكثير من المبشرين على رءوس الطرق يصيحون ويخطبون الناس حاثين على التمسك بالدين وعدم الانهمام وراء الماديات هكذا، وقد ضحكت لما أن كان أحدهم يقول بأن المال ليس كل شيء، فلا فائدة منه إذا لم يصحبه الإيمان في ...

و قبل أن ينطق بالكلمة صاح الجميع متهمين قائلين: Jesus Christ، وظلوا يسخرون من الخطيب وهو يحاول إقناعهم عبثاً، وقد بدا لي أن جلّ الناس مندفعون وراء الإلحاد والماديات رغم كثرة الكنائس التي بلغ عددها ٣٥٠، وجلّها في أبنية فاخرة. أقتلتني سيارة السياحة بريال ونصف وطافت بنا البلدة كلها ومتزهاتها الهائلة التي بلغ عددها ٦٩ متزهاً، وأكبرها مساحة «هوارد» ذرعه ٣٥٥ فدانًا. والعجيب أنه هبة من أحد الخيرين، ثم متزنه High كأنه الغابة المغلقة، وبه مجموعة من الحيوان خصوصاً التياتل واللياك وجاموس أمريكا، وكان السنجب يجري حولنا ويفد ليأكل من أيدينا في جسمه الصغير، وذنبه المتتفاخ الكبير.

والبلدية هناك مصلحة إلى درجة عظيمة ترعى مصلحة الناس، وتتکاد تدير كل شيء؛ ففي المتزهات تقيم لهم المقاعد والمناضد، وتبijh لن شاء أن يعسّر ليلة الأحد وفي الأعياد، وقد قسمت المتزهات إلى قطع منمرة يتسلّم كل فريق ترخيصاً بمعسّره في نمرة معينة؛ لكيلا يتشارحن القوم فيما بينهم، ووسائل النقل تديرها هي وترتبطها



شكل ٤٥: قد يتسع تجويف الشجرة لمرور عربة كاملة في غابات كاليفورنيا.

بعضها ببعض الترام والأتوبيس، ولك أن تركب من أول البلد إلى آخره بتذكرة واحدة وتنغير ما شئت من خطوط.

كذلك الإضاءة الكهربائية، فالطرق تُضاء بإسراف شديد، وفي الشوارع الرئيسية ترى المصايبح متقاربة، وفوق كل عمود ستة مصايبح في دائرة جميلة، وتتكليف الإضاءة في المنازل لا تجاوز ريالاً في الشهر، وكل تلك القوى مستمدّة من شلال نيagara.

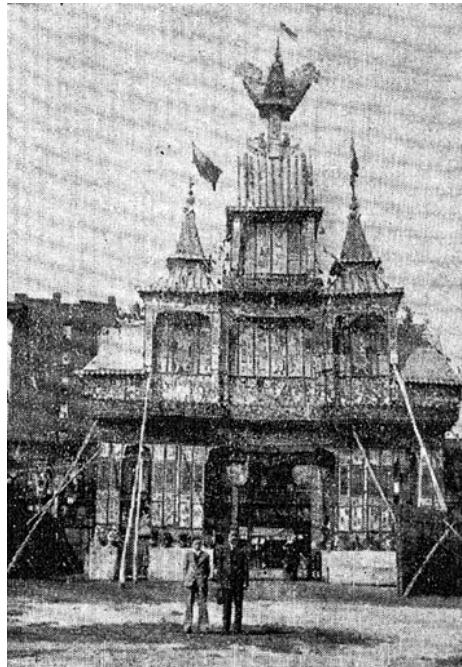
ولقد اخترقنا حي السكن الأرستقراطي واسمه Rose Dale، وإذا به مجموعة قيلات بدعة، كل بيت يغایر الآخر في هندسته، ويُحاط بالشجر المزهر الطبيعي، وكلما جد بيت زرعت البلدية أمامه شجرة الأسفندان Maple، وهي شعار كندا كلها. وفي هذا الحي متلوية طرق لا تكاد تستقيم بضعة أمتار؛ وذلك لتمتع الإسراع في سوق السيارات، وبذلك تخف الضوضاء، ولا يُباح فتح المتاجر ولا المطاعم هناك مطلقاً؛ لذلك كان المكان ساكناً سكوناً عميقاً لا تسمع به حرقة مطلقاً، ويُحاط الحي بخندق طبيعي يسمونه Ravine، وحتى أسلاك النور مُدَّت تحت الأرض فلا ترى لها أثراً.

ثم كان مرورنا بالجامعة وأقسامها، فهي تكاد تشغل قسماً كاملاً من المدينة أحاط بأبدع المنتزهات، وبها ٢٨ بناء كُلُّ يمثل كلية Faculty، وهي أكبر جامعات كندا، بها نحو ٨٠٠٠ طالب، وعمرها ١١٢ عاماً، وقد تخرج فيها مكتشف الأنسولين علاج السكر، ولا يزال أستاذًا هناك.

والتعليم هناك إجباري ومجاني بين سن السادسة والستة عشرة، وبالالمدينة ١٠٤ مدرسة ابتدائية Public، والمكتبة العامة كبيرة جدًا، ولها ١٧ فرعاً تنتشر في أرجاء البلد، وفي عطلة الصيف يقيمون مدارس مكشوفة وسط المتنزهات لتنقيف الصغار وتنشيط قواهم الجسمية، حتى إن وزن الطفل يزيد في المتوسط عقب كل إجازة سبعة أرطال.

ثم مررنا بحي مساكن العمال فدهشنا من نظافته، وجل البيوت ملك لهم، وكنا نرى لكل بيتين وجهة مشتركة، وذلك ليتخلصوا من الضريبة التي تدفع بحسب امتداد واجهة البيت على الطرق العامة، وعجبت لما علمت أن ٦٤٪ من سكان البلدية يمتلكون منازلهم رغم عدد السكان الذي فاق ٨٠٠ ألف نفس؛ لذلك أطلق على المدينة City of Homes، وبالالمدينة حي للصينيين، وهم زهاء ٦٠٠ نفس، وأخر لليهود وعدهم ٥٠ ألفاً، ويبعدو على البلد وأهله طابع إنجليزي، فهم أهداً طباعاً وأكثر تمسكاً بالتقاليد من سائر الأميركيين؛ لذلك عُدَّت العاصمة الإنجليزية لكندا.

ومما يسترعى النظر هناك كثرة الفروع التي للمصارف في كل شارع، على أن عدد المصارف الرئيسية قليل محدود، وكلها تحت إشراف الدولة؛ لذلك أمن الناس شر إفلاس بعضها كما هي الحال في أمريكا التي تتعدد مصارفها إلى حد خطير. وقد صادفت زيارتي لتورنتو ميعاد انعقاد المعرض العام، وهو يعقد مرة في كل سنة من ٢٨ أغسطس إلى ٢٠ سبتمبر، ويقوم على مساحة ٣٥٠ فدان، ولقد صرفت فيه شطرًا من مساء السبت، وكانت معارضاته عظيمة ومتعددة، وبخاصة قسم المسليات والملاهي، على أنه في جملته لا يفوق معرضنا السابق كثيراً، وإن قالوا عنه بأنه أكبر معارض الدنيا، وجزء منه يطل على بحيرة أنتاريول ذات المياه الهادئة والشواطئ التي تكاد تكسوها الغابات، وعليها تقوم ميناء تورنتو، وهم جادون في توسيعها، وعندئذ تصبح أكبر الثغور التي تبعد مسافة عن المحيط - أما اليوم فمنتريال هي التي تحقق ذلك - ولقد قدرَ الهنود الحمر قيمة مياه البحيرة منذ زمان بعيد؛ لذلك أسموها «أنتاريول» أي المياه البديعة. ولقد ختمت زيارتي بالمتاحف عظيم البناء كثير المعارضات، وبخاصة المخلفات الهندية الأمريكية، ثم حديقة الحيوان التي حوت مجموعة لا بأس بها من حيوان أمريكا وأستراليا.

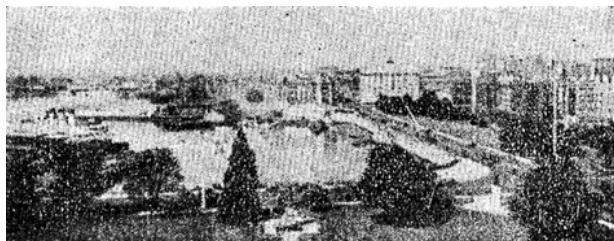


شكل ٦: مدخل المدينة الصينية في فكتوريا بكندا.

(١٣) أتاوة

قمنا صباح الاثنين صوب أتاوة العاصمة السياسية لكندا، وكان القطار يجانب بحيرة أنتاريو بميادها الملساء، وشواطئها التي تكسوها الغابات الجميلة، وكانت الأراضي سهولاً للفاكهة والغلال التي كانوا يحصدونها عند ذاك بالآلات تجرها الخيول، وكنا كلما اقتربنا من أتاوة زادت كثافة الغابات، وبخاصة شجر البتولا والصنوبر، وقد عرّى القوم مساحات أطلقوا فيها مراعيهم من البقر والخيول والأغنام ودجاجهم، وكانت القرى صغيرة، بيوتها أكواخ من خشب تقوم وسط الغابات، ولا تكاد تستبين خلال الأشجار إلا كلما بدا شارع مرصوف شُقَّ وسط الغابات.

ولبثنا سبع ساعات في مناظر بد菊花 من تلك الغابات تجري خلالها النهيرات السريعة، تقوم فيها الأخشاب مسافات بعيدة حين تلتقي عند مصنع للورق أو منشر للخشب، ثم أقبلنا على أتاوة؛ تلك العاصمة التاريخية التي يرتبط اسمها بنهر أتاوة التي تقوم عليه، ولقد بدا ذاك النهر فسيحاً هائلاً قبيل البلدة ثم ضاق عندما قاربناها، ولقد كشفه شامبلين Champlain سنة ١٦١٣، وبهره جمال شلالاته يوم أن وقف ينظر إليها من الربوة التي تحلها العاصمة اليوم، وقد أسمها شوديير؛ لأنها تفور وكأنها قدر الشاي «شوديير أي غلابة»، ثم ما لبث هذا النهر أن أصبح طريق تجارة الفراء مدة قرن ونصف.



شكل ٤٧: ميناء فكتوريا تحف بها الأبنية الرئيسية.

وكان الهنود يرسلون على مياهه فراءهم إلى منتريال، وفي سنة ١٨٠٠ تنبأ أمريكي اسمه فيليمان ريت Phileman Ritt بمستقبل الجهة، ونزل في مكان القرية هل Hull المقابلة لأتاوة، وبدأ صناعة الخشب فيها، وتلك هي المورد الرئيسي اليوم لتلك البلاد، ثم زادت شهرة أتاوة لما أن شُقَّت قناة ريدو Rideau التي تصل المدينة ببحيرة أنتاريو دون أن تمس حدود أمريكا، وقد بُنيت لأغراض حربية يوم كانت العلاقات بين إنجلترا وأمريكا متوترة، وقد بدأها الكولونيال John By.

وقدرأينا حرين فوق Hill Park يعينان مكان مقر ذاك المهندس القدير وراء قصر لوري، ولقد ظلت أتاوة تُسمى مدينة باي By town إلى سنة ١٨٥٥، ولم تصبح أتاوة عاصمة كندا إلا منذ سنة ١٨٥٧ حين اختارتتها الملكة فكتوريا حسماً للنزاع والمنافسة الحادة بين منتريال وتورنتو؛ إذ كل منهما كانت تصبو أن تكون عاصمة البلاد.

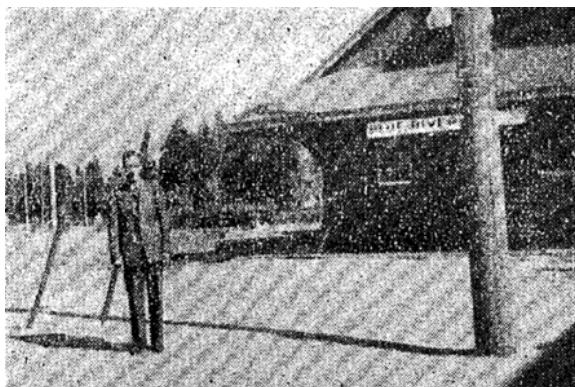
وهي تقوم على ربوة تشرف على نهر أتاوا، ومن ورائه مرتفعات لورنشيا الوطئية، وعندما يلتقي نهر جاتينو Gatineau وريدو Rideau بنهر أتاوا؛ لذلك استطاعت أن تستغل قوة انحدار تلك المياه المختلفة، وبخاصة شلالات شوديير التي رأيناها على بُعدٍ من ربوة البرلان، ولقد أقيمت اليوم على مسافة لا تجاوز أربعين ميلًا من المدينة مجموعة هائلة من مصانع ومولدات للكهرباء، فعلى مسافة عشرة أميال منها يمكن استغلال ١٢٥٠ ألف حصان كهربائي من منحدراتها، وعلى مسافة ٤٥ ميلًا يمكنها أن تُخْضِع سلطانها مليون حصان كهربائي أو يزيد.

حلت نُزُل King Edward بريال ونصف، ولا بأس به، وهو يواجه محطة Union Station، ثم قصدت ل ساعتي ربوة البرلان ذاتعة الصيت، وهي مجموعة من متزهات بد菊花ة تشرف على نهر أتاوا بقنطرة البدعة التي لا تُحْصَى، وشعابه الكثيرة، وجزائره الأنثقة، وكانت تواجهنا في الجانب الآخر ضاحية Hull الصناعية، والتي يغلب على أهلها الفرنسيّة، وعلى جانب النهر بدت مصانع الورق، وكانت أكاس الخشب إلى عنان السماء، والنهر يغص بكل الخشب السابحة، وكل كتلة عليها طابع صاحبها، وعند مناطق القنطر يقف الناس ليفرزوا ما لهم ويحرزموه آلاً في ساحات كبيرة تقطّرها باخرة صغيرة إلى المصنوع.

والمنظر من تلك الربوة ساحر، خصوصاً ناحية منبع النهر حين بدا شلال شوديير الصغير الذي حُبِّست مياهه واستُغْلِطَ في توليد الكهرباء. وتزيين تلك المتزهات دار البرلان التي أقيمت على نمط قوطي رائع لا إخالني رأيت داراً أفال منهما، وهي من داخلها مجموعة آيات فنية من النحت والتصوير وخرط الخشب، وبخاصة في المكتبة التي حوت نصف مليون مجلد، وقُسّمت بحسب المديريات المختلفة، وبها غرفة تُعْدُ هيكلًا مقدسًا نقش على جدرانه بالذهب أسماء أبناء كندا الذين فقدوا حياتهم في الحرب الكبرى.

وبرج الدار شاهق تعلوه ساعة تدق كل ساعة دوّراً موسيقى يظلّ خمس دقائق وهو يرن رنيناً جذاباً عالياً يُسمّع من آخر البلدة، وحوله مجموعة من دور الحكومة، ويواجهه على الجانب الآخر لقناة ريدو قصر لوريي Chateau Lawrier في هندسة القرون الوسطى الضخمة الشاهقة، وهي أكبر فندق هناك، وقد كان لوريي رئيس الوزارة وزعيم الأحرار مدة ١٥ سنة، ويكان يكون شارع ريدو الرئيسي في المتاجر والأضواء.

وليست مباني البلدة شاهقة كسائر البلاد الأمريكية، فقلما تزيد على الدور الثالث، وكثير من المتاجر يُكتب اسمه بالفرنسية، وهنا لأول مرة كنت أسمع بعض القوم



شكل ٤٨: يقف بنا القطار في محطة وسط جبال الركي.

يتحدثون بها في الشوارع، وبخاصة في بلدة «هل»، وحتى في الإذاعة يتكلم المذيع بالفرنسية والإنجليزية، وقد بدا على سخن بعض الناس التغير، وقللت نسبة الجمال هنا جدًا مما كانت عليه في البلاد الأخرى، ثم طفت بالكثير من المتنزهات الفاخرة، وبالمزرعة التجريبية التي تبلغ ٩٠٠ فدان أعدت لخدمة الفلاح وتوزيع الزراعة في البلاد. ولقد كان الجو بارداً كأنه شتاء مصر تماماً، والسحب لم ينقطع من السماء، وفي الشتاء يقسّ البرد جدًا وتجمد مياه نهر أتاوة إلى عمق ياردة، ويكثر الانزلاق عليه، وقد شاهدنا بعض المزالق تعلو في الجو ١٥٠ قدماً.

(١٤) مترerial

قمت إلى مترerial التي وصلتها في ثلاثة ساعات، وكانت أجيال ظاهرة حولي كثرة من يتكلمون بالفرنسية في القطار وفي شوارع المدينة، وجُل العنوانات وأسماء الشوارع كُتبَت بالفرنسية أولاً وتحتها بالإنجليزية، وكذلك خدام الفنادق يبدعون الحديث بالفرنسية؛ ذلك لأن المدينة تُعدُّ ثالثة المدن الفرنسية في العالم كبراً بعد باريس ومرسيليا؛ فسكانها ١٢٠٠٠٠، أي فوق مجموع سكان القاهرة، وثلاثة أرباعهم ٧٦٪ فرنسيون لا يزالون

يحتفظون بتقاليدهم وعصبيتهم ومذهبهم الكاثوليكي؛ لذلك كان حتماً على كل فرد أن يتعلم اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

وكل شيء يُكتب هناك من صورتين، ولكل من الطائفتين مدارسهم، على أنني لاحظت أن المشادة والبغضاء بين الفريقين حادة، خصوصاً الطلبة، فكل فريق يمقت الآخر مقتاً. وحقًّا لمنتريال أن تظل فرنسيّة لأن تاريخها يؤيد ذلك؛ إذ كان جاك كارتييه أول من رسا هنا على بعد ألف ميل من المحيط سنة ١٥٣٦، ورأى هنا قرية هندية اسمها Hochelaga، تلك القرية التي لم يبق لها أثر يوم وصل شامبلين سنة ١٦١١، ثم أطلق شامبلين اسم موئل روياً على المكان إكباراً لملك فرنسا.

والمكان على ربوة علوها ٧٦٩ قدماً، ولم يُمَدَّ أول شارع وتُقْمَ أول مَحَلَّ للنزلاء إلا سنة ١٦٧٢ بعد كفاح عنيف بين البيض والهنود الحمر، وقد وزع الملك الأرض على الفرنسيين على نظام الإقطاع، ولكي يشجعهم على استغلالها والبقاء فيها بعث بالسفن الملائِي بالفتيات الجميلة من آنسات فرنسا ليكن قريبات للنزلاء، حتى أُطْلِقَ عليهما سفن العرائس، لكن النظام الإقطاعي فشل؛ لأن الناس فضلوا صيد حيوان الفراء من الغابات والاتجار فيها وفي الأخشاب. وظلت البلاد تحت لواء فرنسا حتى كانت معاهدة باريس التي أنهت حروب السبعين السبع سنة ١٧٦٣ حين حل العلم البريطاني محل الفرنسي. والمدينة أكبر بلاد كندا، وسابعة بلاد أمريكا الشمالية، ويُطْلِقَ عليها أحياناً باريس أمريكا؛ لأن الحياة فيها تحكى حياة باريس إلى حد كبير، وحتى دور الملاهي أصبحت من المراقص الباريسية «كابريه»، وغلب شرب النبيذ غيره من المشروبات، وهي اليوم العاصمة التجارية والصناعية لكندا، وتُعدُّ أكبر ثغور أمريكا بعد نيويورك، وهي أول ثغور العالم تصديراً للقمح، وتقع على جزيرة وسط النهر ذرعها 30×10 أميال، وعندها يلاقى نهر أتاواه أباه سنت لورنس، ثم يتشعب نهر أتاواه اثنين بينهما جزيرة Jesus، وبين تلك الجزيرة ومنتريال يُسمَّى الفرع Rviere des prairies . وبين هذا والقارة يُسمَّى نهر الألف جزيرة Riviére des milles isles.

ولقد خال كارتييه يوم سار في النهر أنه وجَدَ الطريق إلى الصين، ومن ثم أطلق الاسم على شلالات لاشين القريبة من المدينة، وأقام على ذروة جبل روياً صليبياً من خشب استُبْدِلَ اليوم بصلب هائل من الحديد تراه على بعد أميال من البلدة، خصوصاً أثناء الليل حين يُوقَد بالكهرباء فتتلاًأً ثرياته رائعة.

مدينة هائلة تبدو من العواصم الكبرى، وقسمها الحديث وجُلُّ إنجليزي يحكى مدن أمريكا الكبرى في حركته وأوضاؤه ومعروضات متاجرها، وبخاصة في شارع سنت



شكل ٤٩: تُعرَف جبال الركي في كندا بروعة مناظرها الطبيعية.

كatarsin، والقسم القديم فرنسي بحث ضيق الطرق، واطئ المباني إلا حول كنيسة نوتردام أكبر كنائس البلدة، حيث تقوم البيوت المالية والحركة التجارية، وهناك شارع نوتردام أطول شوارع المدينة يمتد ٣٧ ميلًا، والمساكن هناك قديمة قاتمة. وأغرب شيء فيها أن السلم يُقام خارجها في الطريق، ولكل دور سلم قد يلتوي فيصبح حلزونيًّا، لذلك ترى واجهة المنازل على طول الشارع مجموعة من سالم معوجة في شكل مضحك؛ وذلك ليوفروا مكان السلم ويقيموا غرفة؛ لأن غالب البيوت مكتظة، والعائلات الفرنسية هناك وفييرة العدد كثير النسل جدًا — على عكس فرنسا نفسها — وفي بعض الأحياء الفقيرة ينام الأطفال بالدور على فراش واحد، وكلما أمضى فريق في الفراش ساعات نومه انصرف وحلَّ محله الفريق الثاني، وكل بيتهن متلاصقان كأنهما بيت واحد؛ وذلك لسهولة التدفئة شتاء.

وبعد الشتاء هناك قارس جدًا؛ فالمتوسط 18°F ، وقد تنزل الحرارة إلى 64°F . تحت الصفر فتجمد المياه، وتتحذَّل الأنهر والبرك مزالق للألعاب الجليد. وكنا نشاهد الأبراج تعلو علوًّا مخيفًا؛ لينزلق القوم عليها في لعبهم شتاء، وقد يتکاثف الثلج فيسد الطرق، وعندئذ تمر كأنسات الجليد فتزيحه على الجوانب، ثم تحمله بعيدًا لتسهل للناس المرور؛ لذلك أغلقت ميناء مونتريال من أكتوبر إلى فبراير، وتحولت التجارة إلى هلفاكس.

وقد مررنا بحي West Mount مقر السكن الأرستقراطي، فكانت قيلاته آية في التنسيق، ويسكتها ٦٠ ألف نفس خليط من الإنجليز والفرنسيين، وقد بلغ من وجاهة بعضها أنَّ أجرتها تزيد في الشهر على ٧٠ جنيهاً، وسكانها من الأثرياء الذين لم يتأثروا بالأزمة العالمية قط، بل على النقيض من ذلك ربّ أموالهم. والضاحية شبه مستقلة تدير مصالحها العامة وحدها بمجلس منتخب منها، ولا تزال تنفذ قانون تحريم الخمر بين جدرانها.

ومن الأحياء المتوسطة نوتردام دي جراس، وسكانه من الإنجليز، لكن ملاك الأراضي من الفرنسيين، وقد ألفت نظرنا الدليل إلى بيت صغير قال بأنه البيت الوحيد الذي يشتمل على سبعة مطابخ Seven kitchens، ولما سأله عن السبب ضحك وقال: لأن صاحب البيت اسمه المستر مطبخ Kichen، وزوجته المسز مطبخ، وأربعة بنين هم مطابخ أيضاً، ثم مطبخ البيت، فأغرق القوم في الضحك رغم بروء تلك الذكرة الإنجليزية.

وإلى جوار المنطقة مساحة من الأرض المزروعة هي للدولة تبيح للعاطلين أن يحرزوا منها ما استطاعوا زرعه في العام؛ ليتعيشوا منه بدون مقابل حتى يجدوا لهم عملاً. ومتنزهات المدينة لا حَدَّ لها، فعددتها ٧٢، ومن بينها بارك منتريال مساحتها ٦٩٢ فدان، وجله تُركَ غابات في شكلها الطبيعي، وفي إحداها زُرِعَتْ ٥٠٠ شجرة من الأسفندان شعار كندا، وُعلِّقَ على كل واحدة اسم جندي من فقدوا حياتهم في الحرب الكبرى، وعلى واحدة منها عُلِّقَ ثلاثة أسماء من عائلة واحدة.

أما عن كثرة الكنائس التي تلقاها أينما سرت وعظمة بنائها والإسراف في نقشها وزخرفها، فذاك ما كاد يفوق روما نفسها، وفي بعض الشوارع ترى الكنائس متلاصقة، ولا يخلو الطريق من القسس أو صَبَّيْتهم الذين يلبسون معطفاً أسود وحزاماً أحضر تتدلّى له ذؤابتان طويلتان في شكل يسترعى النظر. ونفوذهم في تصريف الأمور عظيم جداً حتى كادت أن تصبح حكومة مديرية كوبك من رجال الدين، وغالبهم من الكاثوليك؛ ولذلك أُطلِقَ على البلدة «مدينة الكنائس»، وفيها ٢٥٠ كنيسة أكثر من نصفها كاثوليكية. والصحافة هناك فرنسيّة، وأكبر جرائد़هم La Presse التي توزع فوق ٣٠٠ ألف في اليوم الواحد. والقضاء في البلاد نوعان: فرنسي يتبع قانون نابليون، وإنجليزي، وكثيراً ما يسبب ذلك ارتباكاً بين المتخاصمين، خصوصاً إذا كان أحد الخصميين كاثوليكيّاً والآخر إنجليزيّاً بروستانتيّاً. وأكبر كنائسهم نوتردام على نمط كنيسة باريس تماماً - وهي تشرف على ميدان الحراب Place d'armes - بُنيت سنة ١٦٧٢ ثم جُددت سنة ١٨٢٤



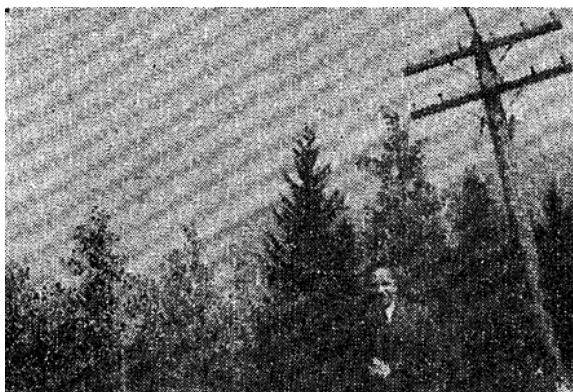
شكل ٥٠: بعض وعول جبال الركي عند جاسبر.

ويحتوي برجاها على عشرة أجراس، أحدها يُعدُّ أكبر أجراس أمريكتين، وبها مقاعد عشرة آلاف مُصلٌّ.

وعلى ربوة في الجبل هيكل سان جوزيف، أقامه قسيس اسمه André صغيراً ليتعدد فيه، ثم ذاعت عنه الكرامات؛ فبنى بشكل أكبر، ثم أخذوا يمدون فيه، ولا يزال البناء سائراً، وسيكون من أخر هياكت العالم وأكبرها. نسقت المتنزهات أسفله ثم بدأ السلالم إليه، وعدها ٩٩، وكان الحاج هناك كثيرون جداً يرکعون على كل سلم منها ويقرءون ورداً، ومتى بلغوا القمة دخلوا الهيكل، وقدموا قرابينهم، وبورگوا فشّفوا من أمراضهم وضمنوا الجنة. هكذا كانوا يقولون!

ولا يزال القس أندرية يتهدّم الهيكل ويدرس في مدرسة أسفله مع أنه بلغ سن ٩١ سنة، ويصله من الخطابات زهاء ٢٠٠ ألف سنوياً، ينتظرون الرد منه والتبrik حتى تتم سعادتهم، ومن استطاع الحضور بنفسه حج إلى المكان من أقصى الأرض. وليس بالمدينة كثير من ناطحات السحاب، فأعلى الأبنية ٢٥ دوراً، ولقد حرم القانون اليوم العلو أكثر من الدور الرابع، وقد مررتنا بإحدى تلك الناطحات المتواضعة بالنسبة لأخواتها في شيكاغو ونيويورك، لكنني دهشت لما علمت أن بها ستة أدوار تحت الأرض لإيواء سيارات الساكنين في ذاك البناء، وعدد سياراتهم ٦٥٠.

وجل التعليم هناك تحت إشراف القسّس، وقسم كبير منه ديني بحت، وليس هناك قانون إجباري للتعليم، ومع ذلك فنحو ٩٩٪ من الأطفال يؤمنون المدارس. وبالمدينة جامعتان: ماك جل J'la Mc أُسّست سنة ١٨١١، وتشمل ثمانى كليات، ثم جامعة مونتريال أَسْسَها قسّس كوبك سنة ١٨٧٨، وهي فرع من جامعة Laval في مدينة كوبك، وبها ٣٥٠٠ طالب.



شكل ٥١: على ذرى الركي حيث كثر الثلج وانضمر الشجر.

ومن أُعْجَب ما زرت مستودع الدواء فاخر البناء عظيم الزخرف، حتى إن سقفه من الفضة الصب في وزن أطنان كثيرة تُرَى في كل ناحية منه، ومن أدواره العدة التليفون ومكبرات الصوت تلبي نداء أي إنسان في أقصى المدينة وتسعفه بالعلاج، والرجال والسيدات الوقوف به من خبراء الأطباء، وهو يعمل صباح مساء، ولا تُقْفَل أبوابه ساعة، ويتولى العمال رقابتهم على ثلاثة دفعات في اليوم لكل ثمانى ساعات، وأظرف ما به أنه يفتح أبوابه للزائرين جميعاً ويمدهم بالكرتات المصورة، ويبخّ لـكل إنسان أن يكتب رسالة يرسلها المحل إلى أقصى الأرض على حسابه.

وقد كتبت أنا بطاقتين وسجّلت اسمي بين كشوف الزائرين، ولن أنسى بهاء المنظر وأنا أقف على شرفة جبل مونتريال أطلُّ على النهر الفسيح الهائل وجزائره المنتشرة، وقد نُثِرَت بعض المدافع التي غنموها في حروبهم القديمة. ومن أبدعها جزيرة سان هيلين

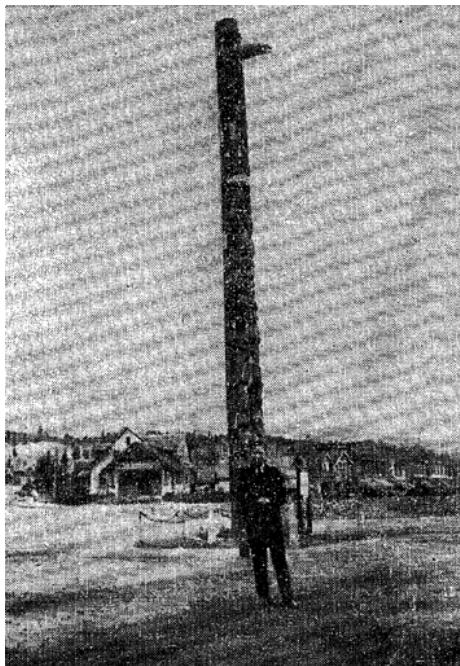
التي سُمِّيَت على اسم زوجة شامبليون، وهي في مجموعها متنزه واحد كبير، ويصلها هي والجزائر الأخرى بالمدينة مجموعة من قناطر أنيقة. قُمْتُ إلى كوبك.

كوبك (١٥)

في سيارة الأمنبوس - ٧ ريال ذهب وإياب — الفاخرة التي تقل ثلاثة راكبًا، وقد بلغت من الواجهة حدًا فاق سكة الحديد؛ فالمقاعد بالقطيفة الوثيرة والشماعات البراقة من حولنا، وعلى رءوسنا رفوف من الجلد البراق الثمين، والماروح تدور صيفاً والمدافئ شتاء، وتلك تشق أرجاء أمريكا كلها بمواعيد ثابتة، وأجرها أرخص من سكة الحديد بكثير؛ فالسفر من سان فرانسسكو إلى نيويورك، أو من شواطئ المحيط الهادئ إلى الأطلنطي دون عشرة جنيهات، وذلك أقل من نصف الأجر في سكة الحديد، وفوق ذلك فإنها تسلك طرقاً أجمل بكثير، ولا تحجب المناظر كثرة الأسلامك والمحطات وعربات الشحن التي تُنْفَض علينا سفرنا في سكة الحديد.

قمت صباحاً فوصلتها عصراً في سبع ساعات، وكان جل سيرنا إزاء مجرى سنت لورنس الذي كان اتساعه هائلاً، وماهُ هادئاً برأنا رائقاً، وبين آن وأخر كان يلاقيه فرع أو اثنان ثم تكثر الجزائر التي تتشعب المياه حولها، وكانت تقوم المصانع الكبيرة طوال الطريق، وبخاصة الأخشاب والورق، ثم مطاحن الغلال ومخازنها وروافعها.

والطريق كله مدن وقرى بدعة أقيمت أبنيتها من الخشب في تنسيق ونظافة تامة، والإقليم عامر بالسكان، وكلهم فرنسيون لا يتكلمون الإنجليزية إلا إذا أضطُرُوا إليها، وعندئذ تكون لغتهم ركيكة ضعيفة. وأكبر ما كان يلفت نظرنا كثرة الكنائس والقسس والصلبان التي كانت نراها قائمة حتى في وسط الحقول؛ فأينما نظرت ألفيت قسيساً أو صليباً، والكنائس كبيرة وفاخرة إلى حد كبير حتى في القرى الصغيرة، مما دل على شديد عصبية القوم الدينية، وكلهم من الكاثوليك المتمسكين بالدين تمسكاً شديداً. والأراضي كلها سهول فسيحة إلى الآفاق يزرعها القوم من الخضر على اختلافها، ثم الغلال، وبخاصة القمح، ثم الشوفان ثم قليل من الذرة، وبعض البقاع ترك مهملاً طبيعياً فكسته الغابات، وعندها تكثر مناشير الخشب ومصانع الورق، وفي تلك المصانع يُسْحَقُ الخشب ثم يُنْقَعُ في السلفيد Salphie ليستحيل عجينة منها يُصنَع الورق، أو تُصَدَّر خامته لصناعة الورق في البلاد الأخرى.



شكل ٥٢: عمود الهنود الحمر في جاسپر وسط جبال الركي.

وقطع الخشب عمل رئيسي يدر على مديرية كوبك وحدها فوق أربعين مليون ريال كل عام، ويجتذب آلافاً من الناس كل عام يهيمون في المجاهل، ويتوزعون في معسكرات يضم الواحد خمسين رجلاً يقطعون الخشب ثم يسوقونه إلى المجرى المتجمدة، وإذا ما ذاب جليدها عُوِّمت الكتل بطريقة مدهشة: إذ يقف الواحد على كتلة سابحة وفي قدميه حذاء ذو نعل بارز المسامير، ثم يُحرّك الكتلة برجليه فتدور وهو فوقها، ثم تسبح في سرعة خالية.

وكان يستلتفت نظري أن السكان كانوا ينشرون ملابسهم المغسلة على جوانب الطرق بدون رقيب، وكذلك يعرضون بعض أشغال أيديهم من الطنافس الصغيرة، ولا تتعرض هذه لسرقة أو عبث؛ مما جعلني أمتحن فيهم تلك الأمانة. وأمام سور كل بيت صندوق مفتوح يُوضع فيه البريد والجرائم الخاصة بكل بيت، ولا يتعرض لها أحد

من المارة مطلقاً، وحتى الأطفال الذين يلعبون ويمرحون طوال اليوم. وفي منتصف الطريق وقفنا ببلدة الأنهر الثلاثة Trois Rivieres، وعندها تتلاقي أنهر ثلاثة مع سنت لورنس فتجعل منظر المياه المدودة في كل ناحية رائعاً. والمكان صناعي وبخاصة للورق والخشب. وكنا نرى مجاري الأنهر مقسمة بشبه حدود من عوامات من كتل الخشب؛ لمنع اختلاط أخشاب كل مصنع مع غيرها.

دخلنا كوبك ونحن نسير في طرق ضيقة تعلو وتهبط وتشرف عليها ربوة صخرية عاتية، وحللت فندق Old Homestead Hotel المتواضع في ميدان Place D'Armes، وأمامه «شاتو فرنتناك» على اسم أحد الحكام الفرنسيين الأوائل — أفسر فنادق البلدة، وهو ملك لشركة كندا الباسيفيكية، بُنيَ على شكل حصن القرون الوسطى، ومُدّت أمامه الأرصفة وزُوِّدت بالمقاعد والمقاصير لتطل على النهر والمدينة السفلية من أعلى الربوة في منظر ساحر.

وكوبك بلدتان: السفلى مقر دور الأعمال والحركة التجارية، والعليا فوق صخرة كوبك التاريخية، وجهاً للسكنى، وكم كان يروقني السير وسط تلك الأزقة المتلوية التي تكاد بيوتها المتقابلة تتلاصق وهي قائمة مظلمة، وقد رُصِّفت أرضها بالحجارة الصغيرة البارزة لكي تخفف من أثر شدة انحدار الطرق، وكنا نعلو إلى الطرق التي فوق الربوة بدرجات قد تفوق المائة. والترام يسيراً فوق منحدرات مخيفة جدًا، وفي بعض الأحيان يكون الصعود بالرفاع Elevator.

والميناء خاصة بالحركة التجارية وبالسفن الكبيرة التي تمخر المحيط بين أوروبا وكوبك. والنهر هائل الاتساع شديد العمق، ويُخضع للمد الذي قد يعلو ١٦ قدمًا. وعجب أن المياه كلها عنده، وتظل كذلك أربعين ميلًا جهة المصب. وتجانب الميناء سكك الحديد، وقد استلتفت نظرنا مستوى الغلال لشركة Can. National بروافعه التي تتسع لنحو ٤٥ مليون بوشل، وكذلك مصانع الورق الكثيرة هناك، ثم مصنع هائل للأحذية يُعدُّ من أكبرها في الدنيا. ومن خصائص البلدة العربات ذات العجلتين يجرها حصان تُذْكَرُ المرء بالعصور الغابرة، وقد أعدت شركة الترام عربات مدرجة مكشوفة ليستطيع الركاب أن يشاهدو مناظر البلدة في جلاء.

وفي زاوية من شارع ضيق في المدينة السفلية زرنا بيت شامبلين مؤسس كوبك، وهو صغير كأنه الكوخ الخشبي، وإلى جواره تدفن رفاته، ثم صعدنا إلى سطح الربوة فأشرفنا على منظر المدينة السفلية والنهر الفسيح الهائل في مشهد بديع. وقد سُورَت



شكل ٥٣: معابدات الهنود الحمر في كندا.

الربوة وصُفت على جوانبها المدافع القديمة في سلسلة لانهائية، وفي السهل الفسيح «سهل Abraham» كانت الموقعة الفاصلة بين قائد الجيش الإنجليزي وولف Wolfe وقائد الجيش الفرنسي مونتكام Montcalm، وكان النصر حليف الإنجليز، لكن القائدين قُتلا في الموقعة، وسجّلا لهما فخراً كبيراً سنة ١٧٥٩. وقد أقيم لهما أثر تذكاري في إحدى الحدائق هناك. وبيت مونتكام الخشبي الصغير هناك، وهو مدفون في دير بالمدينة. والسهل اليوم تُركَ فسيحاً تكسوه الخضراء.

أما عن الكنائس الهائلة فذاك في كثرة لا تُوصف بحيث خُيّل إلى أنَّ البلد كله مقر ديني للكاثوليكي، ومما زرنا معبد Franciscan Sisters، وأعجب ما فيه أن الراهبات يتناوبن الركوع أمام الهيكل صباح مساء، بحيث لا تخلو ساعة منهن طوال العام. وقد رأينا خمس فتيات ركعن مطأطئات الرءوس يقرأن أورادهن ولا ينصرفن حتى توافيهن صويباتهن.

والبلد بدا فرنسيّاً خالصاً، فلم نسمع الإنجلizية هناك قط، ويدير شئون البلاد مجلس المديريّة المؤلّف من خمسة عشر عضواً فرنسيّاً وثلاثة من الإنجليز، وهم يحاولون الاحتفاظ بالصبغة الفرنسيّة في كل شيء، ويتعصّبون لقوميّتهم ولغتهم جدّاً، وحتى الصحافة كلها فرنسيّة، وليس بالمدينة إلا جريدة واحدة إنجلizية Chronicle

Telegraph، على أن الإنجليز رغم قلتهم وضعف نفوذهم فهم أصحاب رءوس الأموال في تلك البلاد.

وكنت أعجب كيف استطاع الفرنسيون أن يحتفظوا بقوميthem رغم مرور قرن ونصف وهم تحت الحكم الإنجليزي، لكنَّ الفرنسيين قد عُرِفُوا بوطنية الشديدة التي لا يخونها مهما أحاطهم من عوائق، ولا يزالون يعدون شرق كندا «فرنسا الجديدة» كما أسموها شامبلين من قبل، وفوق ٩٠٪ من سكان كوبك البالغ عددهم ١٤٢ ألفًا فرنسيون، ولا عجب فكوبك — ومعنى اسمها مدينة الصخرة Rock City — هي «فرنسا الجديدة»، وقد ظلت أربعة قرون تحرس مدخل السنต لورانس بحصونها العاتية التي صرف عليها الإنجليز بعد فتحها ٣٥ مليون ريال.

وهي في ظني من أجمل بلاد العالم، لا يتمالك الزائر لها أن يعيشها لجمال موقعها. وهل أروع من منظر النهر وجزائره، وبخاصة جزيرة لورنس، عندما رأيتها من أعلى الربوة؟! أو أجمل من منظر صخرة كوبك نفسها حين رأيتها من الزورق إزاء شاطئ الجزيرة؟ إلى ذلك فإن احتفاظها بأبنية القرون الوسطى وأزقتها المختلفة المتلوية زادها في نظري جمالاً، هذا إلى الذكريات التاريخية التي تحوط كل ركن من أركانها. ومما يلفت النظر في المدينة كثرة ميادينها الضيقية التي تتوسطها تماثيل عظام الرجال، ومن أخصهم لاثال أول قسيس حلها وبدأ نواة جامعة لاثال أكبر معاهد العلم في كندا، وكذلك تمثال شامبلين، ويجاور شاتو فرنتناك مشرقاً على النهر.

(١٦) إلى نيويورك

قمت أودع ذاك البلد الذي خُيِّلَ إلَيَّ وأنا أجوب نواحيه أني في قطعة من بلاد فرنسا المحفوظة بالقديم، وعدت إلى منتريال التي غادرتها إلى نيويورك صباح الجمعة ٤ سبتمبر. وقد اخترق بنا القطار النهر العظيم الذي بدا كالبحر لا تكاد ترى شواطئه، وكان عبورنا إياه على قناطر تربطها عدة جزائر، ولم تمض نصف ساعة حتى مر بنا رجال المهاجرة والجمارك، وفحصوا أوراقنا ومتاعنا في رفق وبشاشة، ثم بدأنا نسير إزاء نهر ريشليو، ثم أقبلنا على بحيرة شامبلين التي ما كنت إخالها تمتد هذا القدر الهائل، ولبثنا نخترق مجموعة هائلة من جزائرها بقناطر لا حصر لها، وكانت المزارع تغص بالخضر وبعض الغلال.



شكل ٥٤: ترى هذه الأشباح المقدسة أينما سرت في الركي.

وجل البلاد تحمل أسماء فرنسيّة، والقوم فرنسيّون، ولما أن فرغنا من البحيرة وشعابها ظهر إلى يميننا نهر هدسون في اتساع يفوق نيلنا، ثم أخذت الأرض تتغصن وتعقدت رياها، وكانت المزارع خليطاً من الغابات وأرض الكلأ، وكثيراً ما كان الصخر الجرانيتي القاسي يظهر عارياً، ولقد أضحت المناظر من حولنا ساحرة بديعة.

وكانت البلاد والقرى كثيرة غاصة بالسكان والمصانع التي لم تغب عن أعيننا طوال الطريق، ولا عجب؛ فتلك بلاد نيويورك إنجلترا أقدم جهات أمريكا صناعة، وأقدرها مهارة في العمل وذكاء في العامل؛ ولذلك عُرِفت بإنتاج المصنوعات الدقيقة، وكان أجر العامل فيها أعلى مستوى منه فيسائر بلاد العالم. وعندما وقفنا ببلدة تروادة Troy تشعبت

الخطوط الحديدية في كثرة هائلة، ثم وصلنا سيرنا، وبعد تمام عشر ساعات ومسافة ٤٦٠ ميلًا دخلنا محطة Grand Central في نيويورك.

وقدِّيماً كان مجرى هدسن هذا طرِيقاً طبيعياً للانتقال اتخذه هنود أمريكا مسلكاً لهم، ثم زاد العلم اليوم في قيمته فأضحت طرِيقاً مائياً من منتريال إلى نيويورك، ومُدَّت على طوله سكك الحديد في خطوط لا حصر لها، وكان له شأن في تجارة الفراء في أوائل عهد كشف أمريكا، على أنه يجمد شتاء فتعمل كسارات الجليد على فتح جزءه الجنوبي بين Troy ونيويورك، وحتى ثغر نيويورك يتعرض للتجمد لولا مقاومة الجليد بوساطة تلك الكسارات التي تعمل طول فصل الشتاء. ولقد كان البرد شبيهاً بشتاء مصر في منتريال وما جاورها، لكننا عندما أقبلنا على نيويورك دفع الجو نوعاً، ولم يلزمنا بلبس معاطفنا التي حملناها من قبل.



شكل ٥٥: قطعان البيسون في سهول البريري.

خرجنا من المحطة العامرة وأنا ذاهل من فخامتها وفسح امتدادها، وتعدد أرصفتها، وشعاب المواصلات المختلفة التي تخرج منها إلى أنحاء المدينة خصوصاً تحت الأرض، وحللت نُزُل Chelsea في شارع ٢٣ بقرب 7th Avenue مقر المتأجر الكبيرة والمباني الشاهقة والثروة الطائلة، ومنه إلى برويدواي وشارع ٤٢ وما لهما من صيت في الملاهي والأضواء ليلاً، فلقد خلفاً في مخيلتي أثراً قوياً منذ زيارتي الأولى حتى شكت

فيما كتبتُ، وخشيَتُ أن تكون المبالغة قد لعبتْ بقلمي، لكنني أَفْيَتْني لم أوف تلك الجهات حقها من الإكبار؛ فلقد كان أثراها للمرة الثانية أروع منه في الأولى وأبلغ.

وكم وقفتْ ذاهلاً وأنا أرى تلك الناطحات تكسوها الأضواء المتلوية المتحركة، وأولئك الجماهير الذين يسدون الطرق سداً ليلاً ونهاراً، ووسائل النقل التي لا تُحْصَى عدّاً، كل ذلك في نظام تام ووجهة لا تُحْدِّ! ثم كان الصباح وكانت جولتي حول الناطحات الشهيرة مثل Chrysler Empire وركلفر وما أحاطتها من طرق وأبنية، فكانت نظراتي لها إيكاراً لهؤلاء القوم ذوي العقول الجبارة والأموال الطائلة، وما وافى الظهر حتى ركبت قطاراً تحت الأرض Subway، وهو يسيراً تحت الأرض في الشوارع الرئيسية التي لا يجري فوقها «الإلفتير Elevator»؛ وذلك ليجد الناس وسيلة يركبونها في كل شارع.

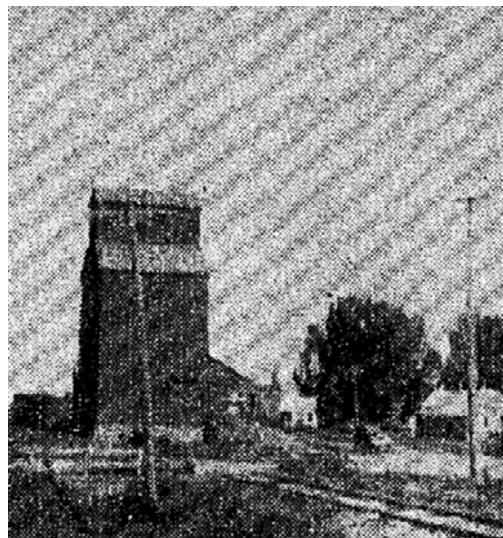
جزيرة كوني

وكان مقصدِي جزيرة كوني Coney Island، فظل القطار يسيراً زهاء ساعة في سرعة مخيفة، ولقد انتقلنا منه إلى غيره ثلاثة مراتٍ، كل ذلك بقرش واحد؛ فبمجرد أن تلقي بالقرش في الصندوق يدور بك الباب فتدخل محطةً لك أن تركَ أي قطار شئت: Express، أو Loca، إلى up town، أو Down town، ولو أحببت أن تظل يومك كله ترك هذا وتنتقل إلى ذاك فعلت ما دمت داخل المحطات، فإن خرجت وجب أن تدفع قرشاً آخر.

بعد ساعة كاملة اخترقنا مجموعة من قنطر أدت بنا إلى الجزيرة، فألفيتها بلداً عامراً مُذَّاتِ الحمامات الفاخرة على شواطئه الرملية، وأُقيمت في وسطه مجموعة من دور الملاهي والمعارض والملاصق والمطاعم بشكل ليس له نظير في أية جهة من الدنيا، وفي كثرة استغرقت من وقتِي ثمانِي ساعات كاملات حتى مررت بها مروراً سريعاً؛ فلقد حوت كل ما يخطر بالبال من صنوف الألعاب: البهلوانية والسحرية والميسير والأراجيح، وعرض خوارق الطبيعة من حيوانات وإنسان؛ فهناك مجموعة هائلة من أنصار الأدميين، والذين وُلدُوا على نقص في تكوينهم.

ومن أعجب ما رأيت جسم فتاة لها رأسان، وجسم إنسان أطرافه كعجل البحر، وأخر كجلد التمساح، ومجموعة من الأقزام الذين لا يزيد طولهم على نصف متر، وثلاث من النساء جمعن بين صفات الذكر والأنثى؛ فنصف الجسد الأيمن خشن قوي العضلات وفي الشعر، والأيسر أملس رقيق ناعم، وجمعن بين عضوي التذكير والتأنيث معًا، وسيدة

بلغ بها السمن حدًّا مخيفًا؛ فمحيط بطنها متراً ونصف، وزنها ٧١٥ رطل، وطولها متراً.



شكل ٥٦: مستودعات الغلال في سهول الپريري بكندا.

وكثير من تلك المعروضات تُشرح شرحاً علمياً يرمي إلىفائدة الجمهور رغم مظهره الهزلي، فلقد دخلت معرضاً منها يعلن عن بعض أنواع التعذيب التي كانت متبرعة قدِيماً في وصفها الحقيقي بتمثيل تُظْهِر الحقيقة جليّة، أذكر من بينها: التعذيب في بلاد الصين؛ يُوضَع الرجل في قفص ينكِمُش شيئاً فشيئاً ويضغط على المسكين وهو يتآلم، ثم تُطلق عليه مجموعة من فيران جائعة كبيرة تنهش لحمه حتى يموت.

و«العاشق والعاشقة»؛ إذا أحبت فتاة شاباً رغم إرادة أبيها حُكْم عليها بوضعه في «صندوق السماء»، وأُقفل عليه، وفي غطاء الصندوق مسامير حادة، وعليه مكبس لا تفتأ تدبره فيضغط معشوقها حتى يموت بيديها على مرأى من أبيها، وفي اسكتلندا في القرن ١٥ كانوا يضعون أقدام المذنب في أحذية عالية من حديد وتُصبُّ فيها المنصهرات، وفي إنجلترا سنة ١٤٤٧ استُخدِم الوثاق Rack يُشدُّ عليه الرجل بواسطة أسطوانة عصارة

كلما دارت شدت الرجل فاستطاع حتى مات، ثم التحمير البطيء بأن يُربط الرجل على حافة عجلة كبيرة تدور به، ومن تحتها نار متقدة تكاد تلمس الجسم كلما مر بها، وبذلك يُشوى الرجل شيئاً بطيئاً.

وفي المجر سنة ١٥١٨ عذبوا المجرم بربطه نائماً، ثم يأتي الجlad بكتلة من حديد سُخنَ إلى درجة الاحمرار، وكوئي قدميه كِيَا بطيئاً، ثم الدفن حِيَا أواسط أفريقيا عدا الرأس، ثم يُلطخُ الجسد بالعسل فينجذب النحل الكبير وينهش الجثة حتى يموت الرجل، أو يُوضع الرجل في برميل وتبقى رأسه ظاهرة تعرض للشمس المحرقة حتى يموت. وأخيراً عُرضت المقصلة وهي تهوي على رأس ماري أنتوان في مخرطة ثقيلة حادة، ونحن خلال ذلك نسمع أنيناً واستغاثة وبكاء مؤلماً مؤثراً لم أدر مصدره، ثم معرض آخر لعادات بعض الهنود الحمر وزنوج أفريقيا من رقص وأزياء. وهنا يبدو جمع من الزنوج الحقيقيين يعرضون علينا برنامجهم، ونحن خلال ذلك نرى أمام كل معرض رجلاً أمسك بيده مكبر الصوت وأخذ يحاضر الناس ويغريهم على الدخول بعبارات شائقة جذابة تستهوي كل إنسان. وما أقبل المساء حتى انتشرت ثريات الكهرباء في إسراف شديد من عقود متشابكة لا أول لها ولا آخر، مكان يسحر القلوب، ويستهوي النفوس، وزحام الناس عليه كثيف.

ورغم رخص أجور الدخول إلى تلك الأماكن – فهي زهاء قرشين لكل منها – ينفق الواحد ريالات متعاقبة دون أن يشعر إلا وقد خلا جيبيه منها، وكانت دهشتي كبيرة لما ينفقه القوم هناك حتى الذين تبذو عليهم علام الفقر والأطفال الصغار، وكفى أن يرى المرء ذاك البلد حتى يؤمن بأن أمريكا بلاد العجائب والمدهشات. كان اليوم الأحد ٦ سبتمبر فأثرت أن أرورد بعض المتزهفات لأرى ما هناك، فقصدت Central Park فكانت جموع الناس كثيفة، وفي ناحية منه أقيمت حديقة للحيوان هي أصغر بكثير من حديقة Bronx Park التي زرتها عامي الفائت، لكنها ضمّت بين أقفاصها مجموعة قيمة جداً من مختلف الحيوان في حيز من الأرض صغير، بحيث يمكن لكل فرد أن يطوف بها ويخرج بدرس في الحيوان مفيد.

ثم ركبت القطار المرتفع إلى طرف المدينة المسمى Battery، وهو أقدمها، وهناك مُدّت المتزهفات الفسيحة على حافة البحر، وكان الناس يسدون المكان سداً؛ لأن الباخر التي تربط مختلف الجزر خصوصاً بروكلن تروح وتتجدد من تلك الجهة، ولقد أدى بي السير في تلك الجهة إلى أحيا العمال ومساكن الفقراء المتقاربة المكتظة، والجهة

كلها تعوزها النظافة، وأهلها بدا عليهم العوز الشديد، وكثير بينهم المتسولون وأبناء الشوارع والسكارى الدمنون في ثيابهم الخلقة، وقد دُهشتُ لما أن رأيت سيدة هناك تتمايل وتشاكس الناس، وأخيراً أتى الخمر الذي أسرفت في شربه على قواها فسقطت على الأرض في حال يُرثى لها.



شكل ٥٧: الشارع الرئيسي في ونipeg.

وفي ناحية من تلك المنطقة هي اليهود، وكانت اللغة العربية تُكتب بالخط العريض في كل مكان، وباعة الملابس القديمة على رءوس الشوارع، وباعة «الشربات» يعرضونها في براميل زجاجية، وقد ألقوا بها قشر الليمون والبرتقال وكتبوا ثمن الكوب: سنتيما واحداً، أي ملليمين. ولقد بلغ من كثرة اليهود في نيويورك أن أطلق عليها أحياناً اسم .Jew York. ومن أظهر شارع المنطقة Essex و Bowery.

وفي تلك المناطق يكثر اللصوص وقطاع الطرق الذين يسمونهم gangsters، وكثيراً ما يهاجمون المارة ويسلبونهم ممتاعهم ونقودهم ليلاً، وقد يصحب ذلك ضرب وقتل، وحتى في وسط نيويورك في سنتراي بارك Cen. Park يحدث بعض ذلك. ولا عجب؛ فإن الإمعان في الغنى والإسراف في إنفاق النقود الذي كنت لألاحظه على المتسربين يوغر صدور الفقراء وينحدر بهم إلى الإجرام هكذا. ولقد جمعت نيويورك بين المتناقضات حقاً، فمن

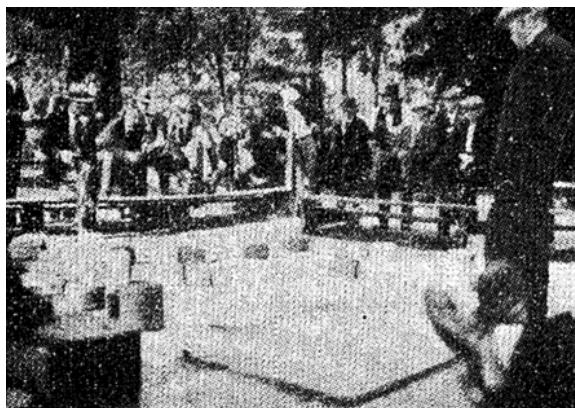
غنىً مفرط إلى فقر مدقع. ومما ساعد على وقوع ذلك في حي Battery أن الشوارع هناك غير مستقيمة؛ لأن هذا الجزء قديم من جهة، ولأن أرضه متلوية الشواطئ؛ لذلك لم تُنْتَر الشوارع كما هي حال باقي المدينة.

ولقد بني أحد الأثرياء الذين كانوا من فقراء الحي وأضخم مليونيرًا ناطحة ساقها س يؤجرها مساكن رخيصة لسكان الحي أصدقائه الأقدمين، واسم الرجل Alfred Smith، فكان ذلك منه وفاءً جديراً بالتقدير.

وهناك تمت القنطرة بين مانهاتن هذه وجزيرة بروكلن، ومن أشهرها قنطرة بروكلن المعلقة، وقنطرة مانهاتن، وهذه شاهقة بحيث تمر من تحتها أكبر الباخر، وفي الشارع أسفلها يمر الترام وفوقه القطار المرتفع، والقنطرة فوق كل أولئك، وضخامتها هائلة كثيرة؛ فهي تشمل شارعاً للمارايليه طريق لقطارين Elevators مجاورين «إيسبريس والعادي»، يليه وسط القنطرة للسيارات الثقيلة والأمنبوس، هذا إلى اليمين ومثله إلى اليسار، وفوق الجانبين دور آخر للسيارات الخفيفة.

وقفت وسط القنطرة وأنا دهش مذهول، وكان منظر القنطرة الأخرى، وبخاصة بروكلن والماء من تحتها وواجهة جزيرة بروكلن بمناطقها الساحقة، رائعًا بديعاً. هنا عَنْ لي سؤال فاجأته به شاباً كان يقف إلى جواري على القنطرة، فنظر إليَّ وابتسم وقال: أنت ابن عرب؟ قلت: نعم، مصرى، قال: وأنا إسكندراني جئت هنا منذ ست سنوات، ولا تزال عائلتي في الإسكندرية، على أن الكساد الحالى في أمريكا قد أخله عن العمل هو وزهاء ستة من المصريين، قلت: ولكن أتظلون عاطلين الوقت كله؟ قال: كلا، فإن الرئيس روزفلت — الذي يحبه العمال حباً جماً — قد ابتكر نظاماً يوظف به العاطلين ثلاثة أيام كل أسبوع حتى يجدوا عملاً ثابتاً.

قلت: وكم تُؤجرون على ذلك؟ قال: ١٢ ريالاً في الأسبوع، أي ثمانين قرشاً للاليوم الواحد، أعني زهاء عشرة جنيهات في الشهر، ولا يكاد ذاك المبلغ يفي بحاجاتنا؛ إذ المعيشة هنا غالبة، ومتطلبات الحياة متعددة، قلت: وماذا كنت تشتعل قبل ذلك؟ قال: اشتغلت عاملاً في عمارة أختص بالرافعة lift، وكانت أتقاضى ٢٥ ريالاً في الأسبوع، أعني عشرين جنيهًا في الشهر. ومن لم يجد عملاً من العاطلين يقيد اسمه في كشف الـ Relief ويتقاضى ريالاً في اليوم تدفعه له الدولة. ولقد تمسَّك أن أراقبه إلى المقهى وأشرب معه كأساً من القهوة، فأكابر فيه هذا الكرم، الذي علمته إياه مصر بلاد الكرم، وهو من عنصر أجنبي ولد في الإسكندرية وتمصَّر.



شكل ٥٨: يلعبون الضامة في المتنزهات العامة.

وَدَعْتُهُ ثُم عرجت في عودتي على المدينة الصينية China Town بشوارعها التي تزيينها الكتابة الصينية في بقع عريضة كُتبَت كلماتها تحت بعضها على شرائح تعلق إلى جوانب المتاجر، على أنني أفيتها بؤرة فساد؛ إذ آوت جماهير المبتذلات والمومسات، فعجلت بالخروج منها عائداً إلى قلب نيويورك النابض: Times Square الذي عنده تتلاقى الشوارع الثلاثة الشهيرة: برودوي و ٤٠ والطريق السابع 7th Avenue، وتتوسطه عمارة جريدة التيمز الأمريكية N. Y. Times في ناطحة كاملة، وقد شريت عدد يوم الأحد بقرش فألفيته ٧٦ صفحة في أربعة أقسام: المصور والأخبار والهزل والرياضة، وتظل تعلن أهم أخبار اليوم بالضوء المتحرك في حروف كبيرة جداً ليقرأها المارة جميعاً.

هنا بهرتني أصوات تلك المنطقة وإعلاناتها المدهشة التي تسد الجدران سداً، ولقد راقني من بين تلك الإعلانات التي لا حصر لها بحر مائج يغص بالسمك مختلف النوع في ألوان بد菊花 متحركة، وأآخر من رجل يصب شراباً أحمر من زجاجة في كأس، وثالث فنجان من القهوة يتصعد منه بخار كثيف، وسيجارة تحرق ويتصعد دخانها، كل ذلك بالنور المتهجج المتحرك، ومن صنوف الإعلان عن بعض المراقص إقامة تماثيل للراقصين والراقصات تتحرك وترقص في الشكل الطبيعي والأصوات تنعكس عليهم.

أما سيل الناس وبخاصة مساء الأحد، فذاك أمره عجيب، الأكتاف تتلاصق في غير مبالغة، وأينما كنت أسيير كان يقودني تيار الناس ودفعهم لي، والسيارات الفاخرة تسد الطرق، وكنا نسمع أصوات الراديو منبعثة من كل سيارة في جلبة كبيرة، وظل جميع الناس إلى بعد الثانية صباحاً وبينهم الأطفال الصغار، ولهم العذر إذ المكان يبهر العقول ويستهوي من الناس الحكيم الرزين، فما بالك بالأطفال ضعاف الأحلام. وكتن كما هممت بالعودة إلى الفندق لأنما ووجهت خطاي إليه أجدها تسابر التيار وتأبى إلا التجول في تلك المنطقة الساحرة.

أما خروج الغانيات والشبان عن الحد المألف في تبخترهم وعناقهم وتقبيلهم على قارعة الطريق، فذاك ما كان يروعني كثيراً، فكان الإباحة قد بلغت هناك غايتها، وامتنع الحياة بتاتاً، والمدهش أن ذلك لم يكن يسترعي من المارة لفترة استثنكار أو امتعاض، فالكل راضون بذلك، وهل الحياة في نظر رواد برودواي إلا هذا المتعان والإسراف في المجون؟!

قمت صباح الاثنين قاصداً تمثال الحرية، فأقلني القطار المرتفع Elevator إلى الباتري South Ferry، وهناك أخذت الباخرة Ferry إلى جزيرة صغيرة أقيمت عليها التمثال الذي أهدته الأمة الفرنسية للولايات المتحدة منذ خمسين سنة، وهو لسيدة تمثل الحرية تمسك بيدها اليمنى شعلة الهوى والحق والحرية مرفوعة إلى السماء، وباليسرى كتاب هو دستور الحرية.

وقد الشعلة تعلو عن مستوى البحر ٣٠٦ قدم، أي زهاء مائة متر، ورأس السيدة تبعث أشعة الحرية كأنها الشمس في لونها الذهبي، وفي الليل تُوقَّد تلك الشعلة بالمصابيح الكهربائية، وتلتقي أشعة النور من الأركان على جسم التمثال كله فيلتهب وضوحاً وبريقاً، وقد أقيمت على قاعدة من الجرانيت زُوِّدت بالروافع والدرج التي توصلنا إلى أقدام التمثال، وحول تلك القاعدة نُسّقت المنتزهات وزُوِّدت بالمقاعد.

ولقد هالني جماهير الزائرين الذين يسدون المكان طوال اليوم، وقد أعدَّ هناك سجل لقيد أسماء الزائرين، وقد دونت أسمي تقديساً للحرية وإيماناً بها، ولما أن عدت ركبت أطول خطوط «الإفتير»، واحتقرت البلدة كلها من أدناها إلى أعلىها from down to up. وقد استغرقت المسافة بالقطار السريع الإكسبريس ساعة كاملة، قطعت خلالها فوق مائتي شارع وسط تلك الناطحات الهائلة، وذلك على طول Av 3rd, كل ذلك بنيكيل، أي قرش واحد رميته في صندوق المدخل، وأدرت الباب وانتظرت هنيهة حتى وفد القطار،



شكل ٥٩: نشرف على نياجرا وقد أذهلنا ببروعته.

وُفتحت أبوابه من تلقاء نفسها فركبته، ثم دق الجرس فامتنع الناس عن الركوب وأقفلت الأبواب وحدها، وسار بنا ينهب الأرض نهباً.

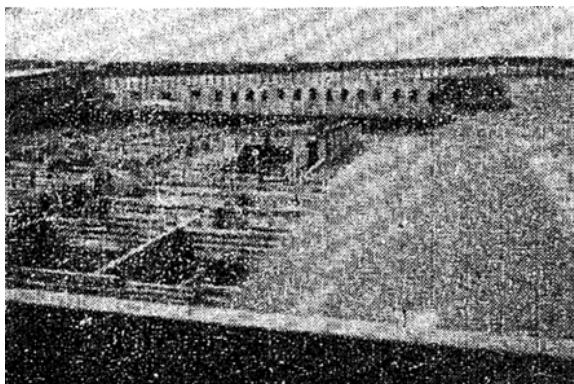
وهذا القطار يجري من أقصى البلدة إلى أقصاها في أربعة شوارع تقاد تكون متوازية، وفي آخره تجولت في حديقة النبات ببيوتها الزجاجية التي حوت نبات جميع المناطق، ثم عرجت على جانب الحيوان وبه حديقة الحيوان الكبرى، وفي عودتي أخذت قطار تحت الأرض Subway جرى بي على طول شارع 7th AV. والعادة أنه يسير في الشوارع الكبرى التي لا يجري فوقها الترام المرتفع، وهو أسرع الوسائل إذ لا تعوقه علامات المرور، فهو تحت الأرض في سراديبه الخاصة، ولقد دُهشت لما ألفيت السراديب عليها أربعة أشرطة متغيرة للإكسبريس والعادي Express & Local على الجانب الأيمن



شكل ٦٠: على قنطرة نهر شيكاغو.

يسيران إلى أسفل المدينة down town، ومثلهما على الجانب الأيسر إلى أعلى المدينة Up town، وأجره نيكل أيضًا.

وحدث أنَّ محطتي التي كنت أريد النزول بها شارع ٢٣ لا يقف عليها الإكسبريس، فمر بها ووقف في شارع ١٨، فنزلت وخطوت إلى الجانب الآخر Up town وانتظرت حتى جاء القطار العادي local، فركبته إلى حيث أردت ولم أدفع لذلك شيئاً. إلى ذلك فهناك مجموعة من الترام العادي والأتوبيس الفاخر البديع والبواخر Ferries المتعددة التي تسهل لك الاتصال بأية جهة من المدينة وما حولها من جزائر، وكل ذلك بنيكل ليس غير.



شكل ٦١: في ناحية من مجازر شيكاغو.

ولهم الحق أن يفاخروا بأن موصلات نيويورك أرخص وأسرع وأرقى منها في أية مدينة أخرى في العالم، ولقد ساعدتها على رواجها هذا وفرة الركاب الذين تغص بهم العربات صباح مساء، فلا تتجاوز المدة بين القطار الذي يليه دقيقتين. وقد عدلت عربات قطار تحت الأرض فألفيتها عشرًا في كل قطار، كل ذلك ولا تكاد تجد مكاناً خالياً، وكثيراً ما تظل واقفة.

ولعل أفالر ما رأيته من وسائل النقل هناك محطة بنسفانيا للسكة الحديدية، وقد كنت إدخال أن المحطة التي وصلت إليها وافداً من مونتريال Grand central لا يفوقها في الأبهة والفاخامة شيء، وإذا بها لا تُذكر إلى جانب المحطة الأخرى بنسفانيا، فهو المدخل يبهر النظر بمرمرة وبريق، وجمال المتاجر على الجانبين، والأقبية المذهبة فوق الرءوس، وتزيين واجهة منه مجموعة من أعمدة كادت تبلغ بعظمتها أعمدة الكرنك، ثم تنزل درجاً إلى وهو آخر فسيح للتذاكر والاستراحات والمطاعم والتلغراف والتليفون والاستعلام، ثم تنزل إلى ثالث عظيم به يقف المسافرون كل فريق أمام مدخل رصيفه حول مكان مدخل ٢٨ رصيفاً لقطارات مختلفة، والراديو بمكبراته يذيع على الجيش التي تراها كل لحظة رقم القطار الذي سيقوم الآن ووجهته ومن أي رصيف يسير، وإذا دخلوا نزلوا درجاً آخر تحت الأرض وركبوا عرباتهم.

عجبت من نزعة الأميركيين إلى الظهور بمظهر الأبهة والغنى المفرط في كل شيء؛ فلا يروقهم إلا الضخم الطلي من الأشياء، وتقع تلك المحطة في 7th AV The Empire State. خرجت منها ذاهلاً وأحببت أن ألقى بأخر نظرة على أكبر ناطحات العالم على مقربة منه، فطفت حوله فزدت إعجاباً به وبالقدرة الهندسية التي أنتجته، وقد أعلنا في بعض نوافذ السفل «الفترinات» يحضون الناس على الصعود إلى قمته. وأذكر من ذلك أنهم وضعوا نماذج كبيرة للبناء إلى جوار برج إيفل ومسلة وشلن والهرم الأكبر وبرج بيزا المائل، وروعيت فيها نسب الارتفاع، فكان هو أعلىها، ثم تدرجت الأخرى نصراً في العلو على الترتيب المذكور، وفي نافذة أخرى أعلنا عن عدد الزائرين لقمة البناء، فكانوا في الأسبوع الأخير من أغسطس: ١٢٦٤٤، وفاق مجموع من زاره إلى آخر أغسطس ٢ مليون ونصف، دفع كل منهم ريالاً أجراً للصعود، أعني أنهم ربحوا من وراء ذلك نصف مليون جنيه، ثم ذكروا الدول المختلفة التي ينتمي إليها أولئك الزائرون، ومن بينها مصر، ثم نشروا جميع أعلام تلك الدول – وكان علمنا الأخضر الجميل ظاهراً بينها – كل ذلك ليستمروا الناس إلى الصعود فيربحوا من وراء ذلك مالاً وصيتاً.

أحسست بالجوع عاجلاً هذه الليلة لأن غدائى كان مفاجأة غريبة؛ فلقد رأيت في إعلان الطعام الذي يضعونه على مقدم مطاعمهم بالخط الكبير وعليه الثمن، أن الطبق الخاص Special dish اليوم هو Hot dog، ومعناه الكلب الحار، فأحببت أن أتدوّق لحم الكلاب الذي يحبه القوم حباً جماً – لكثرة وروده على أسنتهم وفي إعلاناتهم – وإذا به مجموعة من لحوم مقطعة تحكي البسطرمة حُشرت في أغشية حمراء أسطوانية تحكي المنبار.

تناولتها في غير شهية ظناً مني أنها من لحوم الكلاب، ولما أن استفسرت عنها آخر الأمر ضحك الرجل وقال بأنها من لحوم البقر، وقد سُمِّيت كذلك لأن الكلاب تحب رائحتها حباً جماً. دخلت في المساء مطعمًا للعشاء، وهنا كان رأس الطعام صيني الأصل يُسمَّى chop suéy، ويُعْلَن عنه بحروف كبيرة من نور أمام المطاعم، لذلك خلته شهياً، وإذا به خليط من نثر لحم البقر وشريائح البصل والشكوريا، صُبَّت عليه الصلصة فبدا كالعجبين الأحمر، فتناولته على مضض مني لأن مذاقه كان منفراً، ولم ينقذني من الجوع سوى الحساء والخبز والزبد. وذلك يُقدَّم مع كل طعام، ثم فطير التفاح Apple pie وفنجان القهوة مع اللبن، وذاك نظام طعامهم العادي، وقد كلفتني تلك الوجبة ثمانية قروش مصرية.



شكل ٦٢: الساحل الذهبي مقر مليونير شيكاغو.

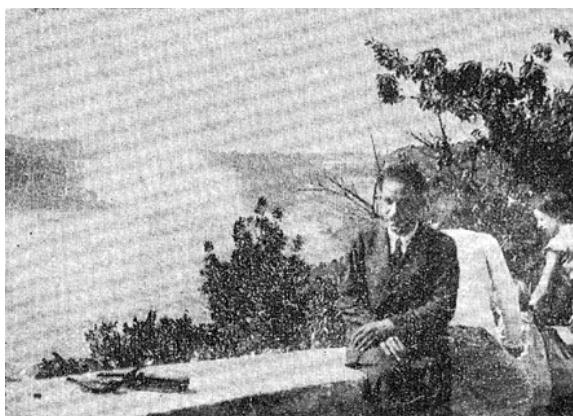
انحدرت بي قدماي إلى كعبة أهل نيويورك وزائرتها: برودواي وشارع ٤٢^{Av7}, فكانت الحال كما تراها كل ليلة: بحر زاخر من الناس من مختلف الأرض، وكانت أسمع كل فريق من المارة يتكلم بلغة مختلفة: فرنسية وطليانية ويونانية وعربية وإسبانية إلخ، وحتى اللغة الإنجليزية التي يتكلمها السود الأعظم من أهل نيويورك، بل وأمريكا، محفة دخلها كثير من الكلمات الغربية.

ولم يكن يروقني سمعها منهم، فقد أكسبواها اعوجاجاً وإضعافاً أفقدها موسيقى النطق الذي نسمعه من الإنجليز، وبخاصة السيدات، وذلك طبيعي بين أمة قد تألفت من عناصر متباعدة وجنسيات عدة توطنوا في البلاد، ولم تتأصل في ألسنتهم اللغة الإنجليزية، أما عن اللحن والتكسير في قواعد اللغة فذاك لا يكاد يخلو منه أحد هناك.

طفقت أتجول هناك وأنا مبتهج بما أرى من أنوار وأزياء، طروب لما أسمع من ضوضاء حركة المرور الصاخبة التي كانت تنفصني بأدي الأمر، ثم أفتتها فأحببت سماعها: من صياح الناس يعلنون عن ملاهيهم، إلى صوت العجلات، إلى غناء الراديو المنبعث من كل سيارة، إلى جلة «الإلفتير» فوق الرءوس، و«السبوي» تحت الأرض. وكان صوته ينبعث من النوافذ التي تشغل كثيراً من أرض الطرق في شباك حديدية لا يفتَّا بين آن وأخر يتفجر منها دخان وبخار ساخن هو الهواء الفاسد الذي تطرده مضخات التهوية، وتعيشه بغیره من الهواء البارد المنعش.

ومن تلك القطارات ما يسير فوق بعضه، فهناك ثلاثة أدوار «للسبوي» الواحد تحت الآخر، وفوق أولئك تram الأرض العادي، وفوق ذلك «الإلتفير»، وقد يكون من دورين؛ قطار يجري فوق الآخر، أعني أن وسائل النقل قد تشغّل ستة أدوار بعضها فوق بعض. كل ذلك يُحدِث جلة تقلق راحة من يحلّ البلد لأول وهلة، لكنه لا يفتّأ يعتادها فينفر من السكون، ويعده ضرباً من الوحشة المقلقة، وذلك ما كنت أحسه أنا آخر الأمر. وعند منتصف الليل رجعت إلى الفندق، وكان الجو اليوم حاراً بعد أن كان أميل إلى البرودة في الأيام السالفة.

والجو في نيويورك سريع التقلب، فبینا تجد الشمس صاحبة وضاءة والهواء علياً، إذ به ينقلب في ساعة واحدة فيحجب السحاب الشمسي، وقد يمطر وابلاً أو يعم الجو شبه دخان يخفى الكثير من جمال مناظر البلدة وما أحاطها من بحار وجزر ونطحات، وذلك هو السائد في جو نيويورك إذ قلما يصفو الجو يوماً بأكمله.



شكل ٦٣: نجلس على حافة خانق نياجرا ومن ورائنا الشلال.

ودعت نيويورك ظهر يوم الثلاثاء ٨ سبتمبر مستقلاً الباخرة *Saturnia* الإيطالية، بعد أن أفلتت مني الباخرة *Rex* ملكة الباخر الإيطالية، وحملتها ٥٣ ألف طن. أما هذه فزهاء نصفها حجماً، لكتني ألفيتها عظيمة فاخرة البنيان والأثاث، فسيحة الأبهاء

والحجرات، شهية الطعام – والإيطاليون معروفون بجودة الطهي إذا قورنوا بالإنجليز – وهل أنتي صنوف المكرونة البديعة التي لم تخل منها وجبة أبداً؟ أو قناني النبيذ بلونيه الأحمر والذهبي الذي يتلألأ فوق مناضد الطعام جميعها في كل آن، والذي يشربه القوم بدل الماء في إسراف شديد، فلا يفتّ الواحد يفرغ القنينة الكبيرة ويعقبها بثانية فثالثة.

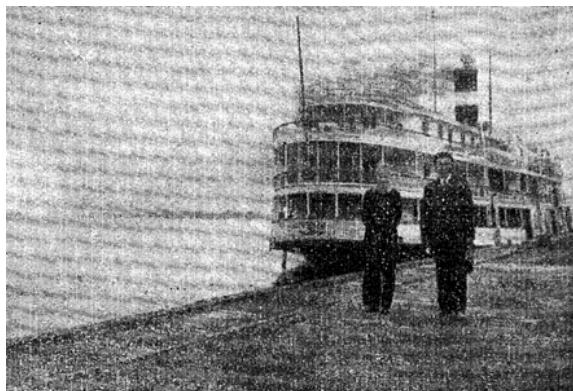
أخذت الباخرة تتنحى عن أرصفة نيويورك ومينائها الصاحب العظيم، فتجلت ناطحات السحاب في روعتها الكاملة، وأخذت هذه تنضم وتتوحد كلما بعدها حتى أصبحت شبّاً فاتراً، ثم غابت عن الأنظار. وكانت وجهتنا بسطن.

(١٧) بسطن

أكبر بلاد ولاية ماستشوستس، وقد أُعلنَ على لوحة الباخرة أنّا سنصلها صباحاً؛ الأربعاء، ولما أن استيقظنا في الصباح أفيينا الباخرة واقفة في غير حراك وقد أحاطتها حجب كثيفة من الضباب ألمتها الوقوف، وحرمت عليها السير خشية أن تصطدم بصخرة أو باخرة أخرى، ذلك لأنّا كنا نحاول عبّاً أن نبصر بشيء على بعد أمتار قليلة من الباخرة ولم تُجد مناظيرنا في ذلك شيئاً. وتلك المنطقة عُرفت منذ القدم بخطر الملاحة فيها لأنها وسط بين تلاقي التيارين: مياه تيار الخليج الدافئ وافية من الجنوب، ومياه تيار لبرادر البارد تقد من الشمال؛ فتكثّف كثيراً من أبخرة الجو في سحابات قائمة هي ذاك الضباب الثقيل، وقد يسمون هذا الحجاب أو الستار الثقيل The cold wall بالحائط البارد؛ لأنّه يقف سداً كالحائط يُشع ببرودة وبلاءً.

لبث الباخرة واقفة تعلن عن مكانها بالأجراس والأبواق لتنبه البوادر الأخرى اليوم كله إلى الساعة السادسة بعد الظهر حين انجل ذاك الضباب، وكنا نخاله سيُخف حوالى العاشرة صباحاً عندما تعلو الشمس وت bxرره، لكنه أدهشنا برکوده طوال اليوم، وقد حل ذلك بالكثير من السفن الماخرة في تلك المياه، ولقد أعلنت الجرائد عن هذا الضباب الذي عاق سير الكثير من السفن وقالت بأنه أسوأ ما وقع في فصل الضباب كله هذا العام.

نزلنا بسطن بعد أن جزنا مجموعة كبيرة من جزائر عند مدخل مينائها، ولقد ظهرت فاترة وسط دخان المصانع المحيطة بها، وهي مدينة المنسوجات على اختلافها. وأخذنا نخترق نواحيها فكانت المباني عظيمة شاهقة، لكنها تطل على شوارع ضيقة متلوية، فكلما سرت قليلاً انعطف بك الطريق يمنة ويسرة، وتکاد تُكسي جميعاً بطبقة سوداء



شكل ٦٤: بعد أن نزلنا من الباخرة تورنتو على بحيرة أنتاريو.

قدرة منفرة من الفحم المنبعث من دخان المصانع. وأدهشني ما رأيته من القطار المرتفع Elevator فكأنها جمعت بين وسائل النقل العظيمتين اللتين في نيويورك والمدينة أقدم بلد أمريكا، والذكريات التاريخية تحوطها من كل جانب، فهي مهد الثورة الأمريكية، وفيها بدأت أول شعلة لحرب استقلال أمريكا، وكانت مقرًا لزعماء تلك الثورة.

فلقد زرنا الكنيسة القديمة التي أقيمت سنة ١٦٠٣، والتي عمّد فيها بنiamin فرانكلن، ثم مررنا بالبيت الصغير الذي ولد فيه، وقد أبصرنا بالمكان من المزارع المحاطة بالمدينة الذي بدأت فيه أول مناوشة قاوم فيها الفلاحون الإنجليز بالسلاح، حين خطب زعيم الرعاع في الناس قائلاً: اثبتوا في أماكنكم ولا تطلقوا النيران حتى يعتدوا عليكم؛ فإن رغبوا في الحرب فلنبدأها في هذا المكان: Stand your ground, don't fire unless fired upon, but if they mean to have a war, let it begin here.

ثم زرنا دار البلدية القديم The Old State House الذي بُنيَ سنة ١٧١٣، والذي قام وشنطن يخطب الناس من شرفته الصغيرة ويقرأ تصريح الاستقلال والانسلاخ عن الإنجليز Declaration of Independence، وأمام تلك الشرفة وسط الميدان الصغير وضعَت علامة من الحجر الأبيض لتدل على مكان مذبحه بسُلطان التي سُفكَت فيها أول

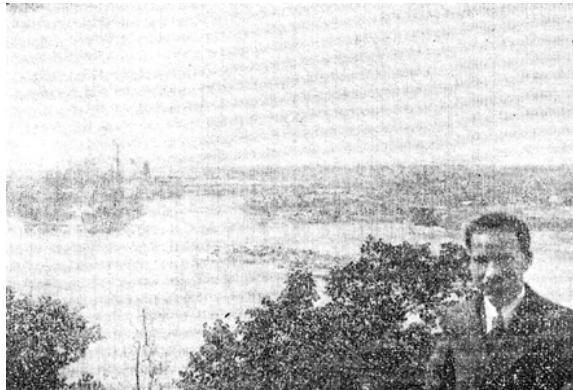
دماء الثورة سنة ١٧٧٠. ثم كانت زيارتنا لمهد الحرية قاعة فايناي Faneuil Hall التي قُرّرت بين جدرانها عناصر الثورة وبنود الاستقلال سنة ١٧٦٣. ومن الكنائس القديمة كنيسة المسيح Christ Church التي عُلّقت فيها المصايبخ سنة ١٧٢٣ لتنبه Paul Revere بزحف الجنود الإنجليزية.

وأخيراً اعتلينا ربوة بنكر Bunker Hill التي كانت مقر الموقعة الحاسمة Battle بين الأمريكيين والإنجليز، ويقوم عليها نصب تذكاري لانتصار أمريكا، وهو عبارة عن مسلة شاهقة علوها ٢٢١ قدماً ارتفعناها بنحو ٢٩٤ سلماً. ومن نوافذ الذروة بدت المدينة في منظر بديع رغم ما أحاطها من دخان وضباب. وقد بدأ بناؤها سنة ١٨٢٥، وتم ١٨٤٣، كل تلك الذكريات أحلت المدينة من نفسي مكاناً سامياً، فهي أقدم المدن الأمريكية وأقدسها، ويعدها القوم كعبتهم يحجون إليها، ويزورون تلك الأماكن الخالدة، ويترحمنون على مقابر قادتهم وأبطالهم الذي ماتوا ودُفِنُوا في رحابها دفاعاً عن استقلالهم وحماية لحريتهم.

ولقد كان طريق عودتنا من الشارع الرئيسي للمدينة الذي تقع عليه أكبر المتاجر وأروع الأبنية، ويُتوّج باسم زعيم حركة استقلال أمريكا جورج وشنطن. ولم ندرك متحفها الشهير Agassiz Museum الذي حوى مجموعة قيمة من مختلف الزهور في أحجامها المختلفة وألوانها البديعة، وكلها من الزجاج صُنِعَ في مصانع المدينة، وليس له نظير في العالم أجمع.

ولقد كان يسود جو المدينة شيئاً: المظهر الصناعي الذي كان يبدو في كثرة المداخن وسواد الأبنية، ورث الثياب التي كان يرتديها غالب المارة وهم طبقة العمال، والشيء الآخر رائحة السمك التي كانت تتباعد من كل الأرجاء، وبحار بستان تُعدُّ من أكبر مصائد الأسماك في الدنيا؛ بفضل قربها من مياه شط نيوفوندلند نهاية دفة تيار الخليج، وكثرة الضباب الذي يجد السمك تحته غطاءً ومخبأً، وتُعدُّ ضاحيتها التي تُسمى جلوستر من أغنى بلاد الدنيا؛ لأنها أغنى المناطق هناك بصيد السمك وإعداده.

وعجيب أمر هذا الضباب؛ فما كدنا ندخل الميناء ونقف بها بضع ساعات حتى عاد فخيم علينا من كل ناحية، ثم انجل ساعة واحدة سلكتنا سبيلاً فيها إلى عرض المحيط، وهذا نحن اليوم الخميس نشق طريقنا خلاله في بطء شديد، ولا نكاد نبصر بشيء قط، ولا تفتّ الباخرة تعلن عن مقرها بالأبواق والأجراس، ولبثنا هكذا يوم الجمعة كله حتى أخذ ينجل تدريجاً. أما الجو فكان بارداً منعشًا، والبحر هادئاً وديعاً. واليوم السبت فقط سطعت الشمس وصفاً الجو؛ لأنّا بعدنا عن أطراف هذين التيارين.



شكل ٦٥: أشرف على نهر أناواة من ربوة البرلان.

ولقد أذكرني ذاك الضباب بفاجعة الباخرة تيتانيك التي كانت تعبر المحيط لأول مرة بعد بنائها سنة ١٩١٢، وكانت تفاخر بأنها أحدث الباخرات التي شقت المياه وأكبرها، وكان آلاف الركاب آمنين على أرواحهم واثنين برسوخ قدم مطيطهم على سطح الماء، وما أن أوغلت في ذاك الضباب إلى الشمال من منطقتنا هذه حتى باغتها جمد من الحديد لم تنم عنه حُجبُ الضباب الكثيف، فحطם جانبها وغرقت. وقد أودت بحياة الألوف من المسافرين؛ لذلك لا يغامر قواد السفن اليوم في تلك المنطقة إذا أحاطتهم ضباباً، ويجب أن تظل الباخرة واقفة حتى تخف وطأة تلك الظلامات.

نزل الباخرة من بسطن جمع كبير من المسافرين، وجهم من الطليان والإغريق الذين توطنوا أمريكا، وقد حنوا إلى أوطانهم فعادوا يزورون أهلهم هناك، وبعضهم يعتزم العودة والكثير يؤثر أن يقيم في بلاده الأولى بعد أن حمل معه ما جمع من ثروة ومال، خصوصاً وأن المقام في أمريكا اليوم لا يعود عليهم بكثير فائدة؛ لأن الصائفة المالية لا تزال آخذة بمخنق الكثير في تلك الديار.

ومن ركب الباخرة زهاء مائة طالب من مختلف بلاد إيطاليا استقلوا الباخرة، وقد مرروا على الكثير من ثغور البحر الأبيض والبرتغال وأزورا وبسطن ونيويورك، ثم أقاموا في باخرتهم وهي ترسو هناك خمسة أيام تفقدوا فيها أنحاء المدينة تحت إشراف أستاذ إيطالي. وقد علمت لما أن حادثتهم في هذا الشأن: أن موسوليني فرض على كل باخرة



شكل ٦٦: دار البرلمان الفاخرة في أتاوا.

أيًّا كانت وجهتها أن تعد مكانًا في أية درجة فيها لمائة طالب يسافرون معها في رحلتها ذهابًا ورجوعًا، مقابل نصف أجر الدرجة الثالثة تدفعه الدولة، وذلك لأنَّه يؤمِّن بفائدة الرحلات وأثرها في تربية النشء على الاستقلال، وقوَّة الملاحظة، والرجلة، والاعتماد على النفس.

وقد كان سلوكهم أينما ظهروا مشرقاً؛ فلم نرهم إلا في كامل حلهم يلزمون الهدوء، ويبتعدون عن المجون، ولم نلح أستاذهم بينهم إلا نادرًا، وحتى في حفلات الرقص آخر الليل كانوا يحضرون ويشاهدون ما يقع فيها دون أن يحركوا ساكناً. أكبرت تلك النزعة المصلحة في زعيمهم موسوليوني الذي لا يدخر وسعاً في تكوين الرجال الذين ستعتمد عليهم إيطاليا في مستقبلها، وكانت أشعر بالحزن الشديد لنصيب أبنائنا من تلك التربية، وإلى متى تظل حكومتنا غافلة عن أبنائها؟ وهل يكلف وزارة المعارف مثل ذاك الأمر إلا القليل من المال؟ به يرى المصريون العالم الخارجي فتتسع مداركهم، ويرون بعيونهم كيف يغامر أبناء الأمم الأخرى طلبًا للرزق الوفير في أقصى الأرض، غير قانعين براتب ضئيل تمن عليهم به حكومتهم في وظيفة لا تثبت أن تقتل فيهم روح العمل وحب البحث، أليس ذلك أجدى على الطلبة مما يدرسون في مدارسنا، وما يحرزون من «شهادات»؟ إني لأرجو أن يلمس رؤساؤنا ما لذلك من أثر جليل في التربية، ويعدوا العدة

لإنفاذها، وهذا نحن على أبواب عصر جديد، وقد زالت عقبة السياسة التي كانت تقف في سبيل كل تقدم، وتعترض كل محاولة للإصلاح.

العودة إلى مصر

أزورا

خرجنا إلى عرض البحر وخلفنا وراءنا منطقة الضباب الكثيف، فصفا الجو وهدأ البحر، وكانت تتعلق بمائه قطع من طفيليّات الماء وأعشابه في عناقِيد مشتبكةٍ بحها صغير، وهو عشب سرجاس الذي يكثر في وسط البحر بين دورة التيارين: تيار الخليج إلى جانب أمريكا، وتيار كناريا إلى جانب أوروبا وأفريقيا. وذلك البحر الأوسط الذي حمل اسم ذاك النبات «بحر سرجاس» قلماً يغضب ماؤه أو يعلو موجهه؛ لذلك لبّثنا خمس ليالٍ وأربعة أيام كاملة نشق طرفة الشمالي في هدوء حتى وصلنا جزائر أزورا ظهر الاثنين ١٤ سبتمبر، فظهرت مجاميع الجزر منثورة في امتداد كبير.

ثم دخلنا خليجاً كملته الأرصفة والحواجز الصناعية في ثغر سان ميشيل في جانب من الجزيرة الرئيسية، وكانت الأرض جبلية تعلو رياها في مخاريط متعددة لبراكنين خامدة كست الخضراء القصيرة منحدراتها، وفي سفوحها السفلية أقيمت المدينة بمتنزهاتها الجميلة وبيوتها الوطئية، وكان يشرف على الميناء دير «سان ميشيل» الكبير. ولم نقف بها سوى ساعتين ونصف، وأقلنا زورق صغير إلى الشاطئ بعد أن دفعنا ريالاً ضريبة النزول إلى البر. وطافت بنا سيارة في أهم أنحاء البلدة وبعض ما أحاطها من مزارع الفاكهة والأناناس، وقد بدا على كثير من أهلها العوز؛ فكم رأينا من حفاة حلقي الثياب ومتسللين بائسين! على أنهم مرحون بسطاء في جملتهم، وهم من البرتغاليين؛ إذ الجزر مستعمرة برتغالية.

لشبونة

اضطرب البحر وعلا موجه وترنحت السفينة قبل دخولنا لشبونة بيوم واحد، حتى ألم كثيراً من المسافرين مضاجعهم وهجروا المطعم في العشاء، ولم يشاطر منهم في رقص المساء إلا القليل. وفي باكورة الصباح أشرفنا على عاصمة بلاد البرتغال؛ دخلنا خليجاً مستطيلًا يصب في نهايته نهر التاجه، وإلى يمينه قامت لشبونة ببيوتها الوطئية وسقوفها الحمراء تتدرج على المنحدرات، والمباني مكتظة متقاربة إلى ورائها ظهرت الربا نصف مجده، وقد احمرّ أديمها من شدة الجفاف ولفح الشمس إلا في بعض نواح زرعها القوم خضرأ.



شكل ١: منظر عام لـMontreal في كندا.

نزلنا نجوب نواحيها، وظلت السيارة ثلاثة ساعات وهي تشق طريقها وسط أرقعة مختنقة كثرت لياتها، وصعب منحدرها، ورُصَّفت أرضاها بقطع البازلت البركاني في غير نظام. والبيوت تلاصقت فيما بين ثلاثة أدوار وخمسة دون أن نرى بها فجوة أو شرفة أو فراندنة، وإذا بدت بلكونة كانت عبارة عن نافذة شباك خرجت منها شبكة من درابزين متقاربة صغيرة. على أن جل واجهات البيوت كُسيَت بالقيشاني الملون البديع، وذاك لا شك مقتبس من الأندلس وما فيها من أثر عربي. وكان الترام يجري وسط تلك

الطرق الوعرة، وكلما قارب التواء وقف عامل بالإشارة ليدل الناس على اقتراب الترام لينتظروا حتى يمر.

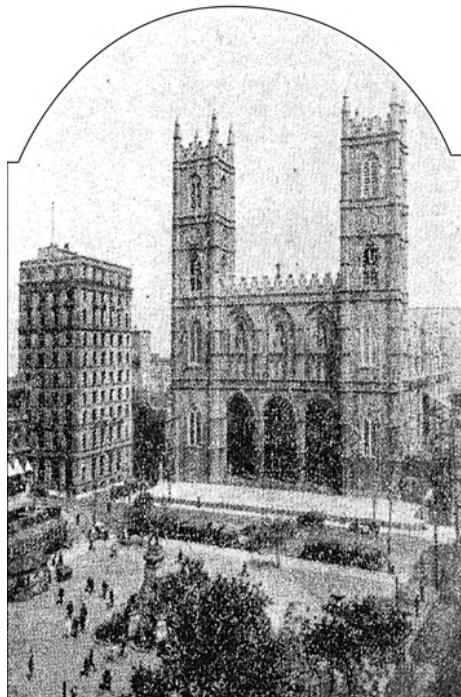
والمتاجر جلها صغير وبعثر أسفل البيوت في غير نظام، على أن بالمدينة عدداً من المياضين لا يأس باتساعها، تقوم وسطها تماثيل العظاماء من ملوك وكاشفين، ومن أظهرهم تمثال فاسكو داجاما يشير بيده إلى البحر، وإلى ورائه كنيسة كبيرة زرنا فيها مدفنه إلى جوار بعض العظاماء والأمراء. وهناك عدد كبير من الكنائس الهائلة، وقد راقني منها بناء الكاتدرائية «سان جيروم» في هندستها القوطية، وأعمدة الداخل شاهقة العلو، وتحكي مآذن المساجد تماماً، ثم كنيسة سانت أنطونيو أقيمت حول المكان الذي ولد فيه، وإن كان مثواه اليوم روما، والناس يقدسونه إلى درجة العبادة، فالمقام غاص بالرُّكُع السُّجود، تنهال الهبات من كل جانب، وتبدو الشعونة داخله بشكل فاق ما نراه في أضحة البلاد الشرقية.

وكان يروقنا طوال الطريق نداء المتجولين والمتجلولات من بائعى السمك والخضر والفاكهه يحملون السلال على رءوسهم ويصيحون ترويجاً لسلعهم، وقد بدا على هندامهم العوز الشديد. أما المتسولون وشريدو الشوارع من الأطفال ففي كثرة هائلة، وجلهم حفاة قدروا الثياب، ولا تلبث تسمعهم يطلبون إليك سنتيماً one cent وأيديهم ممدودة في تواضع شديد إذا قُورِنُوا بمتسولي أمريكا الذين يطلبون a quarter، أي خمسة وعشرين مليماً؛ خمسة قروش، ولا يقنعون بدونها. وكان قد تخلف معى من النقود الأمريكية زهاء عشرين سنتيماً بدرتها عليهم، فكادوا يطربون فرحاً مع أن السنتيماً بمليمين.

ثم علت بنا السيارة تدريجياً حتى أشرفنا على منظر البلدة كلها وهي تتدرج ببيوتها المتلاصقة إلى البحر في مشهد بديع، وهناك زرنا حدائق للنباتات كُسيت سقوفها بشرائح الغاب تتخلله بعض أشعة الشمس، وبه مجموعة من النبات قيمة جداً.

ولقد دخلنا متحف للعربات القديمة حوى مجموعة من عربات الخيول لبعض الملوك والبابوات، أذكر من بينهم البابا كلمنت الحادى عشر، وفيليب الثاني ملك إسبانيا الذي مَلَك البرتغال يوماً. والعربات مقعرة مستطيلة بُولغ في تذهيبها وفرشها بالقطيفة والحرائر، وتزيينها بالقصب البديع، وإلى جوارها بعض السروج الذهبية والفضية وكثير من الأسلحة.

وفي ناحية هناك دخلنا مدفن الملوك في شكل «بانتيون» باريس، لكنه في حجم أصغر ومظهر أقل فخامة. وتقع دور الوزارات حول ميدان فسيح جداً عُزِّيَ برصفه، على أن



شكل ٢: كنيسة نوتردام في مونتريال.

المباني نفسها قديمة وليس جذابة، والبولييس منتشر في جميع الطرق على مسافات متقاربة حتى خُيّلَ إليَّ أنهم يخشون صدى ثورة جارتهم إسبانيا. والبولييس هناك دقيق فاسِ حتى إن سائقتنا التفت يساره وخالف إشارته له مخالفةً بسيطة غير معتمدة، فأوقفه وسحب منه الرُّخصة وسلمه قسيمة المخالفة، وحاول الرجل استعطافه فأبى وقال: أتريد أن تُرى السائحين الأجانب أننا لا نحترم القانون؟ وقد راقني من بعض الطرق المتعددة على قلتها رصف الإطارين باللُّوْن في هندسة شرقية عربية. ومظهر البلد بدا قديماً شبه أثري أذكرني بأزقة روما، والناس بدوا في بساطة الهندام، وشتان بينهم وبين وجاهة الأميركيين، وحتى المعروضات في المتاجر كانت من المواد الرخيصة، والأقمشة كلها من الشيت الملون والباتستة وما إلى ذلك

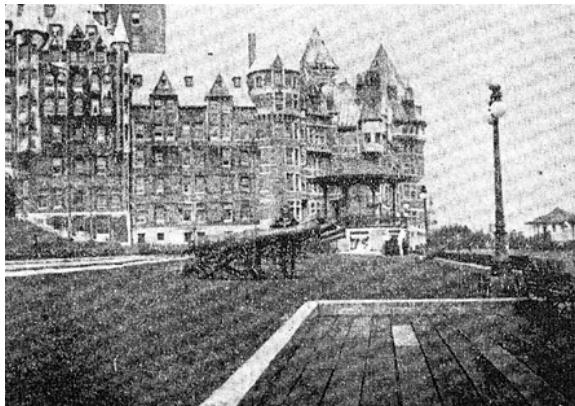


شكل ٣: الشعوذة الدينية منتشرة في كندا الفرنسية.

مما قل ثمنه، وكثير من النساء يحملن شيلاناً ثقيلة على أكتافهن رغم الجو الحار. وقد كانت الشمس شديدة الحرارة من أثر المنحدرات المجدبة التي تحيط بالمدينة، وما كدنا نخرج إلى البحر حتى رق النسيم وهبطت الحرارة هبوطاً عظيماً مفاجئاً أيد في جلاء ما للبحر من أثر في مناخ الإقليم.

أما سحن الناس فقد اسمرّت جميّعاً وكثرت العيون السوداء، على أن نسبة الجمال أقل منها في أمريكا وفي الأندلس، فقلما كنت أبصر بوجه جميل يستوعي النظر، وبدأ النساء في شيء كبير من الحشمة والوقار في السلوك والهندام والحديث، على عكس فتيات الدنيا الجديدة اللاتي قد انتقصن من جمالهن كثيراً بما يبدين من إباحة وطيش.

وهم يحاولون استغلال الغريب ما استطاعوا، فمثلاً استبدلت ريالين من النقود الأمريكية فسلمني الصراف ٤٢ اسکودو، ولما رجعت لم تكن بي حاجة إليها، فعدت أردها إليه ليعيد إلى النقود الأمريكية، فسلمني ريالاً و٧٠ سنتيمًا، أي أنني خسرت ستة قروش في تلك الصفقة، وذلك طبيعي في بلد فقير يحاول أهله أن يحصلوا على المال من أي طريق. والاسکودو يعادل قرشاً صاغاً تقريباً، وهو أساس النقد البرتغالي، وينقسم إلى مائة سنتافو، أي أن السنتافو عُشر المليم.



شكل ٤: مباني كوبك تذكرنا بالعصور الوسطى.

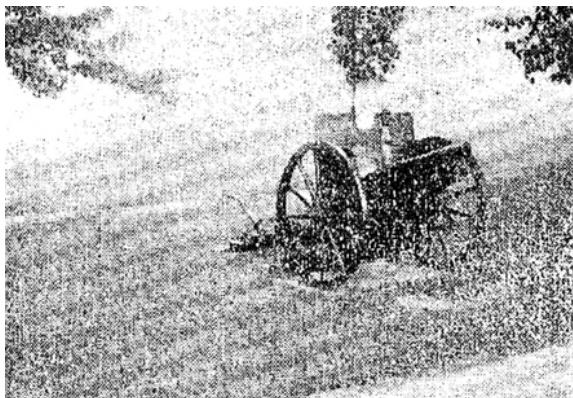
جبل طارق

قمنا مبكرين في السادسة من صباح الخميس ١٧ سبتمبر لنشهد سير السفينة بين شواطئ القارتين؛ أوروبا إلى يسارنا وأفريقيا إلى يميننا، ونحن نجتاز جبل طارق، وقد ظهرت الربي الجيرية الشاهقة على كلا الجانبين يغشاهما شبه دخان قاتم من السحاب، وبخاصة صخرة جبل طارق التي ظهرت كالأسد الرايسي يمتد ذراعاه في انحدار متدرج، ويلتوى الطرف كأنه المخلب العظيم، وكان جانبه الأيمن المواجه للمحيط مدرج الانحدار، وعليه قامت أبنية المدينة بعضها فوق بعض. أما جانبه الأيسر المواجه للبحر الأبيض فظهر زلقاً وعر المنحدر عري صخره عن كل شيء.

أقلنا زورق صغير إلى البر، فسرنا على أرصفة الميناء بالغة الطول، ثم دخلنا بوابات الأسوار والطوابق التي تحيط بالبلدة إلى الشارع الرئيسي مكتظ المباني قليل الاتساع، ومنه تتشعب الأزقة التي لا تكاد تتسع لشخصين متباينين تعلو بنا درجات إلى ذرى الصخرة، حيث تُقام الحصون العاتية والمدافع بعيدة المرمى. هنا أشرفنا على البوغاز كله تدرج المباني الصغيرة على جانبيه وتنتشر أحواض الميناء بالبواخر الحربية.

أما الناس هناك فخلط عجيب من سحن متباينة، وأزياء مختلفة، ولغات عده، على أن الإسبانية هي الغالبة، وقد ظهر عليهم الضنك ورقة الحال، فجلهم في أسمال خلقة،

وأجسام هازلة، ووجوه مصفرة، ولا يكادون يرتفعون إلا من وراء ما ينفقه السائحون
وهم قليلون، وفي أحد الميادين رأينا عدداً كبيراً من الإسبان اللاجئين إلى هذا البلد فراراً من
الثورة في إسبانيا، وكانوا في حال يُرثى لها، ولقد ركب السفينة عدد كبير من الراهبات
الهاربات من إسبانيا، والحكومة الحاضرة تضطهد رجال الدين وتطاردهم.



شكل ٥: ميدان أبراهام الذي هزم فيه الإنجليز فرنسا في كوبك.

ولقد أمر موسوليسي أن تنقلهم السفن الإيطالية مجاناً إلى إيطاليا. والثائرون من
الاشتراكيين الفاشستيين لم يطيقوا حكم الشيوعيين وسوء معاملتهم لرجال الدين، وكنا
نتوقع سمع بعض طلقات المدافع الإسبانية لأن القوم هناك يسمونها كل يوم. وكثير
من نساء جبل طارق يلبسن فوق الرأس طرحة سوداء تكاد تشبه الحجاب الشرقي،
ولقد دخلت إحدى كنائسهم فكانت حاشفة بهن رُكّعاً يقرآن أدعیتهن. ويظهر أن القوم
متدينون إلى حد كبير، ولا يزال للعهد العربي الإسلامي هناك بقية في قلعة عالية فوق
مباني المدينة، وقد تهدمت أركانها وتصدعت جوانبها، ويسمونها Moorish Castle.
طفنا بالبلدة ساعتين ثم عدنا في عربة يجرها حصان هزيل، وتلك العربات هي المطية
الرئيسية هناك، وقامت بنا الباخرة توغل في البحر الأبيض، وقد وَدَّعْت جبل طارق للمرة
الثانية وفي القلب حسراً وفي النفس أسى لانصرام العهد العربي في تلك البلاد.

كانت حفلة هذا المساء حاشدة على ظهر الباخرة، فلقد أُجرِيَ عقب العشاء مباشرة سباق الخيل – وهو ضرب من المقامرة كلف به القوم جميًعاً – ثم أعقبه شريط سينمائي بديع، ثم تقدمت فرقة من هواة المتطوعات عازفات على الفيثر والبانجو والمزمار وهن يغنين أدوارًا لم تُرقني كثيراً؛ إذ لم تطابق أصواتهن أوتار تلك الآلات، ثم أعقب ذلك الرقص إلى ساعة متأخرة من الليل. وعجب أمر أولئك المتطوعات، فهن يسافرن إلى البلاد الشرقية، ومصر من بينها؛ ليقفوا عند مفارق الطرق يعزفون ويغنين، ومتن التف حولهم جمع من الناس بدان التبشير الديني مُحاولاً رُدّ الناس عن دينهم إلى الدين المسيحي.

والمدهش أنهن مخلصات لهم هن هذه، وكنْ يُكلمنا وكلهن يقين بنجاحهن في ذاك العمل حتى خُيِّلَ إلىَّ وهن يتكلمن في حماسة نادرة أنهن سيحولنَّ البلاد جميًعاً إلى دينهن! غير أنني رجعت فريثيت لحالهن ولسذاجة عقولهن، وإلى متى يظل العالم أسير تلك الشعوذة الباطلة؟ وهلَّ وجَّهَ أولئك مجاهودهن إلى عمل إنتاجي نحن إليه أحوج، وبه أجدر؟!

مدينة الجزائر

كنا على أبواب مدينة الجزائر صباح يوم الجمعة فظهرت مدرجة فوق الربى ممتدة في طول هائل، وقد حللتُ لها للمرة الثانية، وطافت بنا سيارةُ أرجاء المدينة فأخذنا نصعد تدريجًا حتى بلغنا الذرى وأشرفنا على منظر ساحر للمدينة. وبيوتها البيضاء مدرجة إلى البحر، وأرصفة الميناء ضمت مختلف السفن، وأمّنتها حاجز الأمواج التي أقامتها يد الإنسان ولا تزال توسيع نطاقها كي تصبح الميناء ذات شأن تجاري كبير بموقعها المتوسط في البحر الأبيض. هنا أبصرنا بالوطنيين من المسلمين يمترجون مع الفرنسيين في ائتلاف عجيب لا فرق بين غني وفقير، وكثير من الوطنيين يلبسون الطرابيش السميكة الوطنية.

ولما دخلنا إلى الحي الوطني الصرف حول القصبة القديمة كانت الشوارع أرقة مختنقة لا تتسع لأكثر من شخصين، وتتكاد شرفات البيوت العتيقة تتساند على بعضها، ولا يكاد يدرك أرضها شعاع من الشمس؛ لذلك كانت رائحتها تشع وخمًّا حتى لم نطق صبراً على البقاء فيها طويلاً، وهي أحيا قذرة جدًا. والعجيب أن بعض الفرنسيين يقطنون تلك الأرقة مع الوطنيين ويشارطونهم معيشتهم البائسة الفقيرة. وقلما كنا

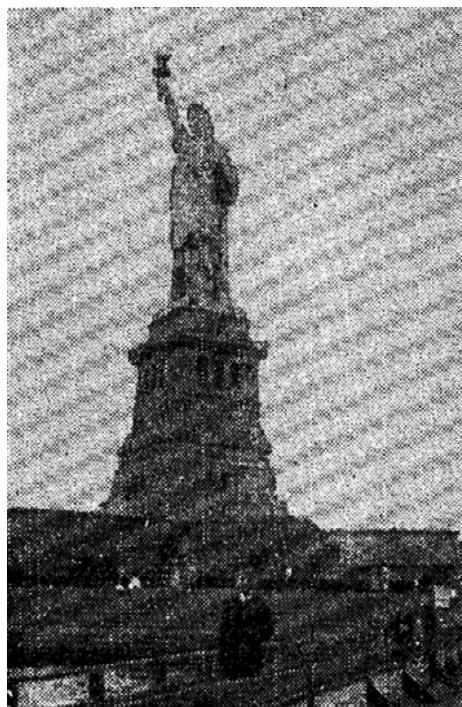
نسمع العربية، وإن نطق بها أحدهم كانت شوهاء محرفة منفرة، ويستسيغون الفرنسية عنها.

وقد مررنا بعده لا يُحْصى من المقاهمي البلدي يجلس عليها الجماهير في كسل كأنهم الذباب في شكلهم القذر وملابسهم المتناثة، وكثير منهم شوته الأمراض، ولقد هال ذاك رفقاء من الأميركيين الذين وفدو إلى الشرق لأول مرة وقد ألفوا الحياة الأمريكية وعنانية الدولة هناك بأحياء الفقراء، فقال أحدهم: أليس من العار على فرنسا أن تترك تلك الأحياء هكذا؟! وكيف تسمح بعرض المأكولات تعبث بها الأيدي ويفع عليها الذباب إلى هذا الحد المنفر؟! وهلّا ساقوا هؤلاء المرضى إلى المستشفيات رأفة بحالهم وحفظاً للناس من وبائهم؟ وفي الحق أني كنتأشعر بشيء كبير من الخجل لأنني شرقي تربطني بتلك البلاد صلة الجوار والدين، ولقد سألني أحدهم قائلاً: لا إخالني سأرى شيئاً من هذا في مصر عند زيارتي لها في مارس المقبل؟ فسكتُ عن الجواب، وقلت في نفسي: عسى أن تكون حكومتنا الجديدة قد عُنِيتُ بأحياء الفقراء، وبرقابة المطاعم، والضرب على أيدي المرتزقة من المتسللين والمشعوذين، وما ذلك عليها بعسر.

ولقد طغى ذاك الحي الوطني بقدارته فخلف أسوأ الذكرى في أذهان جل ركاب السفينة، حتى إني كلما سالت أحدهم: كيف رأيت مدينة الجزائر كان الجواب: Terrible & awful لم أر أشنع منها، فكنت أقول: ولكنكم نسيتم جمال الأحياء الأخرى وهي تفوق ثلاثي المدينة، فكانوا ينکرون علي ذلك ويقولون بأنهم لم يلمسوا بها جمالاً. وذلك يُظهر لنا مبلغ أثر تلك الهنات في نظر الأجنبي، ولذلك فهو إذا تحدث عن الإقليم لم يجد غير الاستنكار شيئاً.

بالرمو

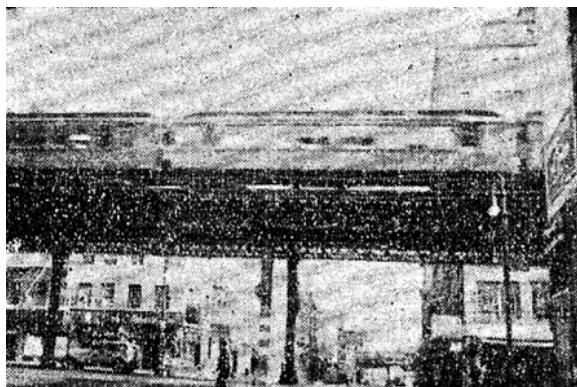
أبحرت بنا السفينة والجو حار والبخار كثيف، وفي الرابعة بعد ظهر السبت بدت جبال جزيرة صقلية الشمالية شاهقة غير مجده، وفي أسفلها مجموعة من قرى صغيرة، ثم التوت بنا في خليج فسيح تقوم عليه مدينة بالرمو عاصمة الجزيرة. ولقد مُدَّت حاجز الأمواج الصناعية وأمَّنت مكاناً متسعًا من غواصي البحر جعل المرفأً عظيماً، ولا يزال الإنشاء فيه قائماً على ساق وقدم، شأن موسوليني الذي يريد أن يُنْشِئَ بلاده من جديد. نزلنا البر فالتف بنا جمع لا يُحْصى من الباعة والحوذية والمتسللين يلحفون جميعاً، هذا



شكل ٦: تمثال الحرية في مدخل نيويورك.

يحاول إكراهنا على ركوب عربته أو سيارته، وذاك يضع بضاعته في جيوبنا لندفع له ثمنها، والثالث يطلب عوناً وصدقة.

وكانت الطرق المجانية للميناء قذرة جداً، وأهلها حفاة قدرون، والمأكولات تُعرض في شكل منفر تعبث بها الأيدي والأعين، ولما أن أوغلنا في قلب المدينة ظهرت قيمتها التاريخية في أبنيتها الفاخرة الضخمة، أذكر من بينها الكاتدرائية وقصر الملك والأوبرا وكثير غيرها في هندسة القرون الوسطى يزيّنها بعض الشيء الآخر العربي الأندلسي، ولقد كانت مقر ملك صقلية من بين الدولات الصليبية، وبها مجموعة فاخرة من كنائس لا حصر لها. ولا تكاد تمر بميدان أو منعطف إلا وتتجد صليبياً أقيمت أمامه الشبّاك وعلقت المصابيح، ويرکع المارة أمامه ويقبلون الأعتاب.



شكل ٧: القطار المعلق في نيويورك.



شكل ٨: في ناحية من نيويورك.

ومن الأزقة ما يشع وحشاً وعفونة لم نجد نطيقها، وهي مكتظة بالأهليين لدرجة أن البيت كان غرفة واحدة كأنها الحانوت يكدس الساكنون فيه كل متاعهم، وفي الوسط

سرير النوم، وقد يكون صاحبه تاجر بعض الشراب أو الطعام يعرض على منضدة أمامه، وقد يكون صانع أحذية كان نراه جالساً والحذاء على فخذيه يعمل فيه بمخرازه وخيطه في كد ونصب. وبالمدينة عدد كبير من الملياريين الفسيحة تتواططها النافورات والتماثيل على نمط مارأيناه في روما، إلى ذلك متزهات متفرقة، لكنها صغيرة المساحة وتفتقر إلى التنسيق والتلذيب، ومظهر الفقر وال الحاجة هو السائد على البلدة وأهلها، ولقد سألني صبي عوناً فقدمت إليه عشرين سنتيمًا، أي ٣ مليم، فكاد يطير فرحاً، وأخذ يرفع يديه إلى رأسه يحييني حتى غاب عن نظري، على أنهما على جانب كبير من الطرف وحب المعاشرة، وهم أميل إلى الشرقيين والمصريين في الشكل، وفي كثير من العادات وعدم التكاف.



شكل ٩: أكبر ناطحات السحاب في العالم.

نابُلي

قمنا في المساء إلى نابولي التي بدت طلائعها قبيل شروق الشمس وقد تجلى فيزوف مشرقاً عليها ينشر حجره في انحدار مدرج إلى البحر، وتقوم عليه أبنية المدينة، ولقد هالنا ما حل بالليناء من التجديد والتغيير، فلقد أقامها موسوليني من جديد في مظهر رائع جميل. ولما أن جُبِت بعض أرجاء البلدة بدا كثير من أحياها وشوارعها غير ما كان يوم أن زرتها في رحلاتي السابقة. وفي الحق أن الجنود التي يبذلها زعيم إيطاليا اليوم في رفع شأنها لتكسبه فخاراً وإجلالاً في نظر العالم أجمع، رغم ما نعلمه من موارد البلاد المحدودة التي لا تتحمل ذاك الإنفاق على شئون العمran والتلوّس الاقتصادي والحربي، لكن صدق الوطنية والعمل الخالص لصالح البلد وأهله هو الذي يأتي بالمعجزات.

طفقت أبحث عن بواخرنا المصرية عسى أن أجده في بها مكاناً، وقد آثرت وأنا في نيويورك ألا أبتاع تذكري إلى الإسكندرية من شركة أجنبية، لكنني أسفت لما علمت أن بواخرنا لا ترسو على نابولي، عندئذ قصدت إلى الشركة الإيطالية فلم أجد بالباخرة فكتوريا ولا التي تليها بعد أسبوع متسعًا في أية درجة من درجاتها، وبعد الجهد الشديد قبلوا أن أدفع ثمن تذكرة الدرجة الثانية وأسافر بشرط ألا أطال بهم بفراش أنام فيه، وطفقت ثلاثة ليالٍ كاملة أقضى ليالي على مقاعد الصالون، حتى تجلت أرض الوطن العزيز في باكوره الصباح فقررت بها عيني بعد أن غابت عني مائة يوم وعشرة.

